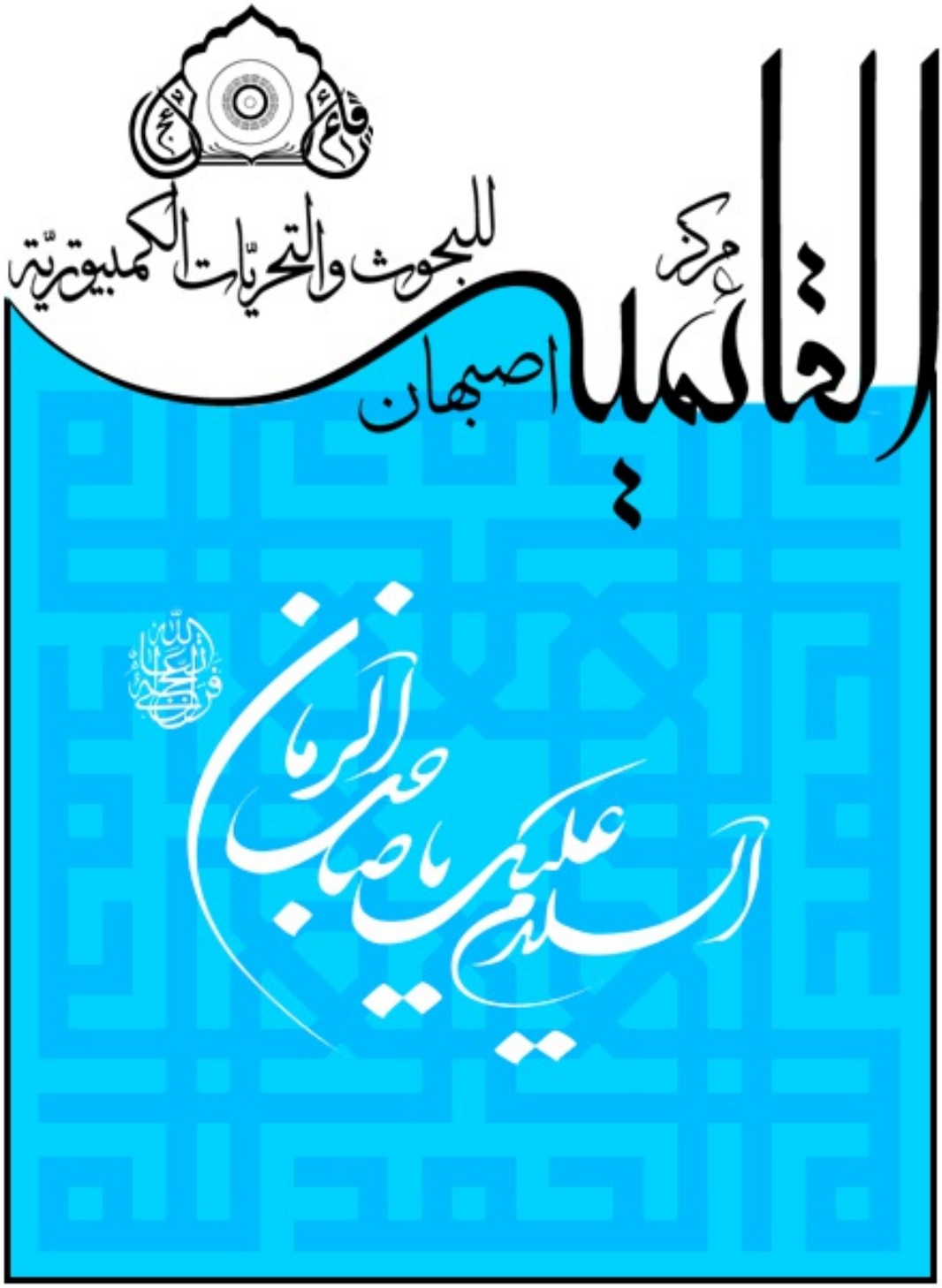

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

جعفر المرتضى العاملي

موسوعة العتبات المقدسة

٥

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعه العتبات المقدسه

كاتب:

جعفر الخليلى

نشرت فى الطباعة:

موسسة الاعلمى للمطبوعات

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
موسوعة العتبات المقدسة، المجلد ۵ ----- ۹
اشارة ----- ۹
الجزء الخامس ----- ۹
القدس فی المراجع الغربیة ----- ۹
اشارة ----- ۹
الاسم و الموقع ----- ۱۰
القدس فی دائرة المعارف الاسلامیة ----- ۱۲
القدس فی دائرة المعارف البریطانیة ----- ۱۶
اشارة ----- ۱۶
الأناء الذهب ----- ۲۱
من التاریخ القدیم ----- ۲۵
اشارة ----- ۲۵
هجرة ابراهیم علیه السلام الی أرض المیعاد ----- ۲۶
خروج الیهود من مصر الی أرض المیعاد ----- ۲۸
کیف استولی داود علی القدس ----- ۲۹
سلیمان الحکیم ----- ۳۰
ملکة سبأ فی القدس ----- ۳۲
نهایة الدولة الیهودیة ----- ۳۴
سبی بابل ----- ۳۶
حیاة السبی ----- ۳۸
العودة الی أورشلیم ----- ۳۹
فی حکم الیونانیین ----- ۴۰

المکابیون و ظهور السید المسیح ----- ۴۱
اشارة ----- ۴۱
صلب السید المسیح ----- ۴۳
تدمیر القدس علی أیدی الرومان سنة ۶۶- ۷۰ ----- ۴۵
بعد تدمیر القدس ----- ۴۹
استنتاجات أساسیة ----- ۴۹
استیلاء العرب علی بیت المقدس ----- ۵۲
اشارة ----- ۵۳
المسجد الاقصی ----- ۵۴
قبة الصخرة ----- ۶۰
وصف کریسویل لقبة الصخرة ----- ۶۴
القدس و الحروب الصلیبیة ----- ۶۷
اشارة ----- ۶۷
مملکة القدس الصلیبیة ----- ۷۰
کیف استرد صلاح الدین القدس ----- ۷۰
الحروب الصلیبیة فی مراجع أخری ----- ۷۲
رحلة بنیامین ۱۱۶۵ الی ۱۱۷۳ م ----- ۷۵
اشارة ----- ۷۵
رحلة الی القدس فی ۱۶۹۷ م ----- ۷۸
الأماکن المسیحیة المقدسة ----- ۸۰
زیارة أماکن أخری ----- ۸۲
القدس فی العهد العثمانی ----- ۸۳
القدس فی الحرب العالمیة الأولی ----- ۸۶
اشارة ----- ۸۶

المجاعة فی القدس ----- ۹۰
الجنرال اللنبی ----- ۹۰
مشکلات اداریة و غیر اداریة ----- ۹۱
وعد بلفور ----- ۹۴
اشارة ----- ۹۴
صک الانتداب ----- ۹۶
تنفیذ الانتداب ----- ۹۸
رئآسة البلدیة ----- ۱۰۰
حائط المبکی ----- ۱۰۱
بلفور فی القدس من أسالیب الصهیونیة الماکرة فی الدعایة و التضلیل، و توریط الأشخاص الذین تسخرهم لأغراضها الجهنمیة، استغلال فرصة افتتاح
الکفاح العربی ----- ۱۰۶
اشارة ----- ۱۰۶
مفتی القدس ----- ۱۱۰
فی الحرب العالمیة الثانیة ----- ۱۱۳
اشارة ----- ۱۱۳
تخلی بریطانیة عن فلسطین ----- ۱۱۵
تقسیم فلسطین ----- ۱۱۶
مناورات صهیونیة لإقرار التقسیم ----- ۱۱۷
دیر یاسین و أخواتها ----- ۱۱۹
مولد الدولة الاسرائیلیة ----- ۱۲۱
تدخل الجیوش العربیة ----- ۱۲۲
معرکة القدس ----- ۱۲۲
اشارة ----- ۱۲۳
مقتل الوسیط الدولی الکونت برنادوت ----- ۱۲۷

مقتل الملک عبد اللّه فی المسجد الأقصی ----- ۱۳۱
تدویل القدس ----- ۱۳۳
القدس فی ۱۹۶۰ ----- ۱۳۵
اشارة ----- ۱۳۵
شیء عن قبة الصخرة ----- ۱۳۶
القدس فی عام ۱۹۶۹ ----- ۱۳۸
فهرست الموضوعات ----- ۱۴۰
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۴۲

موسوعة العتبات المقدسة، المجلد ۵

اشارة

سرشناسه : خلیلی، جعفر، ۱۹۰۴ - م.

عنوان و نام پدیدآور : موسوعه العتبات‌المقدسه/ تالیف جعفر الخلیلی.

مشخصات نشر : بیروت: موسسه‌الاعلمی للمطبوعات، ۱۴ق= .-۱۳-

مشخصات ظاهری : ج: .مصور، عکس.

یادداشت : عربی.

یادداشت : فهرستنویسی بر اساس جلد ششم، قسمت اول: ۱۹۸۷م = ۱۴۰۷ق = [۱۳۶۶].

یادداشت : چاپ دوم.

یادداشت : ج.۱ (چاپ اول: ۱۳۸۷ق. = ۱۹۶۷م.= ۱۳۴۶).

یادداشت : ناشر جلد یکم کتاب حاضر دارالتعارف می باشد.

یادداشت : کتابنامه.

مندرجات : ج.۱. قسم کاظمین.- ج. ۶، ق. ۱، قسم‌النجف. - ج. ۷، ق. ۲، قسم‌النجف

موضوع : زیارتگاههای اسلامی -- تاریخ

موضوع : زیارتگاه‌های اسلامی -- عراق

رده بندی کنگره : DS۷۹/۹ /ز۹خ۸ ۱۳۰۰ی

رده بندی دیویی : ۹۵۶/۷۵

شماره کتابشناسی ملی : ۱۲۵۹۱۵

الجزء الخامس

القدس فی المراجع الغربیة

اشارة

کانت القدس و لا تزال قبلة أنظار العالم أجمع. لأنها البقعة الوحیدة التی أجمع معتنقوأ الدیانات الکبری الثلاث فیها علی تقدیسها و بذل الغالی و الرخیص من أجلها. و من الصدف ان تأتی کتابتنا هذه عنها فی وقت حمی و طیس النزاع فیه بین الباطل الیهودی الغاشم، الذی اغتصب هذه البلاد الغالیة، و حق العرب الصریح الذی انبری ابناؤهم البررة لاسترجاعها بکل ما یملکون من جهد و مال أو أنفس و رجال. و من المؤسف حقا ان ینحاز الغرب المسیحی، فی هذا الصراع العنیف من أجل الحیاة، بدافع من مصالحه، الی جانب الیهودیة المتطرفة و الصهیونیة فیساعدها، و یمدها بالعون المادی و المعنوی. لیتغلب باطلها علی الحق الصراح فی أرض الأنبیاء. و من الغریب کل الغرابة ان یتناسی الغرب المسیحی عداء الیهود للسید المسیح و أتباعه فی کل عصر أو زمان، فیقف فی صفهم و یعادی الحنیفیة السمحاء فی أرض البراق و الأسراء. و یخذل أبناءها فیعمل علی هضم حقوقهم و تشریدهم فی الآفاق، و هی التی فتحت صدرها الأهل الکتاب و رعت ابناءهم و طوائفهم فی أیام عزها و مجدها.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۸

الاسم و الموقع

يقول الاستاذ غى لسترانج ، المستشرق الانكليزى المعروف، فى كتابه (فلسطين فى عهد المسلمين) ان القدس تعرف عند المسلمين باسم «البيت المقدس» أو «القدس» باختصار، و هو اسمها الاعتيادى الآن. غير ان الاسم العبرى القديم «يروشاليم» كان يعرف جيدا لدى العرب فى السابق لكنه لم يكن يستعمل. و يذكر ياقوت الحموى اسماء أخرى مثل «يوريشالّوم»- بتشديد اللام- و «يوريشالوم» من دون تشديد، و «شلّام»، باعتبارها أسماء مختلفة للمدينة المقدسة هذه فى عهد اليهود الأقدمين.

كما يقول الاستاذ ف. بوهل فيما كتبه عن القدس فى دائرة المعارف الاسلامية ان كلمة «القدس» هى الاسم العربى الاعتيادى فى الأزمنة المتأخرة. و كان كتاب العرب القدامى يسمونها «بيت المقدس»، و يقصد بذلك فى الحقيقة هيكل سليمان الذى يسمى فى العبرية «بيت هامقديشا»، لكن الاسم شمل المدينة كلها بعد ذلك. و كذلك كان يسميها العرب «إيلياء»، و هذا الاسم قسم من الاسم الرومانى الذى أطلق عليها بعد سنة ۱۳۵ م، و هو «إيليا كابيتولينا». و قد عرفوا الاسم القديم «جيروسالم»، أيضا و حوروه الى «أوريشالم». و يذكر المقدسى كذلك اسما آخر للقدس و هو «البلاط» المستخرج من كلمةPalatium ، الذى ربما أريد به «المسكن الملكى».

اما دائرة المعارف البريطانية فتذكر فى هذا الشأن أن أول دليل و ثائقى عن وجود القدس يعود الى سنة ۱۳۷۰ قبل الميلاد. فقد اكتشفت ألواح فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۹

تل العمارنة بمصر تسميها باسم «أوروسالم»، و من المحتمل ان يكون معناه «مدينة السلام» أو مقر إله من آلهة الساميين يدعى «سالم». و جاء فى كتاب (فلسطين العرب) (لمؤلفته الانكليزية الفاضلة المستر ستيوارت ايرسكين (الص ۹- ۲۴) قولها فى هذا الشأن: و يعنى اسمها الذى بقى غير متبدل خلال ألفى سنة من النور و العتمة «دار السلام» أو «إرث السلام» كما يفهم من كلمة «يوروسالمو» الكنعانية و «ياروشلاييم» العبرية و «هيروسوليمة اليونانية. اما اسمها العربى فيدل على الحرمة و القدسية.

و قد لاحظنا فى دائرة المعارف اليهودية ما مفاده ان اسم القدس يذكر فى العهد القديم، و على معظم العملة العبرية القديمة باسم «يروشلايم»، و بالآرامية «يروشلم»، و بالآشورية «يوروسالم» و «يوروساليمو». اما تركيب الكلمة و معناها فهناك عدة آراء فيهما، فانها تعنى على ما قيل «دار السلام» أو «دار سالم» أو «أساس السلم» او «اساس شلم»، و شالم هو إله السلام. و بالنسبة لما يذكر فى المدراش اليهودى انها تتألف من «شالم» و هو الاسم الذى كانت تسمى به مدينة سام (بن نوح)، و من «يرعه» أو «يرءه» و هو الاسم الذى أطلقه عليها ابراهيم عليه السلام. لكن التعريف العملى المعقول للاسم يأتى بمعنى «يوروشالم» اى مدينة الاله شالم. و قد يكون هذا هو الاله الآشورى شالمان او شولمان او الاله الفينيقى و المصرى شارامانا.

هذا و تقع القدس على خط عرض بدرجة ۳۱ و ۴۶ دقيقة و ۴۵ ثانية شمال، و بخط طول ۱۵ درجة و ۱۳ دقيقة و ۲۵ ثانية. و تقوم فوق الجناح الجنوبى لهضبة يتحدر اتجاهها الشرقى من ۲۴۶۰ قدما فوق سطح البحر شمالى موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۰

منطقة الهيكل الى ۲۱۳۰ قدما فى الطرف الجنوبى الشرقى. و يرتفع الجبل الشرقى الى ارتفاع ۲۵۰۰ قدم عن سطح البحر ثم ينحدر فى اتجاه جنوبى شرقى من هضبة اليهودية.

و تحاط القدس من جميع جهاتها بأودية لا يكون القسم الشمالى منها واضحا كل الوضوح. و يبدأ الواديان الرئيسيان من شمال غربى المدينة الحالية (القديمة)، فيمتد الأول نحو الشرق بانحناء طفيف الى الجنوب (و هو وادى الجوز) ثم ينحرف الى الجنوب رأسا فيكون وادى «ستى مريم» الذى كان يسمى وادى كدرون، فيعزل المدينة عن جبل الزيتون. اما الثانى فيمتد رأسا الى الجنوب من الجهة الغربية للمدينة، ثم يتجه شرقا فى الطرف الجنوبى الشرقى.

و عند ذاک يتجه الى الشرق مباشرة فيتصل بالوادى الأول بالقرب من بئر أيوب. و يسمى هذا وادى الربابى، و كان يسمى قبلا وادى هنوم .

و هناک واد ثالث يبدأ من الشمال الغربى حيث يوجد باب دمشق، و يمتد فى اتجاه جنوبى شرقى الى برکة سيلوم، و يشطر القسم الجنوبى الى شطرين.

و يوجد واد رابع كان يمتد من التل الغربى (بالقرب من باب يافا) الى منطقة الهيكل، و هو الذى يمثل شارع النبى داود حاليا.

اما ما يذكره لسترانج عن موقع القدس و اهميتها و اسمها، علاوة على ما اقتبسناه قبل هذا منه، فهو قوله أن الامبراطور هدريان الرومانى حينما أخرج اليهود من القدس (۱۳۰ م) سماها «ايليا كابيتولينا». و تحوم حول هذا الاسم أساطير كثيرة يذكرها ياقوت: فهو يقول استنادا الى رواية كعب انها سمّيت أيليا لأن هذا كان اسم امرأة كانت قد شيدت المدينة المقدسة من قبل. و يعنى هذا الاسم أيضا، على ما يقال، بيت اللّه. و هناک من يقول انها سميت كذلک باسم بانيها ايليا بن آرام بن سام بن نوح، و كان أخا لدمشق

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۱

و حمص و أردن. و كانت تسمى فى الشعر العربى احيانا «البلاط» و هى كلمة استعارها العرب فى الأصل من الكلمة اللاتينية بالاتيوم Palatium .

ثم يذكر لسترانج: ان القدس لم تكن من الناحية السياسية عاصمة «جند» فلسطين الاسلامية مطلقا، و انما كانت الرملة هى العاصمة. لكن المدينة المقدسة، و هى تحتوى على المسجد الأقصى و قبة الصخرة و سائر الأماكن المقدسة كانت تعتبر فى المرتبة الثانية فى القدسية بعد مدينتى الحجاز المقدستين، مكة و المدينة، فى نظر المسلمين. و أنها سوف تكون المكان الذى يجتمع فيه البشر قاطبة يوم الحشر. و قد كتب عنها الاصطخرى و ابن حوقل يقولان (القرن العاشر) إنها مدينة توكّر عاليا فوق التلال، و يمكن للمسافر ان يصل اليها من جميع الجهات، و ليس فيها ماء جار سوى الماء الذى يستخرج من العيون و يستعمل لسقى الحقول، و مع هذا فهى من أخصب بقاع فلسطين.

و قد كتب هذه الكتابة فى أيام ازدهار الرملة و عزتها، حين كانت عاصمة الصقع الجنوبى السورى بينما كانت دمشق عاصمة الصقع الشمالى.

و يشير لسترانج ايضا الى ان المقدسى يذكر كذلک، و هو من أبناء بيت المقدس، ان المنطقة المقدسة تقع فى ضمن نصف قطر طوله أربعون ميلا من القدس و تدخل فيه قرى كثيرة، ثم تمتد على طول اثنى عشر ميلا من ساحل البحر الميت الى صفار و مؤاب، و الى خمسة أميال بعد ذلک فى البادية. اما من الشمال فتمتد الى حدود نابلس. و هذه بلاد تنبت فى مرتفعاتها الأشجار، و تمتد فى سهولها الحقول التى لا تسقيها الأنهار. و يصح فيها قول الرجلين اللذين جاءا الى موسى بن عمران و أخبراه بأنهما رأيا بلادا يسيل فيها اللبن و العسل ..

و يقول المقدسى بعد ذلک انه شاهد بنفسه يوما ما فى القدس ان الجبن كان يباع بسدس الدرهم للرطل الواحد، و السكر بدرهم للرطل الواحد. و بهذا المبلغ كان بوسع المرء ان يحصل يومذاک على رطل و نصف من زيت الزيتون و أربعة أرطال من الزبيب.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۲

و بعد ان يحول لسترانج هذه الأسعار الى العملة و المقاييس الانكليزية ليبرهن على الرخاء الذى يفصله المقدسى يقول ان الحصب الطبيعى العظيم فى منطقة القدس يشير اليه الكتاب العرب على الدوام. و يعزى ذلک الى لطافة المناخ و ملائمة الأحوال الجوية، ثم يستشهد بقول المقدسى عن رطوبة جوها الذى يذكر انه عندما تهب الريح الجنوبية فى فلسطين خلال الصيف يتراكم الندى فوق شبابيک المسجد الأقصى و يسيل منها. و تأييدا لهذا يورد لسترانج فى حاشية له (الص ۸۷) ما يقوله غايكى فى كتابه (الأرض المقدسة و الأنجيل) عنها. إذ يقول غايكى ان السماء الصاحية فى فلسطين تسبب انتشار حرارة النهار فى الفضاء بسرعة، فيؤدى ذلک

الى ان تكون الليالى باردة و النهارات بعكسها. و بسبب برودة الهواء فى هذه الليالى تسقى النباتات سقيا طبيعيا. فالرطوبة التى يحملها الهواء تمتصها الأرض التى يلامسها ذلك الهواء.

و يحيلها الهواء البارد الى قطرات من الماء تتناثر بشكل مطر ضبابى مستحب فوق النبتات العطشى.

و يقول بعد هذا ان موقع القدس و هى تقبع فوق جناح ممتد من الجبل.

و تحيط بها وديان عميقة من ثلاث جهات، كان على ما يظهر قد لفت أرنظا الحجاج القادمين اليها من الشرق و الغرب، لا سيما و ان العرب كانوا متعودين على إنشاء مدنهم الكبيرة فى الوديان، او السهول للاستفادة من مياه الأنهر و الحداول. و هنا يورد لسترانج وصف الرحالة المسلم ناصر خسرو للقدس حينما وصلها فى ۵ مارت ۱۰۴۷ م بالطريق الشمالية. فهو يقول: و بعد أن تابعنا السير فى طريقنا الصاعد على بعد قليل من قرية انفتح أمامنا سهل عظيم كان قسم منه حجريا و قسم ذا تربة جيدة. و هنا امتدت أمامنا بيت المقدس كما لو كانت موكرة فوق قمة الجبل. و يسمى أهالى سورية و ما جاورها من موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۳

البلاد المدينة المقدسة هذه باسم «القدس»، و هم اذا لم يكن فى استطاعتهم الحج الى مكة يذهبون فى الموسم المعين الى القدس فيؤدون فيها الشعائر و ينحرون الأضاحى يوم العيد كما يفعل الحجاج فى مكة. و هناك سنين يبلغ عدد القادمين اليها عشرين ألفا خلال الأيام الأولى من ذى الحجة. و يأتى النصارى و اليهود كذلك من جميع بلاد اليونان و غيرها بأعداد كبيرة لزيارة كنيسة القيامة و الكنيس اليهودى الكبير فيها.

و يقول ناصر خسرو كذلك- فيما ينقله لسترانج عنه- ان الأراضى و القرى المحيطة بالمدينة المقدسة تقع فى سفوح التلال الكبيرة، و تحرث الأرض فيزرع فيها القمح و الزيتون و التين، و هناك أنواع عديدة من الأشجار أيضا.

و مع عدم وجود مياه للارواء فان الحاصلات تكون وافرة جدا فيها و الأسعار معتدلة. فان كثيرا من الناس يستخرجون ما يقرب من خمسين ألف من (۸۰۰، ۱۶ غالون) من زيت الزيتون فى السنة. و هذا يحفظ فى أحواض و صهاريج و يصدر منه مقدار غير يسير الى الخارج بعد ذلك. و المقول أن الجدب و المحل لم تعرفهما سورية- و من ضمنها فلسطين- فى سنة من السنين قط.

و تقع القدس فوق الجبل .. و تحاط بأسوار من الحجر لها أبواب حديد.

و ليس هناك من حولها أشجار لأنها مبنية على الصخر. و القدس مدينة عظيمة جدا، و كان عدد سكانها حينما زرتها حوالى عشرين ألف نسمة، و فيها أسواق عالية مبنية بناء حسنا. و جميع شوارعها مبلطة بقطع من الحجر، و أينما وجد تلّ أو مرتفع فيها يقطع و يسوى، و حالما يقع المطر يغسل البلد كله. و هناك فى المدينة عدد كبير من (الفنانين) و أصحاب الصنعة و لكل حزلة من الحرف سوق خاصة بها.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۴

القدس فى دائرة المعارف الاسلامية

بعد ان يذكر الاستاذ بوهل، كاتب الخلاصة عن القدس فى هذه المعلمة، ما اقتبسناه قبل هذا عن اسم القدس و يقول ان هذه المدينة المقدسة و لو كانت تقوم فى خارج نطاق المصالح التى كان يعنى بها النبى محمد عليه السلام فقد أصبحت ذات أهمية خاصة له حينما أخذ يتجه نحوها فى صلواته، على غرار ما كان يفعله اليهود (كذا). أضف الى ذلك أنها كانت، بالنسبة لما يذكره القرآن عن المسجد الأقصى. هدف إسرائه المعروف. و كان المقصود بهذا فى ذلك الوقت الذى لم يكن قد بنى المسجد الأقصى فيه بعد موقع هيكل سليمان القديم. على ان صحة هذا القول غير أكيدة، فى رأى الأستاذ بوهل، لأن عددا من الكتاب يؤيد رأى الأستاذ هورويتز بان المقصود فى القرآن (أو ما كان يقصده النبى عليه السلام على حد تعبير بوهل) هو مكان ما فى السماء كما يفهم من سورة الاسراء. لكن الرأى التقليدى الذى لا بد من أن يكون قد نشأ فى وقت مبكر يرجح كفة بيت المقدس و أهميتها فى هذا الشأن. لأن

هذا الرأى هو الذى بنى عليه اعتبار المزار الاسلامى المقدس فى القدس من الأماكن المقدسة الثلاثة التى يصلى فيها مسلمو العالم. ثم يضيف الكاتب الى ذلك قوله: و الحقيقة أنه يفضل على الحرمين المقدسين الآخرين فى بعض الأحيان (أى مكة و المدينة)، و لا نظنه مصيبا فى ذلك.

و هناك روايتان مختلفتان عن استيلاء العرب على بيت المقدس. إذ تنص الرواية الغالبة على ان القائد العربى أبا عبيدة طلب الى الحليفة عمر فى سنة ۱۷ للهجرة (۶۳۸ م) ان يشد الرحال الى قصره فى الجابية، لأن سكان بيت المقدس اشترطوا فى تسليمهم ان يعقد اتفاقية التسليم الخليفة عمر بنفسه. اما الرواية الأخرى التى يؤيدها المستشرق الهولاندى دى غريبه فى كتابه عن فتح سورية فترجح ان الخليفة جاء الى الجابية من تلقاء نفسه لتنظيم شؤون المناطق المستولى عليها، و من هناك بعث بخالد بن ثابت الى القدس ليحاصرها.

و الرواية الأخرى التى يؤيدها المسشرق الهولاندى ذى غريبه فى كتابه عن موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۵

فتح سورية فترجح ان الخليفة جاء الى الجابية من تلقاء نفسه لتنظيم شؤون المناطق المستولى عليها. و من هناك بعث بخالد بن ثابت الى القدس ليحاصرها ثم صادق عمر على الشروط التى وضعها خالد للاستسلام من بعد ذلك. و كانت هذه الشروط التى وصلت الينا بمختلف الصور و الاشكال معتدلة جد الاعتدال فقد منح سكانها المسيحيون الأمان على أرواحهم و ممتلكاتهم و كنائسهم و صلبانهم بينما طلب اليهم ان لا تستعمل كنائسهم للسكن. و ان لا تهدم أو يقلل من حجمها و اتساعها. و ان يحتفظوا بحريتهم الدينية. و كان عليهم فى مقابل ذلك ان يدفعوا الجزية. و يساعدوا المسلمين فى رد الجيوش البيزنطية و سائر الغزاة.

اما تاريخ فتح بيت المقدس فهناك اختلاف بين المؤرخين فيه، و منهم الطبرى مثلا الذى يحدده بربيع الثانى من سنة ۱۶ للهجرة.

و هناك تفصيلات أخرى يوردها مختلف المؤرخين النصارى و المسلمين عن سلوك العرب فى أثناء الاستيلاء على بيت المقدس. إذ يذكر ثيوفاتس الذى كتب كتابه فى نهاية القرن الثامن للميلاد ان الخليفة حينما عقد الاتفاقية المطلوبة، التى كانت فى صالح المسلمين الى آخر حد ممكن، دخل المدينة المقدسة و هو يلبس اسمالا متسخة- دلالة على ريائه الشيطانى- على حد قوله و طلب ان يؤخذ الى موقع الهيكل الذى جعل منه بعد ذلك محلا للعبادة الوثنية (كذا).

و لا شك أن تعصب هذا المؤرخ ضد المسلمين و تأثره من طردهم لقومه البيزنطيين هو الذى جعله يكتب بهذه اللهجة بعد أن اعترف بالمعاملة الحسنة التى عومل بها مسيحيو بيت المقدس. و قد كتب عن ذلك فى القرن العاشر الميلادى بلهجة أحسن من هذه المؤرخ المسيحى المصرى يوتيكس فقال بتفصيل أوفى نوعا ما أن الخليفة عمر رفض ان يصلى فى رواق كنيسة القيامة بل صلّى عوضا عن ذلك على سلّم مدخلها ليحول دون مطالبة المسلمين بالكنيسة بعد ذلك و قلبها إلى جامع لهم و انه اعطى البطريرك صفرونيوس وثيقة تؤيد ذلك و بطلب منه دلّه صفرونيوس بعد هذا على الصخرة التى كانت مغطاة موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۶

بانقاض من الزبل و الاقذار، و حذا حذوه المسلمون، و سرعان ما بانت الصخرة لهم، و أمر فى الوقت نفسه بأن يشيّد المسجد بحيث تكون الصخرة فى ظهر المسلمين و ليس قدامهم. و من الواضح أن هذه القصة أريد بها تأكيد حقوق النصارى فى كنائسهم بأمر من الخليفة الأعظم. لكن المؤرخين المسلمين تخلو كتاباتهم من مثل هذا الاتجاه بطبيعة الحال- حيث أنهم يظهرون المسيحيين فى غير هذا الوضع. فهم يذكرون ان القس و ليس البطريرك حاول بادىء ذى بدء ان يغش الخليفة عمر حينما طلب ان يؤخذ الى هيكل داود. بأخذه الى كنيسة القيامة و كنيسة صهيون. لكن الخليفة فطن الى ذلك. لأن النبى عليه السلام كان قد وصف له المكان كما شاهده فى ليلة المعراج. و أخيرا أخذ الى موقع الهيكل فعرف أنه المكان الحقيقى. و يذكر الطبرى قصة أخرى فى هذا الشأن.

و بعد هذا يقول الدكتور بوهل كاتب البحث اننا اذا حللنا هذه الروايات بأمعان نجد أنها كلها تجمع على ان عمر طلب تشييد مكان للعبادة فى بقعة الهيكل المهجورة. و أننا متأكدون تاريخيا من هذا لأن المطران اركولفوس يذكر فى كتابه الذى كتبه حوالى سنة ۶۷۰ م ان المسجد كان بسيطا جدا فى بنائه. لكنه كان يستوعب ثلاثة آلاف من المصلين. و الحقيقة ان ما حدث كان حلا عمليا جدا للمشكلة. فقد وضع الخليفة اليد على موقع كان يعتبر مقدسا منذ مدة طويلة من الزمن، من دون أن يصطدم بالامتيازات التى منحت

للنصارى لأنهم لم يشيدوا أية كنيسة على موقع الهيكل. و من الواضح بالاضافة الى ذلك ان ما يرويه لنا يوتيكوس حول صلاة عمر على سلم رواق كنيسة القيامة يعتبر قصة موضوعة لا سند تأريخيا لها، و قد أريد بوضعها رد تعديات المسلمين عليها. لكن هذا التحيز فى القصة يظهر بوضوح من قصة أخرى يرويها يوتيكوس، مفادها أن المسلمين فى أيامه (النصف الأول من القرن الميلاد العاشر) تجاوزوا تعليمات عمر و استولوا على نصف الساحة الأمامية موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۷

للنصارى لأنهم لم يشيدوا أية كنيسة على موقع الهيكل. و من الواضح بالاضافة الى ذلك ان ما يرويه لنا يوتيكوس حول صلاة عمر على سلم رواق كنيسة القيامة يعتبر قصة موضوعة لا سند تأريخيا لها، و قد أريد بوضعها رد تعديات المسلمين عليها. لكن هذا التحيز فى القصة يظهر بوضوح من قصة أخرى يرويها يوتيكوس، مفادها أن المسلمين فى أيامه (النصف الأول من القرن الميلاد العاشر) تجاوزوا تعليمات عمر و استولوا على نصف الساحة الأمامية بقرب السلم الذى صلى عليه الخليفة و بنوا فيه مسجدا سموه «مسجد عمر» لأن عمر كان قد صلى فى موقعه. و يعتقد شمالز ان. شيئا من بقايا أعمدة المسجد المذكور يمكن أن تلاحظ الآن.

و فى عهد الأمويين، أدت الأحوال السياسية الى ارتفاع شأن بيت المقدس و أهميتها. فانهم لم يكونوا كثيرى الاهتمام بتعاليم النبى محمد و ميوله، و لذلك لم يكن من الصعب عليهم ان يتركوا مدن الجزيرة العربية المقدسة حينما يكون من الصعب عليهم الوصول اليها لسبب من الأسباب. و كانت القدس على الأخص، بالنسبة لقدسيتها التى اعترف بها النبى و بعض الآيات القرآنية، يمكن ان تحل فى محل تلك الأماكن المقدسة بطريقة ما، لا سيما و ان الوصول اليها من دمشق كان أسهل من الوصول الى مكة و المدينة.

و مما يدل على التقدير الذى حظيت به القدس ما فعله معاوية حينما دبر أمر بيعته للخلافة فيها. فيذكر مرجع سريانى نشره المستشرق نولدكه ان كثيرا من العرب اجتمعوا فى تموز ۷۱ (صفر- ربيع ۴۰) فى بيت المقدس لتنصيبه ملكا، و أنه نزل الى الضريح المقدس فصلى فيه، ثم ذهب الى قبر مريم و صلى حوله كذلك. و تذكر المراجع العربية انه بويع فى بيت المقدس سنة ۴۰.

و لا بد من أن يكون هذا قد حصل على أثر مقتل الامام على فى السابع عشر من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۸

رمضان. و خطا عبد الملك بن مروان (۶۵- ۸۶ ه (، ۶۸۵- ۷۰۵) خطوة أخرى فى هذا الاتجاه. فحينما استولى عبد اللّه بن الزبير على مكة خاف عبد الملك من أن يجبر السوريون الذين يقصدون مكة لحج بيت اللّه الحرام فيها على الالتحاق به. او يتم اقناعهم بذلك. و لهذا منعهم من الذهاب الى الحج، و حينما احتجوا عليه و ذكروه بأوامر الرسول فى هذا الشأن أمرهم بالحج الى بيت المقدس و الصخرة المقدسة فيها، و اشار لهم الى حديث أورده الزهرى اعتبر النبى بيت المقدس فيه فى سوية مكة و المدينة، بكونها محجا لا يقل عن مكة و المدينة فى أهميته. و للتعبير عن هذا التقدير لبيت المقدس فى الزينة و البهاء أمر الخليفة الأموى بأن تبنى قبة خاصة فوق الصخرة التى وضع النبى قدمه الشريفة عليها حينما عرج الى السماء، فبنيت قبة الصخرة. و تنسجم فكرة تعمد عبد الملك، فى جعل قبة الصخرة تفوق قبة كنيسة القيامة فى جمالها و فخامتها، مع هذا الاتجاه. و هناك مؤرخون يجعلون الوليد بن عبد الملك بانى قبة الصخرة و ليس والده. لكن هذه الرواية تناقض الكتابة الموجودة التى حذف منها اسم عبد الملك و وضع فى محله اسم الخليفة العباسى المأمون. حيث أن التحريف بقى غير متقن بحيث ما زالت الألوان و الأسماء تدل على الحقيقة و يقول المؤرخون المتأخرون كذلك (ابن تغرى بردى و العليمى و الخ) ان عبد الملك بنى أيضا المسجد الأقصى الذى استمد اسمه من الآية القرآنية المعروفة

و فى خلال القرون التى أعقبت ذلك يعتبر تاريخ بيت المقدس شبيها بتاريخ سائر المدن السورية بعد أن تضاءلت أهميتها من الناحية الدينية الاسلامية، و أصبحت فى المؤخرة. فبعد زوال الحكم الأموى أصبحت تابعة للعباسيين، ثم الى الطولونيين. و الى الفاطميين بعد سنة ۹۷۴ م. و فى سنة ۱۰۰۹ هدمت كنيسة القيامة بأمر من الحاكم بأمر اللّه، لكن الامبراطور البيزنطى أعاد بناءها بموجب المعاهدة التى عقدت بعد سنة ۱۰۳۸. ثم خسرها الفاطميون باستيلاء السلجوقيين عليها فى ۱۰۷۰. و قد ذبح سكانها على أثر ثورة نشبت فيها سنة ۱۰۷۶، و بعد ان استردها الخليفة الفاطمى المستعلى فى ۱۰۹۶ استولى عليها الصليبيون فى ۲۵ تموز ۱۰۹۹ و وضعوا السيف فى

سكانها. و قد عمد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۹

الصليبيون هؤلاء الى قلب الجوامع الى كنائس.

و بعد ان استردها صلاح الدين فى ۱۱۸۷ أضاعت القدس صبغتها المسيحية و أزيلت معالم الاحتلال النصرانى لها. و قد عنى صلاح الدين عناية خاصة فى إعادة المسجد الأقصى الى رونقه و بهائه الاسلاميين. على ان كثيرا من النصارى سمح لهم بالبقاء فيها. و فى الفترة المنحصرة بين ۱۹۲۹ و ۱۲۴۴ امتلك المسيحيون القدس من جديد- عدا اماكن المسلمين المقدسة فى الحرم- على اثر الاتفاقية التى عقدها الامبراطور فردريك الثانى مع الملك الكامل الأيوبى.

و فى ۱۲۴۴ وقعت بيت المقدس ثانية فى أيدى الأيوبيين. و سرعان ما أصبحت هى و جميع سورية و فلسطين جزءا من ممتلكات المماليك.

داخل قبة الصخرة و قد تم انشاؤها سنة ۶۹۱ م فوق جبل (المريا) الذى يعتقد انه نفس الموضع الذى قام ابراهيم بذبح ابنه اسحاق قربانا على رواية التوراة و بعض المؤرخين.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۰

و بعد ۱۵۱۶ صارت القدس تابعة الى الامبراطورية العثمانية. و لم يعد تاريخها حافلا بالحوادث المهمة. على ان فترة التاريخ العثمانى جميعها يتخللها من الحوادث المهمة فقط احتلال المصريين لها فى ۱۸۳۱- ۱۸۴۰ فى أيام محمد على. و فى القرن التاسع عشر أصبح النفوذ المسيحى يتزايد فيها بالتدريج.

و بعد ان نشبت حرب القرم التى تحالفت فيها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية المعظمة ضد روسية رفع الحظر الذى كان مفروضا على غير المسلمين فى زيارة منطقة الهيكل. و منذ سنة ۱۸۸۱ كان هناك شىء غير يسير من هجرة اليهود اليها.

و بنتيجة ما وقع فى الحرب العامة الأولى اصبحت القدس عاصمة فلسطين الخاضعة الى الانتداب البريطانى. و فى النزاع الذى أعقب ذلك بين العرب و الهجرة اليهودية خلال مدة الانتداب على فلسطين و بعدها أدى الشعور القومى المتصاعد الى تمتين الأواصر التقليدية التى تربط المسلمين بالقدس و أماكنها المقدسة. و حتى بعد ان تكونت اسرائيل فى ۱۹۴۸ بقى وضع القدس النهائى غير مقرر.

و نقول تعليقا على ما جاء فى هذه الخلاصة من ان معاوية بويع فى القدس ملكا على بلاد الشام بعد مقتل الامام على عليه السلام بأن المستشرق الألمانى يوليوس فلها وزن يذكر فى كتابه (تاريخ الدولة العربية) ان مهادنة جرت فى سنة ۴۰ ه بين على و معاوية .. و يروى انهما اتفقا فأقام معاوية فى الشام بجنوده يجبيها و ما حولها. و على بالعراق يجبيها و يقسمها بين جنوده.

و لا يمكن ان تكون هذه المهادنة الا قصيرة الأمد، لأن معاوية اتخذ لنفسه فى أول سنة ۴۰ ه لقب الخلافة فى بيت المقدس عام ۴۰ ه. و هو يذكر فى هذا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۱

الحادث روايتين مستقلتين، فيقول: و فى عام ۶۷۱ اجتمع كثير من العرب فى بيت المقدس و نصبوا معاوية ملكا، فصعد معاوية الى جبل الجلجلة Golgata و صلى هناك ثم صعد الى جيتسمانى، ثم هبط الى قبر السيدة مريم و صلى ..

و فى شهر تموز ۶۷۱ اجتمع الأمراء و كثير من العرب و بايعوا معاوية، و صدر الأمر بان ينادى به ملكا فى جميع أنحاء بلاده، و لكنه لم يحمل تاجا كما يحمله سائر ملوك العالم. على أنه أقام عرشه فى دمشق و لم يرد ان يذهب الى مقر النبى (المدينة). و يقول المسروقى أيضا ان أهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة فى ايلياء سنة ۴۰ ه، و لكن من الخطأ القول بأن ذلك لم يحدث الا بعد وفاة الأمام على .. ثم يعيد فلها وزن ذكر الخبر نفسه فى مناسبة أخرى يتطرق فيها الى ان «معاوية لم يكن فى قلبه تعلق عميق بالاسلام» و

أنه كان يتخذ الثأر لمقتل عثمان هو الأساس الذى بنى عليه حقه فى وراثة الخلافة. و لذلك اتحد مع عمرو بن العاص الذى ألّب على عثمان أخبث تأليب (الص ۱۲۸ و ۱۲۹ من الترجمة العربية).

القدس فى دائرة المعارف البريطانية

اشارة

ان خلاصة دائرة المعارف هذه، التى اشرنا اليها قبل هذا، فيها تفصيل أوفى عن القدس. و تبدأ بقولها ان القدس هى المدينة المقدسة رقم واحد لليهودية و النصرانية، و حرم الاسلام الرئيس بعد مكة و المدينة. و قد كانت مركزا للورع الدينى فى العالم و قبلة له خلال حقبة غير متقطعة تمتد الى ما قبل ثلاثة آلاف سنة. ثم قسمت فى ۱۹۴۸ ما بين الأردن و «اسرائيل» فاصبح القسم الاسرائيلى منها عاصمة لاسرائيل.

و تقع القدس فى جبال اليهودية على ارتفاع يبلغ معدله ۲۵۰۰ قدم فوق سطح البحر الأبيض المتوسط من الغرب، و ۳۸۰۰ قدم فوق سطح البحر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۲

الميت من الشرق. و تعزى أهمية موقعها أولا- الى مناعتها الطبيعية، لأنها محمية من الهجمات بوديان عميقة، مثل وادى ستى مريم (كدرون) من الشرق و وادى الربانى (هنوم) من الغرب، اللذين يلتقيان فى طرفها الجنوبى تاركين الجهة الشمالية فقط معرضة للأخطار. و ثانيا الى وجود منبع ماء دائم فى جناحها الشرقى، و هذه ميزة نادرة فى فلسطين. و ثالثا لسيطرتها على الممر الذاهب من الشرق الى الغرب فى شمال البحر الميت مباشرة. و قد كان تاريخها يتميز بظاهرتين: فانها كانت ابدا و دوما موطنا للتوحيد و مأوى له، لكن مصائرها المادية كانت تعتمد من دون تغيير على خصومات الدول و الحكومات الخارجية.

قدس العهد القديم- ان أول بنية و ثائقية عن وجود القدس يعود تاريخها الى سنة ۱۳۷۰ قبل الميلاد، فقد اكتشفت ألواح فى تل العمارنة بمصر يطلب فيها حاكم القدس يومذاك المساعدة من الفرعون أخناتون لأن البلاد أخذت تتعرض للاكتساح. و تسمى المدينة «أوروسالم»، و ربما كان يعنى ذلك «مدينة السلام»، أو مقر إله من آلهة الساميين يدعى «سالم». و قد أظهرت فى سنة ۱۹۶۱ الحفريات التى أجرتها «مدرسة الآثار القديمة البريطانية» فى القدس ان بلدة «مسورة كانت توجد فوق قسم من موقعها الحالى خلال العصر البرونزى الثانى، أى فى سنة ۱۸۰۰ قبل الميلاد على وجه الاحتمال. و لذلك يتضح ان القدس كانت قبل أن يأتى اليها العبريون مدينة كنعانية ذات أهمية. و كانت تقع المدينة الأصلية فوق المنبع مباشرة و الى الغرب منه، على لسان ممتد من الأرض يسمى أوفيل فى جنوب الهيكل، يحيط بها واديا «كدرون» و «تيروبيون». و قد برهنت الحفريات على ان البلدة كانت أوسع بكثير مما كان يعرف فى السابق، بحيث أنها كانت تمتد بعيدا الى أسفل المنحدر الشرقى، و ان الممر القديم الذى كان يؤدى الى المنبع كان فى داخل أسوارها.

و قد احتل داود القدس فى السنة السابعة من حكمه، أى فى سنة ۱۰۰۰ قبل الميلاد. إذ دخلها رجاله بقيادة أيوب بعد ان تسلقوا عمود البئر. و أدّى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۳

هكذا كان يهود القدس فى القرون السالفة يتسكعون فى طرق المدينة و ازقتها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۴

شراء داود لساحة الدياسة التى كانت تشغل قمة التل الصخرى الكائن فى شمال عاصمته الجديدة الى تقرير مستقبل القدس فى جميع

الأزمان، لأن خلفه سليمان شيد أول هيكل فيها لليهود. و لم تعرف الدولة الجديدة السلم و الاستقرار ففى حوالى ۹۲۶ قبل الميلاد انسحبت القبائل (الاسباط) الشمالية و تخلت عنه، و فى ۹۲۲ غزا المدينة من مصر شيشق و نهبها، ثم أعقبه الفلسطينيون و العرب فى ۸۵۰، و من بعدهم جوش الاسرائيلى فى ۷۸۶. و لم يكن حصار سنحاريب لها فى سنة ۷۰۱ حصارا ناجحا. لأن انشاء نفق سيلوم حال دون وصول قواته الى المنبع. و مع هذا فقد اضطر حزقيال الى ان يدفع جزية باهظة. ثم دخلت اليها عبادة الأوثان بتأثير الآشوريين فتقدم شأنها لكن جرميا و حزقيال شجباها و قاوماها. و فى ۵۹۷ نهبت القدس و سفّر ملكها الى بابل.

ثم دمرت المدينة و الهيكل تدميرا كاملا فى ۵۸۸ و بدأ عهد السبى. و بعد ان حل كورش فى ۵۳۷ فى محل الدولة البابلية حصلت عودة ما بعد السبى. فأعيد بناء الأسوار حول المدينة بالنشاط الذى ابداه نحميا، كما أعيد تشييد الهيكل و كرّس لخدمة اللّه باحتفال خاص فى عهد زير و بابل. لكنه لم يكن مشمولا بالعطف الروحى بالنسبة لما كان عليه الهيكل الأول، و مع هذا فقد ظل قائما مدة أطول من المدة التى بقى فيه الهيكل المقام قبله و بعده.

فى العهد اليونانى الرومانى- و لا يعرف الا القليل عن تطور المدينة و أحوالها خلال القرنين اللذين أعقبا ذلك العهد، لكن مجىء الاسكندر الكبير الى المشرق و انتصاره فى موقعة أسوس سنة ۳۳۳ تأثرت به القدس تأثرا بالغا. فقد أصبحت منذ ذلك الحين مدينة شرقية خاضعة لتأثيرات شرقية. و قدر لها فى هذا العهد ان ترتبط خلال ألف سنة تقريبا، أى الى أن جاءها العرب و الاسلام بعجلة التأثيرات السياسية الغربية. و قد تكرر هذا الارتباط فى القرنين التاسع عشر و العشرين. فقد دخلها بطليموس الأول من مصر، و فى سنة ۱۹۸ استحوذت عليها الأسرة السلوقية الشمالية المالكة. فأزعج الأورثودوكس نمو التأثير الاغريقى- اى التأثير الوثنى الملحد- إزعاجا متزايدا و أعربت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۵

خصومتهم عن نفسها بثورة علنية قامت فى سنة ۱۶۸ حينما عمد أنطونيوس أبيفانوس الرابع الى انتهاك حرمة الهيكل بتقصد. و كان يقود الثورة رجل متعبد من أهل الريف يدعى ماتاثياس الحسمونى، و مضى فيها ابنه يهودا مكابى . و قد تمكن الحسماونيون من تأسيس دولة يحكمها ملوك أساقفة، كانت بحجم مملكة سليمان تقريبا و صارت تضم منطقة الجليل. و بذلك ضمنوا أن ينشأ فيها المولودون لأبوين من الجليل، بما فيهم يسوع الناصرى، فى مجتمع يهودى.

و كان سعد روما فى صعود يومذاك، و كان الامبراطور بومبى قد استولى فى سنة ۶۳ قبل الميلاد على القدس و روع اليهود بالدخول الى قدس الأقداس- و هو فأل غير حسن بالنسبة لاتصال روما باليهودية. و قد تأجل الاصطدام الذى لا مناص منه بين روما و القومية اليهودية مدة من الزمن بالدهاء الذى كانت تبديه أسرة شهيرة كان لها نفوذ واسع فى البلاد، و كان من أنشط أفرادها هيرود الكبير. و هيرود هذا من أصل عربى أيدومى، لكنه كان يدين بالديانة اليهودية، فقد كان أبوه انتى باتر عربيا أيدوميا تزوج من امرأة عربية نبيلة من أهالى بطرا. فوجد هو و أبوه بثاقب رأيهما ان حمل لواء المعارضة لروما يعتبر عديم الفائدة، و ان التعاون مع السلطة الجديدة هذه سيعود بالفائدة. و فى سنة ۴۰ قبل الميلاد، أى قبل موت والده بسنين ثلاث، عين مجلس السنيت الرومانى هيرودا ملكا على اليهودية. بعد ان كان حاكما فى منطقة الجليل. و بمساعدة من الجيش الرومانى دحر آخر الحسمونيين فحكم اليهودية، و هو صديق انطونى أولا و أوغسطوس من بعده، لمدة ست و ثلاثين سنة أعاد خلالها بناء معظم أقسام بيت المقدس. فأشاد أولا حصن أنطونيا فى الزاوية الشمالية الشرقية من منطقة الهيكل، التى هى الآن الحرم الشريف، و وسعها الى سعتها الحالية البالغة ۳۵ أيكرا. و أخيرا أشاد قصرا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۶

كبيرا ما تزال بقاياه موجودة فى القلعة الحالية. و قد ربط هذا بحصن انطونيا بواسطة السور الثانى. و أعقب هيرود ابنه غير المرضى عنه هيرود أركيلوس.

و فى سنة ۶ بعد الميلاد أصبحت اليهودية أقليما من الدرجة الثالثة يحكمه وكيل من الوكلاء. و فى عهد خامس الوكلاء هؤلاء، أى

بونتيوس بيليت (۲۶- ۳۶)، صلب يسوع الناصرى.

و فى خلال سنة ۴۱ الى ۴۴ ميلاديـة أعيـد تشـييد المملكة الهيرودية لصالح هيرود أغريبا الأول حفيد هيرود العظيم. فشـيد أغريبا فى القدس سورها الشـمالى الجديد، المسـمى بالسور الثالث، ليضم فى داخله الربض الجديد الذى جاءت به الى الوجود مقتضـيات الأمن الرومانى. و قـد كانت آثار هـذا السور موضوع الكثير من الاختلاف، لكن المشـكلة يمكن اعتبارها منتهيـة الآن لأن الحفريات الأخيرة التى اضـطلع بها الآباء الدومينيكان تدل على انه كان يشـغل مكان السور الشـمالى الحالى. و كان السور الثالث يضم فى داخله المكان الـذى صـلب فيه السـيد المسـيح و بقربه قبر يعقوب اريماثا الـذى تقول الروايات انه كان قـد دفن على مقربـة من إحدى أبواب السور الثانى. و تدل الحفريات التى أجريت فى ۱۹۶۱ على أن أغريبا كان قد وسع المنطقة التى يحيط بها السور من الناحية الجنوبية أيضا.

و فى سنة ۶۶ للميلاد ثار اليهود على روما فسـحقت الثورة فى سـنة سـبعين، و تضـمن السحق حصار بيت المقدس و تدميرها مع حرق الهيكل. و أصـبحت يبابا بلقعا ليس فيها شـىء سوى معسـكر الحامية. و ما حلت سنة ۱۳۰ حتى كان قسم منها قد سـكنه بعض السكان من جديـد، لكن الامبراطور هـدريان، الـذى كان مولعا بالتعمير مثل هيرود، قرر ان يشـيد على الموقع القديم مدينة جديدة قدر لها ان تكون بعد ذلك مستعمرة رومانية. فثار اليهود من جديد بقيادة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۷

اركوكبا و سـحقوا ثانية أيضا (۱۳۲- ۱۳۵) و لم يعـد لبيت المقـدس وجود مطلقـا حتى الاسم، فنشأت فى مكانها إيليا كابيتولينا . و قد غيّر العمران الجديد الذى تشير اليه خارطة مأدبا الفسيفسائية المشهورة (فى شرق الأردن) اتجاه الشارع الرئيسى فى القدس، الذى كان ممتـدا مـا بين الهيكل و القلعـة- اى ما بين الشـرق و الغرب- الى الاتجاه الـذى بقى حتى الآن اى من الشـمال الى الجنوب. إذ ما يزال الشارع الرئيسـى فى «مسـتعمرة هـدريان» هو شارع القدس الرئيس الآن، الذى يمتد من باب دمشق أو باب العمود كما كان يطلق عليها من قبل تخليـدا للعمود التـذكارى الـذى أقامه هدريان بقرب هذا الباب من الداخل، على ما يظهر من خارطة مأدبا. و قد تركت منطقة الهيكل فى خارج البلـدة الجديـدة، و أقيم تمثالان لهـدريان و جوث فوق التل. ثم انتهكت حرمـة موقع الضـريح المقـدس باقامة معبد للالهـة فينوس حامية رومانية. و أخرج اليهود و النصارى و اليهود فى الأصل من إيلياء، لكن كنيسة مسـيحية عائدة للنصارى غير اليهود فى الأصل ظلت قائمة فيها. و كان أساقفتها يحملون أسـماء أغريقية، كما كانت طقوسها الدينية تتم باللغة اليونانية. و فى سنة ۲۱۲ أنشأ الأسـقف اليكسانـدر مكتبـة خاصـة، و كان قـد قـدم فى الأصل مسـيحية عائـدة للنصارى غير اليهود فى لأصل ظلت قائمة فيها. و كان أساقفتها يحملون أسماء أغريقية، كما كانت طقوسها الدينة تتم باللغة اليونانية. و فى سنة ۲۱۲ أنشأ الأسقف اليكساندر مكتبة خاصة، و كان قد قدم فى الأصل زائرا من قابادوقية، و لذلك يمكن ان يعتبر هذا التاريخ بداية قدوم الحجاج الى بيت المقدس. و مما يعرف أن أورغن ، مفكر عصره، زار القدس عدة مرات لجمع المخطوطات. و فى ۲۵۰ وقع اليكساندر ضحية لاضطهاد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۸

ديسيوس. و قد حلت بالكنيسة الفلسطينية نكبات شديدة أيضا فى أثناء الاضطهاد الذى وقع على يد دايو كليشيان

القدس المسيحية- و ما حلت سنة ۳۱۵ حتى كان الحجاج يتقاطرون على القدس ليتعبدوا فوق جبل الزيتون، الذى كان المحل الوحيد المسـموح بالتعبد فيه يومذاك على ما يظهر. و فى ۳۲۵ حضـر مكاريوس أسقف القدس مجلس نيقيا و حصل على تأييد قسطنطين فى مشـروعه الرامى الى إعادة تقديس الموضع الذى صلب فيه المسيح و الضريح المقدس. ثم زارت الملكة هيلينا القدس فى السنة التالية فشـيدت الباسـيليكا فوق جبـل الزيتون و فى بيت لحم. و فى سـنة ۳۳۳ شاهـد الحاج المجهول من مدينـة بورد و هـذه الأبنيـة فى أثناء التشييد. و قد عقد فى ۳۳۵ مجلس كنسى فى القدس فأعلنت فيه قدسية كنيسة القيامة أو الضريح المقدس. و يمكن تمييز هذه الكنيسة بوضوح فى خارطة مأدبا الفسيفسائية حيث كان يدخلها الناس من باب ثلاثى ما تزال أقسام منه قائمة حتى اليوم.

ثم بنى فوق الضـريح المقدس بناء مدور. كما بنى ما بين الباب و المبنى المدور باسـيليكا كبيرة و خمسة أروقة بين الأعمدة. مع جناح

مدور بارز فی ساحة متسعة. فبقی موضع الصلب منعزلا علی حدة باعتباره مزارا قائما بذاته.

و قد أعاد جلال التصميم و وفرة الزينة فی هذه المجموعة من الأبنية الی القدس الأهمية الدينية التی كانت تتمتع بها حينما كان «الهيكل» قائما .. و فی منتصف القرن الخامس للميلاد أدخلت الامبراطورة يودوقيا تزيينات أخری فی المدينة المقدسة التی توفيت فيها سنة ۴۶۰. و قد جعل المجلس الكالسيدونی فی القدس بطريركية مستقلة عن «قيصرية» التی كانت تتبع لها من قبل. و فی حوالی ۵۲۲ أغنی الامبراطور جستنيان القدس بتشييد باسيليكا عظيمة نذرها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۹

للعذراء، فوق التل الغربی فلم يبق لها أثر اليوم. ثم انتهت هذه الحقبة المزدهرة فی ۶۱۴ باستيلاء الايرانيين علی القدس. الذين نهبوها و قتلوا سكانها و حرقوا كنائسها. و قد أخذ فی هذه الأثناء صليب الصلبوت منها، ليستعيده هرقل سنة ۶۲۹ أو ۶۳۰. غير أنه فی سنة ۶۳۸ دخل الخليفة عمر بن الخطاب الی القدس.

القدس الاسلامية- ان سبب تقديس الاسلام لبيت المقدس هو ان النبی عليه السلام أمر بالتوجه اليها عند الصلاة فی بادیء الأمر. و لأنها كانت هدف إسرائه (سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی الَّذِی بارَكْنا حَوْلَهُ). و قد قبل عمر بأن يبنی مسجدا ذی سقف من خشب فی موقع الهيكل، و هو سلف المسجد الأقصی الحالی. لكن عبد الملك ابن مروان بنی قبة الصخرة (التی انتهی فيها البناء سنة ۶۹۱) علی شاكلة بناء كنيسة القيامة المدور . و بقيت كنيسة القيامة، التی كانت قد أعيد بناؤها بمقياس أكثر تواضعا بعد ان دمرها الايرانيون، فی أيدی المسيحيين أنفسهم.

فقد أبدی المسلمون تساهلا كبيرا تجاه اليهود و النصاری الذين يحترمون الكثير من تقاليدهم الدينية. و فی سنة ۷۵۰ أعقب العباسيون فی بغداد الأمويين، و استمروا علی سياسة اسلافهم التحررية فی هذا الشأن. فالمقول ان هارون الرشيد بعث بمفاتيح القبر المقدس الی شارلمان فی سنة ۸۰۰. و انتقلت القدس فی ۹۶۹ الی أيدی الخلفاء الشيعة فی مصر (يقصد الفاطميين)، و فی ۱۰۰۹ أمر الحاكم بأمر اللّه بتدمير المزارات المسيحية. و دحر الأتراك السلجوقيون المسيحيون يشاركون فی احتفالات الفصح سائرين علی طريق الجلجلة الحزين.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۳۰

البيزنطيين دحرا فظيعا سنة ۱۰۷۷ فی منزيكرد، و عند ذاك اكتسحوا بلاد المشرق فحلوا محل المصريين فی امتلاك القدس. و قد أثار قطعهم لطرق الحجاج الی بيت المقدس استياء المسيحية الغربية، فبدأت فی الغرب حركة خاصة لتطهير البلاد المقدسة، و أدت الی نشوب الحروب الصليبية.

و تأسست فی القدس علی عهد الصليبيين مملكة لاتينية استقامت من سنة ۱۰۹۹ الی ۱۱۸۷. و قد جعل فرسان الهيكل مقرهم فی منطقة الهيكل فتسموا باسمه، و أصبحت قبة الصخرة كنيسة لهم ثم صار شكلها نموذجا للكنائس المدورة التی بناها فرسان الهيكل بعد ذلك فی لندن و غيرها. و لأماكن التعميد، مثل الموجود منها فی بيزا. و قد بنيت كنائس أخری علی نفس النمط، و أحسن مثل لما بقی من هذا القبيل كنيسة القديسة آن. و حينما دخل الصليبيون الی القدس أنشأوا فيها عددا من المستشفيات و المنازل للحجاج. و كان أحدها من تشييد تجار أمالفی فی ايطالية، فأشرف علی ادارته شخص يقال له جيرارد.

و فی ۱۱۱۳ منحه البابا باسقال الثانی «الثور» الذی يعتبر الوسيلة التی يتكون منها شعار جماعة رهبان مستشفی القديس حنا فی القدس . و قد وحد صلاح الدين فی ۱۱۸۷ سورية و مصر تحت حكمه، و دحر اللاتين فی حطين بالقرب من بحيرة طبرية. و فيما عدا الفترتين ۱۲۲۹- ۱۲۳۹ و ۱۲۴۳- ۴۴، و باستثناء الفترة المنحصرة بين ۱۹۱۷ و ۱۹۴۸ بقيت القدس فی أيدی المسلمين علی الدوام. و قد نهب التتار الخوارزميون القدس فی ۱۲۴۴. ثم وقعت فی أيدی المصريين سنة ۱۲۴۷ مرة أخری بعد ان حكموها فی عهد الأيوبيين سلاطين دمشق، فقدر لها ان تبقی خاضعة لسلطة المماليك مدة ۲۷۰ سنة شيد خلالها عدد من أحسن أمثلة العمارة الاسلامية الباقية فی القدس

اليوم. و فى ۱۵۱۷ احتل السلطان سليم الأول التركى بيت المقدس فافتتح بذلك فترة التسلط العثمانى التى امتدت الى أربع مئة سنة. و أعاد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۳۱

سليمان القانونى خلفه بناء المتاريس و الاستحكامات بشكلها الحالى، ثم شيد باب دمشق و هى آخر هدية من العمارة الاسلامية فى القدس الشريف.

ثم ظلت القدس ثلاث مئة سنة من دون ان يكون لها تاريخ يستحق الذكر غير أن أعين الغرب اتجهت اليها من جديد فى القرن التاسع عشر. فكان يحكمها ما بين ۱۸۳۲ و ۱۸۴۰ محمد على خديوى مصر و ابنه ابراهيم باشا. و فى ۱۸۳۸ فتحت فيها قنصلية بريطانية، فكان من بين واجباتها المحافظة على مصالح اليهود بوجه عام. ثم تأسست الأسقفية الأنكليكانية فى ۱۸۴۱. و بعد ذلك بقليل بعثت بطريركية اللاتين من جديد لتقف على قدم المساواة مع كنيسة الأورثودوكس و الأرمن. و كذلك وجدت كنائس القبط و الأحباش. و قد كان لحرب القرم، التى وقفت فيها فرنسة و انكلترا الى جانب تركية فى حلف عسكرى، تأثير بالغ على منزلة الأوروبيين فى القدس- ففى ۱۸۵۵ سمح لهم بالدخول الى الحرم لأول مرة، و فى ۱۸۵۶ أصدر الباب العالى «مرسوم التساهل» تجاه جميع الأديان الموجودة فى الامبراطورية العثمانية.

و بدىء بالاضطلاع بالتنقيب عن الآثار. ففى ۱۸۴۱ كات ضابطان من المهندسين الملكيين قد قاما بأول مسح لمدينة القدس، و أعقب ذلك القيام بمسح آخر بمقياس أوسع على حساب أنجيلا بورديت كوتس (البارونة بعد ذلك) فى سنة ۱۸۶۴. فأدى هذا النشاط إلى تأسيس «جمعية ارتياد فلسطين ».

و فى خلال القرن التاسع عشر كله اتسع نطاق الطائفتين اليهوديتين، الأشكنازى و السفاردى، برعاية انكلترة و ازدادت حيويتهما فى ثمانينات القرن بتأسيس أول المستوطنات الزراعية اليهودية فى البلاد و بنمو الحركة الصهيونية و تعاظمها فى الخارج بعد ذلك. فقد عقد المؤتمر الصهيونى الدولى الأول فى بازل، سويسرة، سنة ۱۸۹۷.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۳۲

القدس الحديثة- لقد أصدرت بريطانية العظمى فى تشرين الثانى ۱۹۱۷ وعد بلفور المعروف. و فى الشهر التالى دخل الجنرال اللنبى القدس مستوليا عليها فاقيمت فيها ادارة عسكرية، ليعقبها فى ۱۹۲۰ تأسيس إدارة مدنية فيها. و فى ۲۵ نيسان من تلك السنة عهد المجلس الأعلى المنعقد فى سان ريمو بايطالية بالانتداب على فلسطين الى بريطانية العظمى. فتمتعت القدس خلال عهد الانتداب بفترة من التوسع و الازدهار المادى لم تعهدها منذ أيام الرومان.

فالعدالة و الصحة و التعليم و الطرق و الماء و تسوية حقوق الأرض، مع جميع مستلزمات المجتمع الحديث، قد أدخلت اليها و ثبتت جذورها فيها. و ربما كانت فلسطين فى نهاية عهد الانتداب أحسن دولة تدار فى آسية. لكن الأمور كانت تتحول فيها من سىء الى أسوأ من الناحية السياسية. فقد ساعد و عد بلفور الصهيونية و ألهب نيران الشك و الريبة فى نفوس العرب. و لذلك كان الفريقان تزداد عدم ثقة أحدهما تجاه الآخر، و تجاه الدولة المنتدبة خلال الحقبة كلها، و يتكرر التعبير عنه بالعنف، بينما كان التقدم المادى و الاجتماعى يسير فى أعظم مراحله. و هكذا قدر للقدس فى أيامها الأخيرة، مثلما كان قد قدر لها فى أيامها الأولى، ان تبرهن على وجود العقدة التى فطر عليها مصيرها: فقد كانت و ما تزال موئلا لأسمى أنواع العبادة و أعظمها، و منبعا لأشد النزاع و أعنفه. و قد ترك خط الهدنة الذى رسم بعد اقتتال العرب و اليهود فى ۱۹۴۸، و جعل حدودا بمقتضى الأمر الواقع، مدينة القدس التاريخية القديمة مع أرباضها الشمالية و المطار و متحف الآثار القديمة تحت حكم المملكة الهاشمية فى الأردن، و الأرباض الغربية و الجنوبية فى حكم اسرائيل. و لا يسمح بأى اتصال بين سكان المنطقتين، الا للمسيحيين المقيمين فى اسرائيل فى عيدى الميلاد و الفصح.

و قد حصل الكثير من الانشاء و التعمير فى الجانبين، و على الأخص فى الجانب الاسرائيلى الذى يعد أبرز ما أنشىء فيه أبنية الجامعة

العبرية، التى تقع فى منطقة منزوعة السلاح فى جبل سكوبس من الأراضى الأردنية. و قد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۳۳

ضمنت التعليمات التى يفرضها الجانب الأردنى، بوجوب بناء واجهات المبانى جميعها بالحجر. ان تكون الأحياء الجديدة جذابة مهيبة. ثم فتحت طرق جديدة و أسست حديقة جديدة للبلدية بالقرب من باب دمشق. و دشن فى تشرين الأول ۱۹۶۰ مستشفى سان جون للرمد. و تعد القدس العربية مركزا لاحدى المحافظات، و يشرف حاكمها على الاماكن المقدسة فيها و فى بيت لحم. و يمكن الوصول اليها من بيروت فى لبنان جوا، و بطريق البر من دمشق فى سورية، و من العقبة الكائنة على البحر الأحمر. و مع ما يصادفه الحجاج و الزوار من عراقيل بسبب تقسيم المدينة، فانهم يتقاطرون عليها من جميع أنحاء العالم، و يأتى كثير منهم من بلاد لم يسمع بها فى الأيام الغابرة.

الأناء الذهب

و ممن كتب عن القدس، و فلسطين كلها، امرأة انكليزية منصفة، و كاتبة قديرة تدعى المستر ستيوارت أيرسكين. فقد كتبت هذه المؤلفة كتبا عدة عن العرب و بلادهم فكانت منصفة فيما كتبت بوجه عام، و من جملة كتبها كتاب (فلسطين العرب) الذى أصدرته فى ۱۹۳۵ فدافعت فيه عن حقهم و وجهة نظرهم تجاه الباطلين الصهيونى و الاستعمارى.

و يبحث الفصل الأول من هذا الكتاب عن القدس بعنوان «الاناء الذهب» و يعتبر هذا الفصل خلاصة مفيدة جدا عن وضع القدس و أهميتها الدينية فضلا عن وضعها التاريخى و السياسى. فهى تقول ان القدس تعد قلب فلسطين، و قيّمة الأماكن المقدسة فيها، و مركزا للكفاح و النضال، و بذلك تشغل منزلة مزدوجة فى التاريخ. و قد كانت فلسطين منذ القدم ساحة حرب للامبراطوريات المحيطة بها، فأسهمت القدس و هى جاثمة بين تلالها و جبالها بقسط غير يسير موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۳۴

من مصائبها. و لو أراد المرء ان يعدد الحصارات و الحرائق و الهجمات و وقائع التدمير الكلى و الجزئى التى نزلت بالقدس لملأصفحات بقواتم المصائب و الرزايا المعروفة للجميع. لكن ما يلفت النظر فى كل ذلك ان القدس برغم تبدل أسيادها و سلالاتها الحاكمة و دياناتها و لغاتها و عاداتها قد حافظت على شخصيتها الخاصة بها و احتفظت بضوء يشتعل حول حرمها الداخلى المقدس.

و يعنى اسمها، الذى بقى غير متبدل خلال ألفى سنة من النور و الظل، دار السلام .. لكن الرومان بمدينتهم الوثنية ايليا كابيتولينا و معبدهم المكرس للاله جوبيتر قد تلاشى حتى ذكرهم بين زحمة الوقائع التى تتالت على المدينة المقدسة. و هى إذ تكون مدينة للسلام من جهة و مدينة النزاع من جهة أخرى.

و مرتعا لتصادم الأقوام و الديانات منذ أيام الغزوات العشائرية فى أيامها الأولى الى يوم القلاقل العنصرية و السياسية هذا، و موضعا لتقديس أبناء الديانات العظمى الثلاث فى العالم، قد احتفظت بطبيعتها المقدسة خلال التقلبات التى وقعت فى أثناء وجودها الطويل .. ثم تقول المؤلفة ان المرء قبل ان يحاول فهم وضع القدس السياسى فى هذا اليوم، لا بد من ان يدرك ماذا تعنى فلسطين كلها بالنسبة للعرب و اليهود، و ما ذا تنطوى عليه علاقتهم بالبلاد و بعضهم ببعض. و بعد ان تشير الى ان الغربيين كلهم على علم تام بمنشأ التوراة و الانجيل فيها، و ظهور الأنبياء فى أزمنتها القديمة، تأتى على ذكر شىء عن منشأ العرب و علاقتهم باليهود.

فهى تقول ان الجدّ الذى تسمى به العرب و اليهود، و جميع الساميين فى الحقيقة، كان سام بن نوح. و يدعى العرب و اليهود على حد سواء أنهم يتحدرون من نسل ابراهيم الكلدانى الذى هاجر من أور الكلدانيين الى الغرب بأوامر آلهته. فقد تحدر اليهود من سارة الزوجة و تحدر العرب من هاجر الوصيفة. و كانت فى أرض الميعاد حتى قبل ان يدخل اليها ابراهيم قبائل سامية و غير سامية أخرى، كان يطلق عليهم بمجموعهم اسم الكنعانيين فى بعض الأحيان. و لما كان من المعتقد اليوم ان هذه القبائل قد تحدر من نسلهم فلاحو

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۳۵

فلسطين الحاليون، فان الجو قد تهيأ للكشف عن الدراما بكاملها ..

ثم تذكر المسز أيرسكين ان ابراهيم عليه السلام كان يلجأ الى الطرق السلمية فى التسلل الى فلسطين و الحصول على منزل فيها. و قد تزاوج أتباعه برغم تحذيره لهم مع القبائل التى كانت تملك الأرض فى فلسطين، و تدينوا ببعض دياناتهم أحيانا. و حينما نام ابراهيم نومته الأبدية فى الخليل استمر ابناؤه على العيش فى فلسطين حتى ذهب حفيده يعقوب للأقامة فى مصر حيث حصل يوسف على رعاية فرعون له. و قد أدى تغير السلالة المالكة فى مصر، التى أعقبها اضطهاد الاسرائيليين، الى ظهور موسى برسالته و مبادرته الى قيادة شعبه و العودة بهم الى أرض الميعاد. و بعد كثير من التجوال و التطويح استقروا أخيرا فى مكان ما، و انتخبوا شاؤول أول ملك لاسرائيل.

و تشير المسز ايرسكين بعد ذلك الى أن القدس كان لها تاريخ حافل قبل ان يلقى داود خليفة شاوول نظرة عسكرية على أسوارها المنيعة. و قد نجح فى انتزاع الحصن من اليبوسيين فاتخذ القدس عاصمة له. و كان الملوك و الأمراء يسكنون فى القدس و هى تابعة الى مصر، التى كانوا يراسلونها برسائل حفظتها الرقم المكتشفة فى تل العمارنة. فقد كانت مكانا منيعا جديرة بالقتال دونها، و مهمة جدا لداود لأنها تشغل موقعا ستراتيجيا بين المملكتين الشمالية و الجنوبية اللتين وحدهما و أدخلهما فى حكمه معا.

و قد شيد داود قصرا و هيكلا فوق أوفيل، لكن سليمان ابنه انتقل الى جبل موريا حيث شيد البيوت و الثكنات و القصور و هى ترتفع بعضها فوق بعض فى السفوح حتى تنتهى بالهيكل الذى أقيم حيث تقوم قبة الصخرة اليوم بلونيها الأزرق و الرمادى البارزين أمام امتداد جبال مواب الطويل. و كان يبدو يومذاك ان مملكة اسرائيل أصبحت قوية الجانب تضاهى فى قوتها الصخور التى بنيت فوقها القدس. لكن ذلك لم يتحقق.

فلم تستقم المملكتان المتحدتان بعد موت سليمان، بل انقسمتا من جديد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۳۶

و لم تعمرا طويلا حتى فى هذه الحالة. فقد تحطمت المملكة الشمالية فى ۷۲۲ قبل الميلاد، و تلاشى الأسباط العشرة بعد ان تفرقوا أيدى سبأ، بينما ظلت مملكة يهوذا الجنوبية تكافح دون حتفها الى سنة ۵۹۷ قبل الميلاد حين استولى بنوخذ نصر على القدس و نهبها، ثم أخذ زبدة أبناها فى السبى المعروف. و بعد عشر سنوات التفت صدقيا آخر ملك من ملوكها الى مصر فعوقب بتدمير القدس و تخريبها، و بهذا ترك سبى آخر مملكة يهوذا التى كانت مزدهرة فى يوم من الأيام قاعا صفصفا. اما عودة بقايا من اليهود الى القدس بعد أن أطلق كورش الايرانى سراحهم، و السماح لهم ببناء الهيكل، فلم يكن الا شيئا فاترا تعوزه الحماسة لأن الكثيرين من أهل السبى آثروا البقاء فى بابل.

و فى عهد السيطرة المقدونية سادت الحضارة الأغريقية فى سورية و فلسطين. و كان اليهود يتضايقون من تعسف الملك أنتيكوس ابيفانوس فأدى بهم ذلك الى الثورة بقيادة كاهنهم الكبير ماتاثياس و ابنائه. و قد تعتبر هذه الوقائع من النقاط للامعة فى تاريخ اليهود، لكنها سرعان ما تتعتم بظهور هيرود و ميله الى مسالمة روما. و ليست بنا حاجة هنا الى الاسهاب فى ذكر كيفية ظهور هيرود، و زواجه بالأميرة الحسمونية سليلة المكابيين، التى قتلها بنزوة من نزوات الغيرة، و موته فى السنة التى ولد فيها المسيح بعد أن أصدر مرسوما فى قتل «الأبرياء». و انما يكفى ان نتذكر أنه بنى آخر هيكل فقدر له ان يكون قصير الأجل. و من المهم ان يذكر فى الحقيقة ان الهيكل هذا قد صحت نبوءة السيد المسيح فيه، ففى خلايا الأربعين السنة المذكورة فى النبوءة هدم الهيكل الى وجه الأرض خلال حصار تايتوس للقدس فى سنة ۷۰ للميلاد.

و تخلص المؤلفة من كل هذا الى القول انه يتضح بان العبريين لاحق لهم فيما يدعون به اليوم. فقد عجزوا فى تحقيق الوحدة فيما بينهم، و كان يقاتل بعضهم بعضا باستمرار، و لم يمتلكوا فلسطين كبلاد تحكم نفسها بنفسها حكما ذاتيا قط، حتى فى أوج حكمهم. لكننا نجد من جهة أخرى أن التاريخ الروحى لشعب اختاره اللّه ليحمل النور فى وقت الظلمة يجب ان تكون له أهمية فائقة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۳۷

بالنسبة للانسانية جمعاء. فقد قادتهم رسل موحى اليهم بوحى مباشر، و أرشدوا الى الطريق السرى الذى كان عليهم ان يسلكوه. فماذا كانت النتيجة؟ و لماذا كانوا يعاقبون بين حين و آخر؟ ان الجواب على كل هذا موجود فى كتبهم الدينية هم أنفسهم. فان خطب أنبيائهم اللاذعة تميط اللثام عن ان اليهود كانوا مفتونين بالوثنية و عبادة الأصنام بحيث أوحى بقمعهم.

و حينما عنّفوا و زجروا «أغلظوا رقابهم» كما فعل آباؤهم من قبل. و تقول التوراة- العهد القديم- ان المصائب التى نزلت باليهود انما نزلت لتلقنهم دروسا لا يبدو انهم تعلموها بأى حال من الأحوال. و حينما صلبوا مسيحهم كانت نهاية وجودهم القومى غير بعيدة عنهم. و بعد ان انقسمت الامبراطورية الرومانية، أصبحت فلسطين من حصة الامبراطورية الشرقية و عاصمتها بيزنطة. و قد جعل مرسوم ميلان سنة ۳۱۳ المسيحية دينا معترفا به. فأبدى قسطنطين و أمه هيلانه و رعهما المعروف بتشييد الكنائس فى المواقع المقدسة، و بذلك اتخذ مصير القدس شكلا آخر.

فقد تمتعت فلسطين فى أيام الحكم البيزنطى بحالة من السلم انتهت فى سنة ۶۱۶ حين غزاها خسرو الثانى ملك ايران. و فى سنة ۶۳۶ نقلت معركة اليرموك الحاسمة السلطة الى العرب.

و بعد ان تتطرق المسز أيرسكين الى تاريخ العرب القديم قبل الاسلام، و اتصالهم باليهود، و مجىء ابراهيم الخليل و اسماعيل الذى أعاد بناء الكعبة فى مكة، تخرج من ذلك الى ظهور النبى محمد عليه السلام و اعترافه بأنبياء بنى اسرائيل. ثم تبدأ بذكر الفتوحات فتعرج على فتح العرب لبيت المقدس.

فتقول ان الخليفة الراشد أبا بكر عين خالدا بن الوليد المعروف بسيف اللّه المسلول على رأس قواته التى حاربت الايرانيين، و البيزنطيين فى سورية و فلسطين بعد ذلك. فكان النصر حليف خالد اينما اتجه، و لا سيما فى قتاله

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۳۸

لجيوش الامبراطور هرقل التى فتك بها فى موقعه أجنادين الكائنة بين غزة و بيت المقدس. و قد توفى أبو بكر بعيد هذا النصر الحاسم فى اليرموك سنة ۶۳۶. فقد وجد الامبراطور هرقل، الذى كان يتبجح بأن جيوشه بوسعها القضاء على «شرذمة العرب البداة»، نفسه مطرودا من سورية و فلسطين و الطريق قد انفتح لسيطرة العرب عليهما.

و قد صمدت القدس و قيصرية، و هما من معاقل العقيدة الأورثودكسية المعروفة، لمدة ما لكنهما اضطرا الى التسليم فى النهاية. حيث استسلمت القدس فى ۶۳۹ و استسلمت قيصرية بعد ذلك بسنة. و لا غرو فقد كان العرب لا بد من ان يجبروا هاتين المدينتين على التسليم بعد أن أصبحوا أسياد دمشق، أقدم مدينة فى سورية و أهمها، و انطاكية ملكة الشرق الواقعة على نهر العاصى، و حمص ذات الحصون المنيعة، و غيرها من المراكز المهمة. و كان لهم فضل كبير فيما أظهروه من اعتدال عند تقديم مطاليب الاستسلام.

فحينما اتضح لسكان بيت المقدس عدم جدوى المقاومة عقد اجتماع فيها بين بطريرك الروم الأورثودوكس و قائد الحامية، و تقرر ان تجلو الحامية الموجودة فيها و تنسحب الى مصر و ان يترك الأمر الى البطريرك بأن يتفق على الشروط مع العرب. فاشترط ان تسلم مفاتيح المدينة الى الخليفة عمر بنفسه نظرا لأن النبوءة كانت تقول فى هذا الشأن ان المنتصر يحمل اسما بثلاثة حروف كما هو الحال فى اسم الخليفة العربى «عمر». فأبلغ الخليفة بذلك و وافق على القيام بهذه الرحلة الطويلة، و أخيرا وصل الى الموقع و هو يمتطى جملا هزيلا و يرتدى اسمالا بالية ليظهر ازدراءه لتوافه هذا العالم الشرير. و حينما لاحظ البعض من قواده، الذين وقفوا لاستقباله فى خارج السور يلبسون ملابس صنعت من حرير دمشق استشاط غضبا، و لم يوافق على الدخول الى المدينة بصحبتهم الا بعد ان أروه ما كانوا مدججين به من سلاح تحت البسة الحرير الناعمة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۳۹

ثم تقول ان الخليفة عمر دخل الى المدينة المقدسة راجلا و الى جانبه البطريرك و اذا كان منظره يومذاك شيئا غير مؤثر فقد كانت

شروطه رحيمة سخية، حينما فرضت على النصارى و اليهود عن دون تميز. و قد كان فيها بعض التحفظات، لكنها كانت تنطوى على الرفق و الرحمة بوجه عام فقبلت بكثير من المنة و التقدير. و لم يبق الخليفة مدة طويلة فى بيت المقدس، لكنه تيسر له متسع من الوقت لزيارة كنيسة العذراء التى هى المسجد الأقصى فى يومنا هذا، و كذلك وضع الأساس لتشييد مسجد للمسلمين فى موقع الهيكل اليهودى الذى كان مختفيا تحت اكوام من الزبل المتراكم على مدى الأجيال المتعاقبة.

و كان هناك سبب لسياسة التسامح هذه. فقد كانت القدس مقدسة عند المسلمين، و كانت تأتى بعد مكة فقط فى الشهرة باعتبارها درة غالية فى تاج الفتوح التى حققوها، و كانوا تواقين جدا للاحتفاظ بها و تجميلها. حيث ان الاعتقاد بان بيت المقدس ستكون المكان الذى يحشر فيه المؤمنون يوم القيامة يشترك فيه المسلمون و اليهود على سواء، كما يلاحظ أو يفهم من الرغبة التى يبدونها فى الدفن بقربها. و يجل المسلمون كذلك المكان الذى أعلن النبى محمد بأنه شاهده فى الرؤيا.

فى ليلة هادئة لم تكن تعكر هدوءها و لا نسمة ريح قال النبى عليه السلام ان صوتا ايقظه من نومه و هو يقول «استيقظ ايها النائم»، ففتح عينيه و إذا بجبريل الملك يمثل أمامه و يطلب اليه ان يركب البراق فأسرى به و هو بصحبته إلى بيت المقدس. و هنا قيل له ان يترجّل و يصلى، ثم أخذ إلى «صخرة التضحية» فى منطقة الهيكل، و من هناك رفع إلى السماوات العلى.

فأصبحت هذه الرؤيا من معتقدات المسلمين الذين ما زالوا يقدسون المكان الذى صلى فيه النبى، و الصخرة التى رفع من فوقها إلى السماء على سلم من نور و حتى المكان الذى وقف فيه البراق.

و بعد ان تأتى المؤلفة على ذكر شىء عن أعمال الخليفة عمر و ما حدث بعد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۴۰

قتله من اختلاف فى أيام الخليفتين الراشدين عثمان و على تقول ان فلسطين تمتعت بقرن من الهدوء و السلم قبل أن تبدأ علائم الانحطاط فى الامبرطورية العربية الجسيمة. و قد ازدهرت القدس إزدهارا غير يسير لكنها لم تصبح مركزا كبيرا للثقافة و الحضارة كما أصبحت قرطاجة قرطبة التى كان اليهود الأوربيون يتقاطرون عليها للدراسة فى جامعتها الاسلامية. فقد كانت فى فلسطين مراكز دينية معروفة فى القدس و الخليل و طبرية و صفد لكنها لم يكن فيها من الثقافة العامة العالمية التى كانت تزخر بها مدن اسبانية الأسلامية و صقلية.

و بعد ان تذكر المؤلفة شيئا عن حضارة العرب فى الأندلس و فضلها على الغرب تقول: و كان الخلفاء الأمويون يحكمون من دمشق، لكن الأسرة العباسية المالكة حينما حلت فى محلهم و أسست العاصمة فى بغداد انحط الاهتمام ببيت المقدس. فقد كان هارون الرشيد يبدى اهتماما بسورية و أسس المدارس فيها، لكنه لم يفعل الا القليل من هذا فى فلسطين التى انقسمت الى شيع و احزاب و أصبح الاختلاف هو العادة المألوفة فيها. و فى نهاية القرن العاشر استولت الخلافة الفاطمية فى مصر على القدس. و فى ۱۰۷۱ احتل السلطان السلجوقى سورية و فلسطين فأعقب ذلك حلول فترة من الرعب عانى فيها النصارى ما عانوا من الجور و التعسف. و قد أثارت آلام الحجاج المسيحيين و اهمال الاماكن المقدسة تذمرات الحجاج الذين كانت تتقاطر جموعهم على بيت المقدس، و كان أحدهم و هو بطرس الراهب هو السبب فى البدء بالحملة الصليبية الأولى.

و قد حرر الصليبيون «القبر المقدس» و أسسوا مملكة لاتينية قصيرة العمر فى القدس، لكن الحملات المتفرقة التى أعقبت الحملة الأولى لم تكن كافية لضمان البقاء الدائم فى البلاد المقدسة .. و بعد ان تغلب صلاح الدين على الصليبيين فى قمم حطين الرهيبة قتل رينيه دى شاتيون بيديه من دون سلاح، و أمر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۴۱

بقتل مئتى فارس من فرسانهم على مرأى من الجيش كله. لكنه حينما أقدم على تسلم بيت المقدس أظهر كل ما يمكن من ضروب الرحمة و الاعتدال.

فقد سمح لجميع من يرغب فى ترك هذه المدينة المقدسة بأن يفعل ذلك من دون ان يتعرض لأى نوع من الأذى، حتى أنه سمح للأساقفة بأن يأخذوا معهم الكثير من الكنوز العائدة للكنائس، و قدم لمن بقى شروطا سخية.

و بذلك عادت القدس مرة أخرى الى أيدى المسلمين، و بذل صلاح الدين كثيرا من الجهد لاستعادة أمجادها السابقة و تعمير أماكنها المقدسة مثل قبة الصخرة و المسجد الأقصى اللذين قلبهما النصارى الى كنيستين. و بمرور الزمن تلاشت من بين المسلمين و المسيحيين البغضاء التى أوصلها الصليبيون الى الأوج، و اتخذت الترتيبات اللازمة بالسماح النصارى فى زيارة القبر المقدس متى شاءوا. لكن ذلك لم يدم طويلا. ففى سنة ۱۲۴۰ اكتسح الأتراك الخوارزميون البلاد، و هدموا بيت المقدس تهديما جزئيا بعد ان فتكوا بالسكان المسيحيين فيها، و فى ۱۲۵۰ ظهر المغول بقيادة هولاكو حواليها فردهم السلطان المملوك بيبرز، الذى أخضع فلسطين للحكم المصرى مرة أخرى. و قد استقام الحكم المصرى هذا زهاء ثلاث مئة سنة، أى الى ان انتزع الأتراك العثمانيون منه السلطة لأنفسهم و أصبحوا أسياد الشرق الأوسط. و باستثناء فترة قصيرة استعادت فيها مصر السيطرة على فلسطين، فقد بقيت بأيدى الأتراك منذ ذلك التاريخ حتى سلموها الى حوزة الانتداب البريطانى فى ۱۹۱۷.

و لا يعرف الا القليل عن أحوال بيت المقدس الاعتيادية فى الفترات التى كانت تتخلل ما يذكره المؤرخون من بلايا و مصائب عظيمة. لكنه يستفاد من انطباعات المقدسى، الجغرافى العربى الشهير، عن القدس التى ولد فيها سنة ۹۴۶ أنها ثمينة لندرة مثيلاتها بين البلاد، و أنها أجمل مدينة فى العالم، لأن الحياة فيها على حد قوله كانت ملأى بكل ما هو لطيف و جميل، و ان كل من يريد التمتع بما فى الدارين ان يفعل ذلك عن طريق الاقامة فى قدس القرن العاشر الميلادى، و بعد ذلك يحدثنا عن العقارب التى يمتلىء بها «و عاؤها الذهب».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۴۲

و يبدو ان العقارب التى يعنيها المقدسى هى حماماتها القذرة، و أزوادها الغالية، و مدارسها الخالية، و مسجدها الذى لا يمتلى بالعلماء و الدارسين.

و استفحال أمر النصارى و اليهود فيها. و تعقب المسز أرسكين على ذلك بقولها ان ذلك الوعاء الذهب ما زالت تتوالد فيه أنواع العقارب.

مثل ما يجرى فى داخل أسوارها و خارجها من الاضطرابات و القلاقل، و مثل الخصومات السياسية و الصدامات العنصرية و الأمانى و الآمال المتضاربة التى لم تتحقق.

من التاريخ القديم

اشارة

لا شك ان تاريخ القدس القديم تاريخ حافل بالوقائع و الحوادث فى كل دور من أدواره، و قد حظى بالكثير من العناية و التنقيب لدى العلماء و الباحثين نظرا لقدسية هذه المدينة العريقة فى القدم، و علاقة ذلك بابناء الديانات الكبرى الثلاث. و لا شك أن إقدام الكثيرين من مؤرخى الغرب و منقبيه على البحث فى تاريخ القدس يرجع أيضا إلى ظهور السيد المسيح حولها، و صلبه و دفنه فيها على ما يقولون، و نشؤ الانجيل و التوراة فى ديارها.

و لذلك نرى ان ما كتبت من الكتب و الرحلات فى اللغات الغربية عن القدس القديمة و تاريخها، و لا سيما فى الانكليزية و الفرنسية و الألمانية، أوسع مما يمكن ذكره أو الاحاطة به فى مثل هذا البحث. على اننا سنحاول هنا أن نوجز الحوادث المهمة التى تعين القارىء على تفهم المجرى التاريخى العام.

و قد لاحظنا من بين الكتب الحديثة التى تستند الى أحدث ما حصل من التنقيب الآثارى، فى القدس و ما حولها من البلاد، كتابا يفى بهذا الغرض. و قد كتب هذا الكتاب باحث ألمانى يدعى فيرنر كيلر بعنوان (الانجيل كتاريخ) . موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۴۳

و استند فيه الى احدث الاستكشافات الآثارية و أوثقها على ما يدعى. ثم ترجم الى الانكليزية و طبع لأول مرة سنة ۱۹۵۶، ثم أعيد طبعه عدة مرات كانت آخرها الطبعة العاشرة فى ۱۹۶۱.

و يتناول المستر كيلر فى هذا الكتاب تاريخ ما ورد فى التوراة و الانجيل من حوادث و وقائع مشهورة، فيحاول البرهنة على صدقها فى ضوء المكتشفات الحديثة، و قد يناقش قسما منه فيخطؤه أو يورد آراء مختلفة حول بعض النقاط. و من أهم ما يبدأ ببحثه من ذلك، و لا سيما ما يختص منه باليهود و تاريخهم، موضوع ابراهيم الخليل عليه السلام، فيناقش معيشته فى أور ثم يذكر هجرته الى حران الكائنة فى شمال العراق فى ضمن ما كان يسمى بمملكة مارى السامية. لكنه يخرج من ذلك الى انه عليه السلام يصعب ان يكون قد عاش فى أور الكلدانيين كما هو معروف فى التوراة، و يخطّىء ليونارد و ولى المنقب الانكليزى الذى تولى التنقيب فى أور خلال العشريات من هذا القرن و اكتشف مدينة السومريين التى كان يجهلها العالم تقريبا. فقد كتب و ولى يقول ان ابراهيم كان مواطنا من مواطنى مدينة عظيمة (أور) ورثت تقاليد مدنية راقية عريقة فى القدم، و لم يكن من أناس مترحلين بداة كما يفهم من بعض آيات التوراة و نصوصه. لكن كيلر يقول فى كتابه (الص ۴۲- ۴۴) أن و ولى و ان كانت تؤيده فى رأيه هذا بعض آيات سفر التكوين قد تسرع فى ما ذهب اليه، لأن آيات أخرى فى سفر التكوين نفسه تنص على خلاف ذلك أيضا. لأنه حينما أوفد خادمه القديم من بلاد كنعان الى مدينة ناحور ليخطب زوجة لابنه اسحق يسمى هذه المدينة «أرض مولدى» و يشير الى «بيت أبى» و «أرض أجدادى». و ناحور تقع فى منطقة حران الكائنة فى شمال بلاد بين النهرين. و يذكر كذلك ان يوشع بعد ان استولى على أرض الميعاد خاطب أصحابه يقول «لقد سكن آباؤكم فى الجهة الأخرى من الطوفان قديما، و فعل ذلك حتى تارح والد ابراهيم و ناحور»، و يقصد بالطوفان هنا و فى نصوص التوراة الأخرى نهر الفرات. و لا شك ان مدينة أور تقع فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۴۴

الجانب الأيمن من الفرات، و اذا ما نظر اليها الرائى و هو فى بلاد كنعان فهى تقع فى هذا الجانب أيضا و ليس فى الجانب الآخر. و يتابع كيلر مناقشته لو ولى فيقول ان تنقيباته لم تكتشف ما يدل بصورة باتة قاطعة على ان تارح و ابنه ابراهيم كانا يعيشان فعلا فى أور. ثم ينهى هذه المناقشة بقوله ان البحث المضنى، و لا سيما التنقيب الآثارى فى العقدين الأخيرين من السنين، يجعل من المؤكد تقريبا ان ابراهيم لا يمكن ان يكون قد وجد فى العاصمة السومرية أو كان مواطنا من مواطنيها. فان ذلك يناقض جميع الأوصاف التى يصف التوراة بها ابراهيم و طراز حياته، و كونه من سكنة الخيام الذين- يتنقلون مع قطعانهم من مرعى الى آخر انتجاعا للكلأ و من بئر إلى أخرى، فهو و الحالة هذه لا يعيش كما يعيش مواطن المدينة الكبيرة بل عيشة البدوى المعروفة.

و يقول كيلر فى موضع آخر (الص ۶۷) ان أسماء أجداد ابراهيم و اسلافه تخرج من العصور المظلمة و هى لا تعدو كونها أسماء مدن كائنة فى شمال شرقى بين النهرين، أى فى فدان آرم فى سهل آرم. و فى وسط هذا السهل تقع حران التى كانت على ما يظهر من وصفها مدينة مزدهرة خلال القرنين التاسع عشر و الثامن قبل الميلاد. و يذكر كذلك ان المكتشفات التى عثر عليها المنقبون الفرنسيون فى ۲۳ كانوا الثانى ۱۹۳۴، فى تل الحريرى الكائن على بعد سبعة كيلومترات من البوكمال، تبرهن لأول مرة على أن حران هى موطن ابراهيم الخليل و المكان الذى ولد فيه العبرانيون. و تقع بالقرب من ذلك مدينة ناحور المعروفة فى التوراة أيضا، و هى موطن ربيكا زوجة اسحق.

هجرة ابراهيم عليه السلام الى أرض الميعاد

و يذكر كيلر بعد هذا اننا اذا ما أردنا ان نصدق بالتواريخ المذكورة فى التوراة نجد ان ابراهيم قد ترك موطنه حران قبل فرار الاسرائيليين من مصر بست مئة و خمس و أربعين سنة. و قد ظلوا يهيمون فى الصحراء نحو أرض الميعاد بقيادة النبى موسى خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد. و لذلك فلا بد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۴۵

من ان يكون ابراهيم قد عاش فى حران حوالى سنة ۱۹۰۰ قبل الميلاد. و هذا ما تؤيده حفريات مملكة مارى.

و يأتى بعد ذلك الى ذكر كنعان (الص ۷۰) و هجرة ابراهيم اليها تنفيذا للأوامر الالهية، فيقول ان الطريق الذى كان عليه ان يقطعه يبلغ طوله ما بين حران و بلاد كنعان ما يزيد على ست مئة ميل. و هو يمتد على طول نهر البليخ الى الفرات. و من هناك يسير المسافر بطريق قديم للقوافل يرجع الى آلاف السنين فى قدمه، فيمر بتدمر و الشام، و منها يتجه فى اتجاه غربى الى بحيرة الجليل (طبرية). و بلاد كنعان على ما يقول كيلر هى الشطيطة الجبلية المنحصرة بين البحر الأبيض و البادية الممتدة من غزة الى حماه على شواطىء العاصى فى الشمال. و قد كانت كنعان يومذاك تعرف ببلاد الأرجوان لأن الكنعانيين سكانها كانوا معروفين باستخراج الأرجوان من حيوانات المريق القشرية البحرية. و كان الأرجوان من السلع الغالية لأن صبغته كانت تصبغ بها الملابس الثمينة التى يرتديها كبار الناس و مرموقهم فى المجتمع يومذاك.

و لذلك كان اليونانيون الأقدمون يطلقون على صانعى الأرجوان و صباغيه «الفينيقيين» و على البلاد «فينيقية»، و هو اسم مشتق من كلمة

Phoefcia

التى تعنى الأرجوان فى لغتهم.

اما البلاد التى كانت ستصبح موطنا للاسرائيليين فقد سماها الرومان، على ما يقول كيلر، باسم أعداء اسرائيل. فقد سموها باسم «الفلستينيين) أو «بلشتيم» حسب التسمية الواردة فى التوراة، الذين كانوا يسكنون فى القسم الجنوبى من الساحل الكنعانى. و هى تمتد على ما يفهم من نصوص التوراة من منابع الأردن فى أسفل جبل الشيخ الى التلال الكائنة فى غرب البحر الميت، و الى النقب فى الجنوب، أى انها تقدر بحوالى مئة و خمسين ميلا فى الطول و خمسة و عشرين ميلا فى العرض فى أضيق بقعة منها. و لم تصبح أوسع من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۴۶

هذا قط الاخلال عشرات قليلة من السنين. فقد امتدت فى أيام داود و سليمان الى عصيون جابر على البحر الأحمر فى الجنوب و الى ما وراء الشام بقليل فى الشمال.

و يظهر مما يكتبه كيلر ان ابراهيم سلك فى هجرته هذا الطريق فمر بالشام ثم دخل هو و زوجته سارة و ابن أخيه لوط و أقاربه و قطعانه الى فلسطين التى كانت قليلة السكان على ما يقول، و كانت مدنها يومذاك عبارة عن قلاع متباعدة تتعرض على الدوام الى هجمات البدو و غزواتهم من البادية بين حين و آخر. و قد حرص على ان يدخل من دون ضجة، و ان يكون سيره هذا تسللا، لأنه لم يكن قادرا على الاصطدام بالكنعانيين، فحل فى شكيم الكائنة فى شمال فلسطين. و يلتقى فى سهل شكيم طريقان أحدهما يمر بالمناطة المأهولة فيذهب الى وادى الأردن الخصيب، و يمر الثانى بطريق التلال المنعزلة فيتخطى القدس الى النقب. و قد آثر ابراهيم ان يسلك الطريق الثانى حتى وصل القدس العائدة لليبوسيين، فزار فيها ملكيصادق الذى يسميه كيلر «ملك سالم» أى ملك القدس نفسها على أغلب الترجيح. و فى الأصحاح الرابع عشر من سفر التثنية يذكر ان ملكيصادق هذا قدم لابراهيم خبز او خمرا لأنه كان كاهنا للّه العلى، و بارك ابراهيم بقوله: مبارك أبرام من اللّه العلى مالك السموات و الأرض و تبارك اللّه العلى الذى رفع اعداءك الى يدك.

ثم توجه ابراهيم الى مصر مع لوط و عادا بعد ذلك الى فلسطين، فتوجه لوط مع أسرته مفارقا عمه نحو الشرق، و ظل ابراهيم يتنقل حوالى القدس حتى شاء ان يستقر فى أواخر أيامه فى قرية مامر القريبة من حبرون التى سماها العرب بعد ذلك باسمه، أى «الخليل». و فى هذا الشأن يقول كيلر (الص ۹۷) انه قضى أيامه الأخيرة فى قرية صغيرة تدعى مامر، غير بعيدة عن بلدة الخليل، حيث شيد المذبح. و قد تملك هنا أول قطعة أرض من الحثيين ليعد قبرا صخريا لزوجته سارة، على عادة الساميين. و قد دفن هو كذلك فى الضريح نفسه. و هذا ما تؤيده الحفريات بوضوح. و على بعد ميلين من الخليل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۴۷

يقدس العرب اليوم على قول كيلر موقعا يسمونه «حرم رامة الخليل». و قد عثر الأب المنقب مادر بالفعل بالقرب من هذا الموقع على أحجار مذبح ما تزال تبدو فيها آثار الاشتعال .. و ما يزال قبر ابراهيم يعتبر اليوم موقعا مقدسا يحج اليه الناس.

و يقول كيلر فى موقع آخر كذلك (الص ۱۱۲) ان ابراهيم نصب خيمته الى مقربة من حبرون فى جنوب تلال اليهودية، ما بين ابناء «حث»- أى الحثيين- و قد اشترى منهم الأرض التى أودع فيها زوجته سارة و تركها لراحتها الأبدية .. و يخبرنا حزقيال النبى- الأصحاح السادس عشر من سفره- ان الحثيين مسؤولون جزئيا عن تأسيس القدس ..

خروج اليهود من مصر الى أرض الميعاد

و يقول كيلر ان موسى بعد أن أدى واجبه الشاق فأخرج اليهود من مصر و مدنها التى كانوا مستعبدين فيها رشح يوشع خلفا له و رحل عن هذا العالم الفانى، من دون أن يقدر لقدميه ان تطآ أرض الميعاد أو مدينة القدس، لكنه استطاع ان يلمحها عن بعد من قمم جبل نبو. و مع جميع البراعة التى أبداها يوشع بن نون فى قيادة اليهود الى أرض الميعاد، و القسوة التى تذرع بها فى الاستيلاء على البلاد الفلسطينية و أهلها بالقوة، لم يستطع انتزاع القدس من أهلها لمناعة حصونها و خطته فى تحاشى مهاجمة الأماكن الحصينة. و مما يذكره كيلر فى هذا الشأن (الص ۱۶۲) ان اسرائيل كانت قبيل سنة ۱۲۰ قبل الميلاد قد بلغت الهدف الذى ظلت تكافح من أجله ردحا طويلا من الزمن.

فقد دخلت كنعان لكنها لم تستول على البلاد كلها استيلاء تاما. و خلفت وراءها خطا طويلا من المدن المحروقة. و قد تحاشى يوشع مهاجمة القلاع الحصينة مثل قلعتى القدس و جيزر. و بقيت كذلك فى أيدى الكنعانيين السهول الخصبة و وديان الأنهر، و ستبقى كذلك لعدة أجيال تأتى.

و بعد ان يتحدث كيلر عن مجيء الفلسطينيين من جزيرة كريت و احتلالهم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۴۸

للساحل الجنوبى من فلسطين، ثم استقرارهم فى عسقلان و غزة و أشدود و عقرون، يشير الى تهديدهم للاسرائيليين و خطورة ذلك عليهم. فيقول (الص ۱۷۹): و فى حوالى ۱۰۵۰ قبل الميلاد أصبح وجود اسرائيل نفسه مهددا بالخطر. فقد كانت توشك ان تخضع لنير الفلسطينيين و تواجه وجودا مفعما بالعبودية التى لا تنتهى. و تجاه هذا الضغط الخطير من الخارج أصبحت اسرائيل أمة من الأمم، و وقع اختيارها على شاؤول البنيامينى ليكون أول ملك لها .. و شاؤول هذا هو طالوت الوارد ذكره فى القرآن الكريم.

و قد اكتشف البروفسور أولبرايت على بعد عدة أميال من القدس سنة ۱۹۳۳، فى تل يسمى «تل الفول»، بقايا قصر شاؤول و هو أول قصر ملكى لاسرائيل حيث كان يجلس شاؤول، على ما يذكر كيلر، و من حوله أصدقاؤه و ابنه يونا و أبنر ابن عمه و قائد جيشه، و داود حامل سلاحه الشاب ..

على ان هذا كله على ما يبدو لم يكن ينفع اليهود و لا ملكهم المتبختر شاؤول، فقد اصطدموا بالفلسطينيين و كانت النتيجة مميتة على ما يقول كيلر (الص ۱۸۱) لان انتصار الفلسطينيين عليهم كان كاملا- و انتحر شاؤول بعد ان قتل ابناه فى المعركة. و احتلت أرض

اسرائيل بأجمعها، ثم علقت جثة الملك و ابنيه فوق أسوار مدينة بيت شان القريبة من ساحة المعركة .. و الظاهر ان ساعة اسرائيل الأخيرة قد دقت، و بدا أنها قد كتب عليها الزوال. و هكذا سارت المملكة اليهودية الأولى، التى كانت تعقد عليها الآمال فى البداية، الى نتيجتها المخيفة. فقد أصبح الشعب الحر يوسف فى قيود العبودية، و وقعت الأرض التى وعد بها فى أيد أجنبية (كذا).

كيف استولى داود على القدس

لقد تولى قيادة بنى اسرائيل بعد اندحار شاؤول و انتحاره حامل سلاحه و قائد جنوده المرتزقة داود. فمن دركات القنوط الواطئة التى أصبح فيها الاسرائيليون، و وضعهم الميئوس منه تحت نير الفلسطينيين، ارتقى هؤلاء

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۴۹

القوم، على ما يقول كيلر (الص ۱۸۴)، خلال عشرات قليلة من السنين الى موضع العزة و العظمة. و كان كل ذلك بفضل داود الشاعر مرتل المزامير.

فقد كان مجهول الهوية خامل الذكر عرف لأول مرة حاملا لسلاح شاؤول، ثم قائدا لقواته المرتزقة، و رجلا عنيفا من رجال المقاومة ضد الفلسطينيين بعد ذلك، حتى انتهى فى عمر متقدم و هو يجلس فى القدس على عرش شعب صار قوة عظيمة يحسب لها الحساب. و بعد ان يثنى كيلر على داود و شعبه، و يبالغ فى مدح اعماله مبالغة يبدو فيها الأفراط الممل، يأتى على وصف الكيفية التى اكتشفت فيها طريقة استيلاء داود على القدس الحصينة و انتزاعها من اليبوسيين .. فهو يقول (الص ۱۸۸) و قد أميط اللثام فى نهاية القرن الماضى عن الطريقة الرومانتيكية التى وقعت فيها قلاع القدس الحصينة فى يدى داود، بالصدفة من جهة و بالولع الاستكشافى الذى كان يتحلى به نقيب من نقباء الجيش البريطانى يومذاك من جهة أخرى ففى الجهة الشرقية من القدس حيث تنحدر الصخور الى وادى ستى مريم (كدرون) تقع عين ستى مريم. و كانت هذه العين على الدوام المعين الدائم للماء و الذى يستقى منه سكان المدينة المقدسة. و يمر الطريق المؤدى اليها اليوم بخرائب مسجد قديم، ثم بسرداب منعزل. و تؤدى ستون درجة هنا الى حوض صغير يتجمع فيه ماء صاف ينبثق من الصخر.

و فى ۱۸۶۷ زار الكابتن وارن مع جمع من الحجاج هذه البركة المشهورة التى تقول عنها الاسطورة انها المكان الذى كانت السيدة مريم تغسل فيه أقمطة ابنها الرضيع. و قد لاحظ وارن فى هذه الزيارة وجود مغارة مظلمة فى السقف برغم العتمة الشديدة فى الداخل، على بعد عدة ياردات من اعلى البقعة التى كان يتفجر فيها الماء من الصخر. و الظاهر ان هذه المغارة لم يلاحظ وجودها أحد من قبل لأن وارن حينما سأل عنها لم يستطع الحصول على أية معلومات بشأنها.

القدس- الجزء الثانى (۴)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۵۰

فعاد فى اليوم التالى الى بركة العذراء و هو متشوق الى استطلاء الأمر من جديد، آخذا معه قطعة من الحبل الطويل و سلما مناسبا، من دون ان يعلم ان مهمة خطرة يكتنفها شىء من المغامرات كانت فى انتظاره.

و كانت تمتد من منبع القناة الى ما فوق فى اتجاه الصخر بخط مستقيم قناة غير متسعة. و كان وارن يجيد التسلق فى الجبال، و على علم بكيفية المروق من مثل هذه الممرات الضيقة. فتمكن بعناية فائقة من الصعود الى أعلى بطريق القناة هذه، و بعد ما يقرب من أربعين قدما انتهت القناة فجأة. و حينما تحسس وارن طريقه فى الظلام هناك وجد ممرا ضيقا فى النهاية، فدخل فيه و هو يزحف على الأربع و وجد ان عددا من الدرجات كان قد نحت فى الصخر. و بعد برهة من الزمن لاحظ أمامه من بعيد و ميضا من نور، و وصل الى حجرة مقببة لا تحتوى الا على جرار و قنان زجاجية يعلوها الغبار. و حينما حشر نفسه فى شق موجود فى الصخر هناك وجد أنه قد خرج الى نور النهار الساطع فى وسط المدينة، و بركة العذراء على بعد غير يسير من تحته.

و قد دلت الاستقصاءات الموثوقة التى قام بها باركر بعد ذلك فى ۱۹۱۰، موفدا من المملكة المتحدة باشراف صندوق ارتياد فلسطين، على أن هذه الترتيبات المدهشة تعود فى قدمها الى الألف الثانية قبل الميلاد. فقد بذل سكان القدس القديمة جهودا مضنية يومذاك فى شق ممر من الصخر ليستطيعوا الوصول منه بأمان فى وقت الضيق الى عيون الماء التى كانت تتوقف عليها حياتهم.

و بذلك اكتشف وارن بدافع حب الاستطلاع الطريق الذى كان داود قد استخدمه قبل ۳۰۰۰ سنة فى الاستيلاء على حصن القدس بصورة مفاجئة.

فان كشافة داود الاستطلاعية لا بد من أنها كانت على علم بهذا الممر السرى كما يمكن ان يلاحظ من بعض نصوص التوراة التى كانت غامضة من قبل ..

و هكذا استقر داود فى القدس و اتخذها عاصمة له بعد حبرون، ثم أسماها (مدينة داود) على ما تقول معظم المراجع و نصوص التوراة. و من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۵۱

طريف ما يذكره كيلر (الص ۱۹۱) عن داود، استنادا الى المكتشفات التى اكتشفها الفرنسيون فى قصر مملكة مارى، ان داود لم يكن يسمى بهذا الاسم، و أن هذا الاسم هو لقب من الألقاب العسكرية التى كانت تعنى «القائد»، و قد غلب عليه فى التسمية و اختصر من «دافيدم» الى «دافيد» . و استعان داود فى تشييد قصره الذى أنشأه فى أورشليم على هضبة صهيون، و سماه «بيت داود»، بحيرام ملك صور الفينيقى الذى بعث اليه بمهندسين مختصين و نجارين و نحاتين ماهرين، مع شىء غير يسير من أخشاب أرز لبنان. اما العبرانيون فقد اقتبسوا حضارة اليبوسيين حينما أخذوا يستقرون فى أورشليم، فغادروا الخيام و سكنوا البيوت كما كان يفعل الكنعانيون، و خلعوا عنهم الجلود التى كانوا يكتسون بها فلبسوا الثياب المنسوجة من الصوف التى تشبه ثياب الكنعانيين أيضا.

سليمان الحكيم

يبدأ كيلر (الص ۱۹۴)، عند البحث عن سليمان الذى أعقب والده داود فى تولى الحكم فى القدس، بايراد عدة آيات من سفر الملوك فى التوراة.

و كلها تدل على الأبّهة التى كان يعيش فيها سليمان و على مقدار الثروة و الغنى عنده، و يفهم منها أنه كان له أربعون ألف مربط من مرابط الخيل التى كان يستعملها لعرباته، و اثنا عشر ألف خيال و سائس. و أنه أنشأ اسطولا من السفن فى عصيون جابر الكائنة بجانب إيلات، و أن جميع أوانيه كانت من الذهب لأن أسطوله كان يجلب اليه من الخارج الذهب و الفضة و العاج و القرود و الطواويس. و ان البيت الذى بناه للّه (الهيكل) كان كله مغلفا بالذهب، و ان خيوله كان يأتى بها من مصر، و أن وزن الذهب الذى جىء به اليه فى سنة من السنين بلغ «ست مئة ستين» و ستة قناطير. و بعد ان يذكر كيلر ان هذه المبالغات تكاد لا تصدق يعود فيقول انه من المؤكد ان بعض القصص الموجودة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۵۲

فى التوراة يعتبرها العلماء من الأساطير مثل قصة بلعام المشعوذ و حماره الناطق، و قصة شمشون الذى كان شعره الطويل يمنحه مزيدا من القوة، و مع هذا فان هذه القصص الأسطورية هى فى الحقيقة ليست خرافات مطلقا (كذا).

و لا ريب ان تعصب كيلر هو الذى يحدو به الى تدوين مثل هذا الرأى، و الى محاولة اثباته بالبراهين التنقيبية الملموسة.

و هنا يشير الى التنقيبات التى أجرتها البعثة الآثارية الامريكية برآسة نلسون كلوك سنة ۱۹۳۷ فى تل الخليفة فى الأردن، و اكتشاف ميناء عصيون جابر فيه بالقرب من العقبة. و قد اكتشف هنا أيضا منجم كبير للنحاس الذى استخدم سليمان قسما منه فى بناء الهيكل و زخرفته فى القدس، و صار يصدر مقادير كبيرة منه الى الخارج فى مقابل الذهب و الأشياء الثمينة الأخرى التى كانت ترد اليه. فقد

كانت عدة أشياء فى هيكل سليمان هذا مصنوعة من النحاس، مثل المذبح و الحوض الكبير الذى كان يسمى «البحر» و قواعد الأركان العشرة و الأوانى و الأحواض الصغيرة و ما أشبه، علاوة على عمودى النحاس العظيمين «ياكين» و «بواز» فى رواق الهيكل. ثم يقول كيلر ان سليمان، الذى يسميه كلوك «ملك النحاس العظيم»، لا بد من أنه كان من أعظم مصدرى النحاس فى العالم القديم. و يضيف بعد ذلك قوله ان سليمان نازع الفلسطينيين فى الجنوب على حقهم فى احتكار الحديد أيضا و حصل منهم على الطريقة السرية فى استخراجه. و هكذا تصح نصوص التوراة عن النحاس و الحديد الواردة فى سفر التثنية على حد قوله.

يضاف الى هذا ان سليمان كان عاهلا تقدميا على ما يظهر. فقد كان مقتنعا بالاستفادة من الأدمغة و الخبرة الأجنبية، و هذا هو السر الذى جعل النظام الفلاحى البسيط الذى كان يتميز به اليهود فى عهد أبيه داود ينقلب فى قفزات سريعة الى نظام اقتصادى من الصنف الأول على ما يزعم. و هنا أيضا ينطوى السر فى ثروته التى يؤكد عليها التوراة. حيث انه استقدم خبراء صهر المعادن و تنقيتها من فينيقية، و عهد الى حورام أبهى الصانع الماهر من (صور)

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۵۳

بصب زخرفات الهيكل فى القدس و تنسيقها. و استقدم كذلك خبراء فى الملاحة و السفن، و فى شؤون الأرصفة و الموانىء، من البلاد الفينيقية. و قد وردت جميع هذه الأخبار و تفصيلاتها فى النصوص الفينيقية المكتشفة كذلك. فهى تنص على ان حيرام ملك صور عرض على «أمير اليهود» مواد إنشائية لقصره الجديد اذا ما تنازل له عن ميناء فى البحر الأثيوبى (الأحمر)، فقدم له الأمير ذاك بلدة إيلات و ميناءها. و مع وجود الكثير من النخيل حول المكان لم يكن هناك خشب مناسب للأغراض البنائية، و لذلك اضطر حيرام ان ينقل الخشب على ثمانية آلاف جمل. و قد بنى اسطول عدته عشر سفن من هذا الخشب.

و هنا يكتفى بهذا المقدار مما يذكره كيلر عن سليمان، الذى كان عصره من أبهى عصور القدس و أزهاها، و ننتقل الى ما كتبه الكاتب الفرنسى المعروف جان لوى برنار عن سليمان مؤخرا. فقد أورد رأيا يكاد يكون غريبا يشكك فى كون سليمان يهوديا من بنى اسرائيل و يقول انه رجل أجنبى عنهم.

فهو يقول فى بحث طويل: ماذا يعنى الاله لدى الاسرائيليين؟ أن المتباكين لدى حائط المبكى فى القدس سيضحكون من أنفسهم ذاتها حين يعلمون ان سليمان مشيد الهيكل لم يكن يهوديا، و انما كان آشوريا. كان «نائب ملك» معين من الخارج لايجاد التوازن فى «برج بابل»، ذلك البرج الذى يضم شعوبا مختلفة الأصول تقطن فى فلسطين .. و سليمان هو شلما نصر الذى «عبرنه» الاسرائيليون فحولوا اسمه الى سليمان ..

.. و بصورة عامة لعبت فلسطين دور نائب الملك التابع، و مهما أوغلنا فى تاريخها القديم لا نجدها أبدا قد عاشت مستقلة، و حتى فى أيام داود، الذى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۵۴

تولى الحكم فى القدس، كانت تدور فى الفلك المصرى العملاق. و كل فرعون كان يعين نائبا له يختاره قطعا من العنصر المحلى. و الرومان قد حذوا حذو الفراعنة، فان هيرود مثلا كان من عنصر آخر، كان أيدوميا على حد تعبير العهد الجديد. و هذا العنصر قد قاسى ما قاسى من كره اليهود له.

. و كان فرعون يعين فى محميته «نائب الملك» ممن ليسوا من أهل المنطقة، ثم يزوجه امرأة من الطبقة الأرستقراطية المصرية. و امتد هذا الاجراء حتى شمل الهاربين و الخونة و المرتدين السياسيين و كذلك الرهائن، و كانوا ينشئونهم على الطريقة المصرية و يزوجونهم بالطريقة نفسها. و بهذا الخصوص أقول ان أفضل مثل يضرب دون نزاع هو مثل سليمان .. ففى عهده دخلت سطوة مصر العسكرية فى دور الاضمحلال، كما هى حالة سطوة بابل. اما الكوكب الذى توسط كبد السماء فهو الكوكب الآشورى. فتحولت «نيابات الملك» التابعة من يد الى أخرى، تحولت فى فينيقية كما تحولت فى فلسطين.

و أرجح كون سليمان ساميّا، كما كانوا ساميين أولئك الآشوريون المنحدرون من جبال زاغروس، و من صياصى القفقاس و معهم شطر من الأكراد .. كل هؤلاء هبطوا الى ما بين النهرين ليخضعوها بعد أن دب فى أوصالها الانحلال .. و قد تمثلوا لغتها و ثقافتها. و الثقافات المسماة ساميّة نابعة من الجزيرة العربية القديمة الممعنة فى الحضارة .. و سليمان من معدنهم، فهو نصف عربى (و هذه حصته البابلية)، و هو نصف كردى. و هذا يفسر لنا الصداقة التى تربط سليمان بالملوك الفينيقيين الذين ساعدوه فى بناء هيكله الذائع الصيت فى القدس. و يفسر لنا كذلك الحب الذى ستكرسه ملكة سبأ العربية للحكيم سليمان. و لو كان يهوديا لاستحالت هذه الصداقة و لاستحال هذا الحب الى كراهية و بغضاء، لأن اليهود و هم أمشاج مختلطة كانوا منبوذين فى العالم العربى. و لكن هذا السامى الكردى مرتبط روحيا بمصر اذا لم يكن هذا الارتباط سياسيا، و قد تزوج بامرأة مصرية من طبقة روحية عليا تدين بديانة الآلهة هاتور و تتكتم فى ديانتها هذه، و هاتور آلهة سماوية ذات وجه أسود.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۵۵

و ان آية الشاعر الملك الرائعة هى «نشيد الأنشاد» الذى هو عبارة عن غزل دينى كان سائدا آنذاك، و هو مصرى قلبا و قالبا، «اننى سوداء و لكننى حسناء».

.. و هذه الفكرة غريبة للغاية على التصوف اليهودى الذى لا يعطى المرأة أية قيمة روحية، بل الأمر بالعكس، و ان «نشيد الانشاد» هو نبع خالص من الأدب الصوفى المصرى .. و هناك مفسرون سطحيون رأوا فى هذه المعشوقة السوداء جارية من جوارى الحريم من الجنس الأسود، فيا لها من نظرة سخيفة .. فالحقيقة ان القضية هى قضية انشودة غرامية مهداة الى عذراء سماوية ذات قناع أسود. و هذه النظرية الغامضة كانت أساس العديد من الجمعيات السرية و هى كلها صوفية، و كانت تشمل الشرق بأسره فهل هذه مصادفة إذا كان سليمان يعتبر الأب الروحى لكهان الشرق؟

لقد كان عالما بأسرار الجانب الخفى من الدين. و ان الماسونية الحرة نفسها تدعى أنها تدين بدين سليمان و بهيكله المشهور فى القدس .. و الشك هنا لا محل له من الاعراب، فقد كان سليمان شخصية عظيمة لا سيما على الصعيد الروحى، فهل لهذه الغاية اغتاله اليهود؟ هذا ما يجعلنا نفهمه من الكتاب المقدس .. فانه ببنائه الهيكل، و بفتحه أبواب القدس للروحانيات الأجنبية قد أوجد دواء لنرجسيتهم (عبادة الذات) .. و لكنهم فضلوا أسطورة الشعب المختار.

و اذا كان هذا الملك السامى الكردى قد استطاع ممارسة الدين الذى تكتنفه الخفايا و الأسرار- و هو من أعلم أهل زمانه- فانه كان مدنيا بهذا العلم لكاهنة مصرية من كهنة الآلهة هاتور، و هذه الكاهنة تزوجها بدافع الطموح السياسى .. و توج كل هذا بمعاهدة مصرية- آشورية. ففلسطين التى كانت حتى ذلك العهد محمية مصرية أصبحت فى الواقع آشورية. و قد وافق فرعون على تعيين نائب للملك الآشورى شريطة ان يرتبط بمصر عن طريق امرأة مصرية، و نصيبه كنصيب أسلافه .. و عن طريق المرأة نقلت مصر بحيازتها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۵۶

على التقاليد الانسانية القديمة امتيازاتها الروحية، فعهدت بها الى أجانب من النخبة الممتازة. و قضية سليمان نطرحها كمثال .. و لأجل ان نحسن فهم ماهية هذه المنقولات علينا ان نناظر بين الملك سليمان المعبرن بصورة اعتباطية و بين شخصية أخرى هى شخصية الحبر الأعظم (يويا) المعبرن هو أيضا بصورة كاذبة، فسموه يوسف الذى باعه أخوته ..

ملكة سبأ فى القدس

يفرد المستر كيلر فصلا خاصا (الفصل ۲۱) لزيارة ملكة سبأ سليمان الحكيم فى أورشليم، يتحدث فيه عن «العربية السعيدة» و مدنّيتها و كونها كانت منبعا للكثير من السلع الثمينة النادرة التى كانت تأتى بها القوافل بانتظام الى الشمال، حتى صار سكان الكثير من البلاد فى تلك الأعصر الخوالى يتخيلون سحرها و يتناقلون قصصا خيالية عن قبورها الملأى بالذهب، و عمّا كان فيها من توابل و عطور.

و بعد ان يصف أشياء كثيرة من هذا القبيل يخرج كيلر من كل ذلك الى ان منتهى «طريق التوابل و العطور» كانت اسرائيل، و كان وكلاء سليمان الرسميون «تجار الملك» فى القدس و غيرها يتسلمون السلع الثمينة و يتاجرون بها. و لذلك كانت حياة ملكة سبأ تتوقف على هذه التجارة التى صار يملك زمامها يومذاك الملك سليمان نفسه. لأن هذه السلع و القوافل كان لا بد لها من ان تمر باسرائيل قبل أن تذهب الى سورية و مصر و فينيقية.

و لأجل تأمين هذه التجارة المزدهرة، و نظرا للسمعة التى صار يتمتع بها سليمان يومذاك، شدت بلقيس ملكة سبأ الرحال الى أورشليم و فى صحبتها هدايا ثمينة اليه. و بهذا يمكن اعتبارها شريكة تجارية له، على ما يفهم مما يذكره كيلر. لكن التوراة تعلل زيارتها لسليمان فى القدس بكونها كانت تريد امتحانه ببعض الأمور و تلتمس الحكمة منه (الاصحاح العاشر من سفر الملوك الأول). فلما اختبرته و وقفت على ما عنده من حكمة قدمت اليه هدايا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۵۷

كثيرة. فقد قدمت له مائة و عشرين وزنة من الذهب و كميات كبيرة من الطيوب و الحجارة الكريمة. و لا شك ان هذا كله يدل على ثروة هذه الملكة و غناها إن صحت الروايات، و على شهرة سبأ بالذهب عند اليهود.

على ان الدكتور جواد على يقول فى تاريخه ان قصة هذه الزيارة و إن كانت دونت فيما بعد، كتبها كتبة التوراة بعد عدة قرون، تستند الى قصص قديم كان متداولا و لا شك بين العبرانيين، فدونها هؤلاء الكتاب. و قد رأى بعض نقدة التوراة ان هذه القصة كتبها أولئك الكتبة لاثبات عظمة سليمان و سعة دولته و شهرة حكمته. غير ان هذا لم يبت به حتى الآن. و رأى آخرون ان هذه الملكة لم تكن ملكة سبأ فى اليمن، بل كانت ملكة تحكم فى العربية الشمالية، و ربما كانت تحكم جماعة من السبأيين المقيمين فى الشمال.

و يستند الدكتور فى هذا على ما يقوله البحاثة هيستينغ .

اما و يندل فيليبس منقب جامعة كاليفورنية الذى أجرى فى نهاية ۱۹۵۱ تنقيبات أثرية فى مأرب، يشير اليها المستر كيلر نفسه، فيقول فى كتابه عن ملكة سبأ: و الجدير بالذكر انه لم يسبق لأى شىء فى ذلك الجزء من العالم أن نسب الى زمنها الذى كان على وجه التقريب حوالى سنة ۹۵۰ قبل الميلاد.

و الآن و نحن نتطلع الى نقوش من صنع انسان قد يكون حيا فى الوقت الذى كانت تعيش فيه بلقيس، فانه لا يسعنا الا أن نفكر فى ملكة سبأ أكثر فأكثر.

و كان الكثير من الأساطير قد دار حول ملكة سبأ، تلك الملكة التى ورد ذكرها، أول ما ورد، فى الفصل العاشر من سفر الملوك، حيث قص علينا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۵۸

نبأ زيارتها للملك سليمان فى القدس. و فى ذلك الوقت كان الملك سليمان.

الذى قدر الاستاذ أولبرايت انه كان يعيش فى الفترة الواقعة ما بين سنة ۹۶۱ و سنة ۹۲۲ قبل الميلاد. يشرف على عمليات بحرية فى البحر الأحمر و المحيط الهندى. و كما روى سفر الملوك انها قدمت شمالا فى قافلة من الجمال.

و مما لا شك فيه ان زيارتها كانت ذات قيمة تجارية مهمة، فانها أهدت الملك ۱۲۰ وزنة من الذهب و الأحجار و اللآلىء التى لم يشاهد مثلها من قبل .. و كان هناك مقدار وفير من التوابل لم يسبق ان شهدت مثله القدس.

.. و يقول بعض المؤرخين ان ملكة سبأ كانت بالفعل شمالية تحكم قبائل رحل فى شمال شبه الجزيرة العربية. اكثر منها ملكة تخضع لها الأمة التى كانت عاصمتها مأرب. و بالرغم من ان هناك ملكات من العرب أكثر من الملوك. ورد ذكرهن فى النقوش و الكتابات الآشورية، خلال الفترة الواقعة بين سنة ۸۰۰ و سنة ۶۵۰ قبل الميلاد، فان ذلك لا يثبت ان الملكة انما كانت تعيش فقط فى شمال الجزيرة العربية ..

و من بين القصص التى تروى عن هذه الملكة عند زيارتها للقدس قصة تشرح كيف انها بعد أيام من وصولها الى بلاط الملك سليمان قد رأت الملك يصاب بصدمة حينما سمع الشائعات التى تقول عنها ان لها رجل عنزة. و لما لم يكن الملك راغبا فى إحراج هذه السيدة. و أن يسألها ان ترفع أهداب ثوبها لتريه قدمها، فقد أعدّ خطة بارعة للتوصل الى ما يريد .. فقد بنى مهندسوه أرضا من البلور تلوح للرائى كأنها ماء. و قد جاء اليوم، و كان سليمان يقف فيه فى المكان المواجه للأرض البلور. عندما دعا ملكة سبأ لتنضم اليه. و اعتقادا منها بان عليها ان تعبر ماء رفعت الملكة ثوبها كما تفعل السيدات و قفزت الى الأمام. و قد رأى سليمان ما قرت به عينه و هدأ خاطره .. كانت تملك ساقين عاديتين .. و لطيفتين أيضا.

و من بين الأساطير الحبشية. أسطورة تقول انه لما كانت ملكة سبأ امرأة صالحة ترفض باستمرار ألوان الغزل و المداعبة التى يعرضها عليها الملك سليمان

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۵۹

فقد دعاها فى ليلة حارة إلى عشاء دسم، ثم وضع جرّة تحتوى على ماء بارد قرب فراشة بينما وضع جرة فارغة قرب فراشها. و بعد ان استراحت الملكة فعلت تلك الأطعمة فعلها فزادت فى عطشها. و أخيرا تسللت الى مخدع سليمان لتستعير شيئا من الماء، و بذا اقتربت عن براءة بنفسها من صاحب الجلالة الذى كان ينتظرها على أحر من الجمر.

و قد تكون هذه الأساطير ملفقّة مخترعة و لكنه ليس هناك سبب واحد يدعونا الى الشك فى ان الملكة المشار اليها كانت ملكة فعلا.

نهاية الدولة اليهودية

لقد قضى سليمان نحبه فى سنة ۹۲۶ قبل الميلاد فقبر و قبر معه الى الأبد حلم اسرائيل ببقائها دولة واحدة معظمة، على ما يقول كيلر (الص ۲۲۱) فقد تسنى لداود و سليمان ان يحققا شيئا من هذا الحكم المفعم بالطموح خلال جيلين من الأجيال، و لكن فى اللحظة التى رحل فيها سليمان الى العالم الآخر نشبت الخلافات العشائرية بين اليهود من جديد فتحطمت الامبراطورية الفلسطينية بنتيجة ذلك النزاع. و حلت فى محلها مملكتان- مملكة اسرائيل فى الشمال و مملكة يهوذا فى الجنوب. و كان الاسرائيليون هم الذين يعملون على تقويض امبراطوريتهم، فأدى هذا الى ان يقع سكان اسرائيل فريسة للآشوريين و سكان يهوذا فريسة للبابليين. و كان الذى حل بهم، و هم منقسمون على أنفسهم، أسوأ من مجرد اختفائهم فى عالم النسيان. فقد وقعوا بين شقى رحى الدول المعظمة التى قدر لها فى القرن الذى أعقب ذلك ان تسيطر على المسرح العالمى، و انتهارت مملكتا يهوذا و اسرائيل فى غمرة النزاع المحتدم و لما يتم مرور ۳۵۰ سنة على موت سليمان فاصبحتا أثرا بعد عين.

فقد نفذت آخر رغبة لسليمان قبل وفاته، على ما يذكر كيلر، و جلس ولده رحبعام على عرش القدس ليحكم القبائل كلها مدة و جيزة من الزمن.

لكن الأسباط سرعان ما ازدادت الخصومة و النزاع بينهم فزجت البلاد فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۶۰

حرب أهلية، و آل ذلك الى انفصال عشرة أسباط عن عرش سليمان فى القدس و اسسوا لهم فى الشمال مملكة أخرى فى ۹۲۶ قبل الميلاد باسم اسرائيل و عاصمتها شكيم. و نصب يربعام ملكا عليها. اما السبطان الباقيان، يهوذا و بنيامين، فقد بقيا على ولائهما لرحبعام فى الجنوب فتكونت منهما مملكة يهوذا التى اتخذت القدس عاصمة لها.

و مع هذا فقد استمر النزاع بين المملكتين مدة من الزمن. و ما ان نشبت الحرب الأهلية بينهما حتى تعرضت فلسطين الى احتلال غير منتظر دام عدة أجيال. فقد هاجمها شينشق (الفرعون شينونك الاول) من مصر بجيوشه و اكتسح البلاد فنهبها فى طريقه. و كانت أعظم الغنائم التى استولى عليها غنائم القدس العاصمة، إذ نهب هيكل سليمان و ما فيه من نفائس، و نهب قصره الذى يسميه التوراة «بيت

لبنان»، و لم يكن يمضى على تشييدهما أكثر من عشرين عاما، و بذلك جرّدت النصب الدالة على عظمة سليمان عن عزتها و مجدها. و صار رحبعام يصنع دروعه من النحاس بدلا من الذهب، و فى هذا فأل سيء على ما تقول التوراة.

اما اسرائيل فقد بلغت درجة من الضعف تغلبت فيه عليها حتى مملكة مؤآب. على ان الخطر ظل يهدد الدويلتين اليهوديتين من الشرق. فقد كان نجم الآشوريين آخذا بالصعود، و صار ماوكها العظام يولون وجوههم شطر الدول و الامارات السامية التى تحجبهم عن البحر فى سورية و فلسطين. و سرعان ما هوجمت المدن الفينيقية .. و لا شك ان هذا كان نذير سوء للمملكتين اليهوديتين فى فلسطين فقد قيل .. «من حلقت لحية جار له فليسكب الماء على لحيته». فقد تولى الحكم فى آشور تيغلات بيلسر الثالث، و راح يكتسح بلدان البحر الأبيض المتوسط على ما يقول كيلر (الص ۲۳۸)، و أجبر الشعوب المستقلة على ان تكون تابعة الى الامبراطورية الآشورية. ثم توجه الى فلسطين فخضعت له اسرائيل فى عهد الملك مناحيم الذى تحاشى تدمير بلاده بدفع ألف قنطار فضة جمعها من أهالى اسرائيل المتمكنين. و يذكر كيلر ان

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۶۱

هذه تساوى بعملة اليوم ستة ملايين باون ذهب استرلينى، و يقدر ان اسرائيل لا بد من ان يكون فيها يومذاك حوالى ستين ألف موسر، لأن كلا منهم دفع خمسين شقلا.

و ما ان تراجع تيغلات پيلسر حتى هب رزين ملك دمشق و تزعم تكوين حلف من الدويلات الآرامية فى وجه هذا الخطر الداهم. و انضمت اليه اسرائيل و الدويلات الفينيقية و العربية، على ما يذكر كيلر، و كذلك انضمت مدن فلسطين الجنوبية و الأدوميون. و حينما امتنع يوحاز ملك يهوذا فى القدس عن الانضمام الى الحلف هاجمته الدويلات المتحالفة فى عاصمته فاستنجد بسيده فى آشور. و كانت النتيجة على ما يذكر التوراة (سفر الملوك) و تؤيده التنقيبات الأثرية، ان دمرت اسرائيل تدميرا تاما و محيت من الوجود على يد سرجون الثانى. إذ يقول كيلر ان عشرات الآلاف من الناس طردوا بعنف من ديارهم، و سيقوا الى بلاد غريبة، و حل فى محلهم أناس جيء بهم من مختلف الأنحاء.

و هكذا اختفى من الوجود سكان مملكة اليهود الشمالية و ملوكهم، و امتصّتهم شعوب بلاد أخرى، فلم يظهروا بعد ذلك الى الوجود مطلقا. فان جميع التنقيبات الأثرية التى أجريت للتفتيش عن مصير الأسباط العشرة لم تؤد الى نتيجة ما.

اما مملكة يهوذا فقد توفى ملكها الذى جامل الآشوريين و استكان لهم، و تولى بعده ابنه حزقيا، فأخذ يكتل مدن فلسطين الجنوبية معه. و اتصل بفرعون مصر شاباك الحبشى يومذاك لا سيما و قد كانت وفوده موجودة فى أورشليم. و قد رد سرجون على ذلك فى الحال بتدمير مدن فلسطين الجنوبية، و نكّل بها تنكيلا شديدا كما يفهم من النقوش المكتوبة على جدران قصره، و بذلك قضى على الجبهة المناوئة له. فالتفت حزقيا عند ذاك الى مردوخ بلادان ملك بابل ليتعاون معه فى تكوين جبهة جديدة، و حينما هم سرجون

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۶۲

بالقضاء على خصومه الجدد اغتيل فى قصره فتأخرت الكارثة التى كانت بانتظار مملكة يهوذا و عاصمتها أورشليم.

على ان حزقيا صار يعد للأمر عدّته، فأصلحت مواقع الدفاع فى أورشليم و هيئت لحصار طويل الأمد، بعد أن جددت الأجزاء القديمة من الأسوار و شيدت فيها الأبراج. كما شيد سور خارجى ثان من الجهة الشمالية المعرضة للهجوم، بعد ان هدم بعض الدور من أجله. و أهم ما اتخذ فى هذا الشأن من تدابير تدبير الماء للمدينة فى أثناء الحصار. ففى خارج المدينة حيث تنحدر السفوح الجنوبية انحدارا تدريجيا نحو وادى كدرون كانت توجد بركة ماء ، فاتخذ تدبير بارع صار يمكن به تحويل ذلك الماء بصورة سرية الى المدينة عند الحاجة.

اما الآشوريون فقد تولى العرش عندهم بعد سرجون الثانى ابنه سنحاريب، و بعد أن أدب المتمردين فى بلاد بين النهرين توجه فى نهاية سنة ۷۰۲ ق. م فسحق البلاد الثائرة فى الحال، و استولى على مملكة يهوذا كلها عدا عاصمتها أورشليم. فقد حاصرها و ضيّق

عليها الخناق من جميع الجهات، و ظل على هذه الحال حتى حدث أمر مفاجيء أمر فيه سنحاريب جيوشه بالانسحاب و العودة الى آشور. و لا تشير النقوش الآشورية الى سبب الانسحاب بشيء، لكن المستر كيلر يستنتج من التنقيبات التى وجدت بالقرب من القدس أن وباء مخيفا تفشى فى الجيوش الآشورية فأدى الى الانسحاب، بعد ان وافق حزقيا المحاصر فى أورشليم على دفع غرامة باهظة. و يقول النص المختص بموقعة القدس هذه، المستمد من النقوش الآشورية، على لسان سنحاريب ما يأتى: .. أما حزقيا فقد انسحق بروعة جلالتى .. و أرسل الى نينوى من بعدى كنوزا ثمينة .. ثلاثين قنطار ذهب، و بعث ببناته و نساء حرمه، و بالمغنّين نساء و رجالا. و لتقديم الطاعة و الجزية بعث برسله .. اما التوراة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۶۳

(سفر الملوك الثانى) فيذكر ان حزقيا بعث الى نينوى بثلثمائة قنطار فضة و ثلاثين قنطار من الذهب.

سبى بابل

و هكذا تدنى أمر مملكة يهوذا، لكن القدر انقذها فى آخر لحظة و بقيت على قيد الحياة ضعيفة الجانب مهيضة الجناح. و أخذت تستعيد شيئا من الحياة بالتدريج خلال المدة التى حكم فيها أسرحدون بعد ابيه سنحاريب فى آشور، و آشور بانيبال من بعده. و قد حصلت تطورات خطيرة بعد ذلك فى توازن القوى فأدت الى انتهاء أمر آشور كدولة معظمة، و ظهور الميديين و الكلدانيين فى بابل. إذ تحالفت هاتان القوتان فيما بينهما فقضتا على الدولة الآشورية و تقاسمتا أسلابها، و كانت المناطق الشمالية و الشمالية الشرقية من حصة المبديين و البقية من حصة البابليين. و بهذا وقعت سورية و فلسطين من حصة نيبو بلاصر والد نبوخذنصر.

و كان أول ما فعله انه بعث بنبوخذ نصر ولى عهده لتسليم ممتلكاته الجديدة.

و كانت مملكة يهوذا قبيل ذلك قد وقعت فريسة فى يدى نخو فرعون مصر الذى ألحق فلسطين و سورية به. و أخذ يهوحاز بن يوشيا أسيرا الى مصر بعد أن جرده من كل ما يمت للملكية بصلة، و نصب فى أورشليم مكانه ابنا آخر من ابناء يوشيا يدعى يواقيم فبدل اسمه الى يهويواقيم.

و ما باشر نبوخذنصر بدحر نخو فرعون مصر فى شمال بين النهرين تمهيدا لتسلم سورية و فلسطين حتى توفى والده فعاد الى بابل و تأخرت نهاية يهوذا المؤدية الى سبى بابل بضع سنوات. و فى دورة القرن السادس قبل الميلاد وقعت الواقعة التى أدت الى محو مملكة يهوذا من الوجود الى الأبد و شطبها من سجل التاريخ كأمة من أمم الشرق القديم، على ما يقول كيلر (الص ۲۷۳).

و أخذت الحوادث تترى بسرعة مخيفة على الدولة التابعة و سكانها فى أورشليم و ما يحيط بها. فقد آل بهم الأمر الى طريق المنفى و الترحيل القسرى الى بابل.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۶۴

و قد بدأت الواقعة برفض الجزية و اعلان الثورة على السيد الاقطاعى الجديد على ما يعبر عنه كيلر، و ذلك فى سنة ۵۹۷ ق. م: فلم يتدخل نبوخذنصر فى بادىء الأمر و انما اكتفى بسوق جيوش محلية من مؤاب و أمون و سورية على أورشليم، و حينما عجزت عن قمع الثورة بسرعة خف هو بنفسه الى مملكة يهوذا. و بينما كان فى طريقه اليها مات يهويواقيم فجأة، و تولى عرش أورشليم فى مكانه ابنه يهويواكين. و كان هذا يبلغ الثامنة عشرة من العمر، و لم يحكم سوى ثلاثة أشهر. و حينما وصل نبوخذنصر الى أسوار أورشليم استطاع فتحها و القضاء عليها بعد أن نهبها و دمرها، ثم أخذ ملكها و سبى أهلها الى بابل.

و يقول كيلر إن التوراة يذكر بأن يهويواكين و أسرته قد أخذوا أسرى الى بابل فى سنة ۵۹۷ ق. م، لكن التنقيبات الأثرية التى أجراها الاستاذ كولديوى الألمانى فى بابل سنة ۱۸۹۹، و الرقم الطينية التى ظلت محفوظة الى سنة ۱۹۳۳ حتى قرأها و حل رموزها فايدنر، تميط اللثام عما يخالف ذلك. فلم يضطهد اليهود فى بابل كما جاء فى التوراة و انما عاش ملكهم مع أسرته و حاشيته فى قصر

نبوخذنصر نفسه فی بابل عیشة مرفهة. کما تشیر الی ان نبوخذنصر سمح لمملکة یهوذا، بعد أن أخذ ملکها و سبی قسما من أهلها، بأن تبقی مملکة من الممالک التابعة الی بابل. و کان الذی تولی عرش أورشلیم بعد یهویواکین عمه ماتانیا الذی أعاد نبوخذنصر تسمیته باسم صدقیا.

و مع هذا فقد عادت یهوذا الی الثورة و العصیان بتحریض من فرعون مصر المسمی أفریز. فخف نبوخذنصر فی هذه المرة الی یهوذا بسرعة الصاعقة، فی حملة تأدیبیة ماحقة. و بعد ان استولی علی انحاء المملکة کلها من جدید ظلت أورشلیم تقاوم مدة ثمانیة عشر شهرا بأمل وصول النجدة التی وعدت بها من مصر. لکن أملها فی ذلک کان سرابا خادعا، و لم یکن بالامکان تأخر النتیجة القاضیة. فقد تمکن الجیش الکلدانی من اقتحام أورشلیم، و أسر صدقیا ثم ذبح أبناءه علی مرأی منه، و سملت عیناه تنفیذا لما یقتضیه القانون العسکری البابلی بالنسبة للخونة. اما أورشلیم فقد أبیحت للسلب و النهب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۶۵

و أضرمت النار فی هیکل سلیمان و القصر الملکی، ثم هدمت أسوار المدینة الی الأرض. و فی هذه المرة أیضا سبی قسم کبیر من الیهود (سنة ۵۷۶) و أخذوا الی بابل، فمحی نبوخذنصر بذلک أسرة داود الملکیة من الوجود بعد ان حکمت فی أورشلیم مدة اربعمائة سنة. و اصبحت یهوذا کلها مقاطعة بابلیة. اما الذین تخلفوا فی البلاد من الیهود فقد نظموا حرب عصابات للمقاومة فی الجبال، و قتلوا الحاکم البابلی غیدالیا علی ما یدعون. و قد أدت هذه الأعمال الی قیام البابلیین بترحیل الیهود للمرة الثالثة و الأخیرة من فلسطین، و استطاع عدد منهم الافلات من ذلک فنجوا بأنفسهم الی مصر. و هکذا أسدل ستار التاریخ علی بلاد خالیة، و تفرق أسباط اسرائیل مع الریاح الأربعة علی حد تعبیر کیلر.

ثم یذکر کیلر (الص ۲۸۰) ان بعض علماء التاریخ مثل کوک و تیری ینکرون صدق الروایة التی توردها التوراة فی ترحیل السکان الی المنفی، و هم یرون ان الترحیل لم یکن بمقیاس واسع من یهوذا و انما أخذت بعض الأسر المرموقة و أسرت فی بابل. لکن التنقیبات الأثریة تدل علی عکس ذلک تماما، حیث لم یعثر فی التنقیب و لا علی بلدة واحدة فی مملکة یهوذا ظلت مسکونة باستمرار خلال مدة السبی. فقد دمر البابلیون مملکة یهوذا تدمیرا کاملا و أخلوها من السکان، و بذلک یکونون قد نظفوها و کنسوها کنسا کاملا علی حد تعبیر کیلر.

و هکذا، فبعد ستمایة و خمسین سنة من الوقت الذی وطأت فیه أقدام أبناء اسرائیل أرض المیعاد لم یبق فیها من نسلهم و لا شخص واحد. و بذلک تحققت تحذیرات انبیائهم و تهدیداتهم، و نفذت ارادة اللّه بحقهم. فتعزو التوراة ما أصاب دولتی الیهود من نکبات الی انحرافهم المستمر و إکثارهم من الخیانة و تعاطی الرذائل. فقد جاء فی الأصحاح السابع عشر من سفر الملوک:

و عبدو آلهة أخری و جروا علی سنن الأمم التی طردها الرب من وجههم،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۶۶

و علی ما سنّه ملوک اسرائیل . و عملوا فی الخفاء أمورا غیر مستقیمة فی حق الرب إلههم، ابتنوا المشارف فی جمیع مدنهم و أقاموا أنصابا علی کل أکمة.

و قتروا هناک مثل سائر الأمم، و فعلوا أفعالا سیئة لاسخاط الرب، و عبدوا الأصنام فأمرهم الرب علی ألسنة أنبیائه بالتوبة و حفظ وصایاه فلم یسمعوا، و صلّبوا رقابهم مثل آبائهم الذین لم یؤمنوا بالرب، و رذلوا فرائضه و عهده، و اقتفوا الباطل و ترکوا جمیع وصایا الرب إلههم. و صنعوا لهم عجلین من المسبوکات، و أقاموا غابا و سجدوا لجمیع جند السماء، و عبدوا البعل و أجازوا بنیهم و بناتهم فی النار. و تعاطوا العرافة و الفأل و باعوا أنفسهم لعمل الشر، فغضب الرب جدا من اسرائیل و نفاهم من وجهه و لم یبق الا سبط یهوذا. و یهوذا أیضا لم یحفظوا وصایا الرب و سلکوا فی سنن اسرائیل فرذل الرب جمیع ذریة اسرائیل و أذلهم و أسلمهم الی أیدی الناهبین ..

و هناك فى الاصحاح السادس و الثلاثين من سفر أخبار اليوم الثانى أشارة الى ذكر استيلاء نبوخذنصر على أورشليم و سقوط دولة يهوذا. فقد جاء:

حتى ان جميع رؤساء الكهنة و الشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم. و نجسوا بيت الرب الذى قدسه، فى أورشليم، فارسل الرب إله آبائهم اليهم عن يد رسله مبكرا و مرسلا لأنه أشفق على شعبه و على مسكنه فكانوا يهزأون برسل اللّه، و رذلوا كلامه و تهاونوا بانبيائه حتى ثار غضب الرب على شعبه، حتى لم يكن شفاء. فأصعد عليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف فى بيت مقدسهم، و لم يشفق على فتى أو عذراء و لا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده، و جميع آنية بيت اللّه الكبيرة و الصغيرة، و خزائن بيت الرب و خزائن الملك و رؤسائه. و أحرقوا بيت اللّه و هدموا سور أورشليم، و أحرقوا جميع قصورها بالنار، و سبى الذين بقوا من السيف الى بابل فكانوا له و لبنيه عبيدا الى أن ملكت مملكة فارس.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۶۷

حياة السبى

تدل التنقيبات الأثرية، و اللقى التى عثر عليها فى بابل و غيرها، على أن حياة اليهود فى المنفى لم تكن حياة سيئة كما تذكر بعض المراجع. فقد كانت عيشتهم فيها عيشة مرفهة، اكتسبوا فيها ثقافة عامة هيئوا أنفسهم بواسطتها لمقاومة الفناء و الاحتفاظ بخصائصهم المعروفة. إذ يذكر كيلر (الص ۲۸۳- ۲۹۰) بعد ان يصف بابل و عظمتها، و يشير الى أنها لم تكن مركزا تجاريا فقط بل مركزا دينيا عظيما أيضا، و الى أنها كانت أعظم من طيبة، و ممفيس و أور، و حتى أعظم من نينوى، بان يهود السبى الآتين من فلسطين و حتى من أورشليم المتغطرسة كانوا أناسا ضيقى الأفق محدودى التفكير، و لم يكونوا يعرفون سوى الطرق الضيقة و الأزقة المظلمة.

و يشير كذلك الى ان يهود المنفى أخذوا بوصية جرميا التى بعثها من أورشليم الى كبارهم و أنبيائهم و حاخاميهم و قد نجحوا نجاحا باهرا، ثم عاشوا عيشة مثمرة فى ظل السلم الذى توخّوه. فقد كتب لهم جرميا (سفر جرميا) يوصيهم ببناء منازل و السكنى فيها، و زرع البساتين و الحقول و أكل حاصلاتها حتى يتكاثروا و لا يقل عددهم. و طلب اليهم أن ينشدوا السلم فى المدينة التى أخذوا سبايا اليها. و بذلك كانت حالتهم أحسن من حالة أجدادهم الذين وجدوا فى مصر على عهد النبى موسى، و لا تقارن بها.

و من طريف ما يذكره المستر كيلر فى هذا الشأن، مما عثر عليه المنقبون الأمريكان فى نفّر، ان أسرة يهودية من أسر السبى كانت قد أسست شركة خاصة لها و فتحت محلا تجاريا مقره فى نفّر و فروعه فى كل مكان. و كانت هذه الشركة المسماة بشركة «موراشو و أولاده» تدير مصرفا دوليا، و تتعاطى أعمال التأمين و نقل الملكية و القروض و المتاجرة بالأراضى الزراعية و غير الزراعية و ما أشبه، حتى أصبحت ذات سمعة كبيرة وصيت ذائع. و قد استمرت فى أعمالها خلال مدة تقارب مائة و خمسين سنة، و بقيت الى أيام الفرس الذين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۶۸

حكموا بابل بعد الكلدان. و يشبّه كيلر هذه الشركة بشركة «لويد» فى يومنا هذا، فيدعوها «لويد بين النهرين». و لقد اكتشفت وثائق هذه الشركة و مخابراتها محفوظة فى جرار مسدودة بالاسفلت. و مما وجد فيها ان الذين كانوا لا يستطيعون الكتابة من عملائهم و مراجعيهم كانوا يوقعون على المستندات ببصمة أظافرهم. و يورد كيلر تفصيلات عدد من المعاملات التى قامت بها شركة موراشو هذه لاناس معينين بأسماء معروفة. كما يورد نصوص مقاولات موقع عليها ببصمة الأظافر و مؤرخة بتاريخ أيلول أو غيره.

و يفهم من كل هذا ان ضمانات الذين يسجنون عن الديون كانت تودع فى مصرف هذه الشركة، التى كانت تخصص شعبة خاصة من دائرتها لكل شأن من شؤون الحياة. و ان مقدار الفائدة كان عشرين بالماية. و يعقب كيلر على هذا بقوله ان شركة موراشو و أولاده يمكن ان تتخذ مثالا للمهنة التى أصبحت منذ عهد السبى مقرونة بأبناء اسرائيل. فقد أصبحت بالنسبة لهم مهنة مفضلة و بقيت كذلك

حتى يومنا هذا، و هى مهنة المتاجرة و البيع. و قد كانوا فى موطنهم الأول فلاحين و مربى حيوانات و أصحاب أراض و باعة فقط. لأن قانون اسرائيل لم يخصص نصا للتجارة التى كانت مهنة غريبة عنهم، و لذلك كانت تترك للكنعانيين و غيرهم. و يقول كيلر بعد ذلك ان انتقال اليهود الى المهنة التى كانت محرّمة عليهم حتى ذلك اليوم كان عملا بارعا للغاية، لأنه برهن بالنسبة لما عندهم من تعلق شديد بعقيدتهم القديمة على كونه أحسن ضمان لبقائهم كشعب من الشعوب بين أمم الأرض. فهم كفلاحين و زراع لو استمروا على مهنتهم و انتشروا فى الأرض لاختلطوا و تزاوجوا مع الأقوام و العروق الأخرى، و لأدى ذلك خلال أجيال معدودة الى امتصاصهم و اختفائهم من الوجود. فقد تطلبت مهنتهم الجديدة هذه ان تكون بيوتهم فى مجتمعات كبيرة يستطيعون فى ضمنها ان يكتلوا أنفسهم فى مجتمع خاص بهم و يمارسون طقوسهم الدينية المختصة بهم. و هذا يعنى أنها كونت فيهم التماسك و البقاء على أنهم مهما أخلدوا الى السكينة و السلام فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۶۹

المحيط الذى كانوا يوجدون فيه، و مهما استفادوا من كل ذلك، فانهم لم يستطيعوا نسيان مدينة داود أورشليمهم المحبوبة.

العودة الى أورشليم

و حينما تسنى لكورش ملك الفرس ان يقضى على الدولة الكلدانية فى بابل سمح لليهود المقيمين فيها بالعودة الى أورشليم، و أصدر أمره الامبراطورى الذى كان مكتوبا بالآرامية يومذاك الى شيش بازار الحاكم فى أورشليم بالاشراف على اعادتهم و تعمير أورشليم و الهيكل فيها، و أعطاهم ما أخذه نبوخذنصر من المعبد من أوانى الذهب و الفضة، فعادت جماعات منهم على دفعتين يبلغ عددهما معا خمسين ألفا، بينما تخلف أكثر المنفيين فى «المنفى». و يقول كيلر (الص ۲۹۹) انه من المفهوم فى هذه الحالة بعد بقاء اليهود خمسين عاما فى المنفى ان لا يغتنم هذه الفرصة بالعودة الى موطن آبائهم. و على كل فقد كان من المجازفة للفرد منهم ان يغادر بلاد بابل الغنية التى استقر فيها، و نشأ معظمهم بين ظهرانيها، فيسلك طريق العودة الوعر و يعود الى خرائب البلاد التى ظل ينعق فيها البوم. و على الرغم من هذا غادرت بابل فى ربيع سنة ۵۳۷ قبل الميلاد، بعد استعداد طويل الأمد، قافلة كبيرة نحو أرض «الوطن».

و ليس من الصعب ان نتصور شكل هذه القافلة بحاخاميها و مغنيها و حماليها، و بنسائها و أطفالها، و هم يسيرون وئيدا على ضفاف الفرات العظيم، ثم يتجهون الى الغرب فيمرون بدمشق و منها الى أسفل جبل الشيخ و الى بحيرة طبرية. و بعد ذلك حلّ اليوم الذى لاحظوا فيه من بين قمم اليهودية السمراء خرائب مدينة صهيون المقفرة و شاهدوها بأعينهم، فكانت أورشليم بعينها.

و يعتقد علماء الغرب و عدد كبير من مفكريهم «ان مستقبل العالم كان ينطوى فى تلك القافلة التى ذهبت الى أورشليم» «فقد كان يتوقف عليها أمر كتابة التوراة و الانجيل كما نعرفهما اليوم- التوراة و الانجيل و العقيدة اليهودية و النصرانية، مع عدة قرون من الحضارة الأوربية. فلو لم تحصل العودة الى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۷۰

أورشليم للقيت مملكة يهوذا على وجه التأكيد نفس المصير الذى آلت اليه مملكة اسرائيل قبلها، و لاختلط أفرادها بأمم الشرق و انعدم وجودها بين الأمم». و لا شك أنهم يقصدون بذلك ظهور السيد المسيح و نشوء النصرانية التى ظهرت بعد عودة اليهود من السبى كما لا يخفى.

و حالما عاد اليهود الى أورشليم بنيت أسس الهيكل الجديد فى غمرة من الحماسة المتصاعدة على حد ما يقول كيلر. لكن العمل سرعان ما أخذ بالتباطؤ، و فترت الحماسة العظيمة التى ظهرت فى بادىء الأمر، لأن الحياة كانت شاقة جافة فى تلك البلاد التى فرغت من سكانها حيث كانت البيوت المتهدمة عاجزة عن تقديم أقل نسبة من الأيواء و الحماية للناس. و كان هناك علاوة على هذا مشكلة الحصول على القوت و المعيشة، حتى أصبح الكل أعجز من ان يهتم بغير مشكلاته الخاصة. و مع هذا فقد تقدم التعمير ببطء، و كان

أول المستوطنين فقراء معدمين كما يبدو من المكتشفات الآثارية.

و ليس من الغريب ان يعمد كيلر فى كتابه هذا الى عدم ذكر المقاومة التى قوبل بها اليهود العائدون من سكان البلاد الأصليين، و هو الذى يبدو تحيزه واضحا لليهود فى ثنايا الكتاب. إذ يقول الأستاذ دروزة انهم حينما أخذوا يستعدون لتعمير المدينة و المعبد بعد وصولهم تصدت لهم شعوب الأرض فى شرق الأردن و غربه و أرسلوا العرائض ضدهم الى ملك الفرس الذى خلف كورش يحذرونه منهم، و يذكرون له ما كان من سيرة آبائهم. حيث يبدو من هذا استمرار كراهية و حقد أهل البلاد لهم نتيجة لما كان من سيرتهم معهم. و قد نجحوا فى حملتهم فصدرت الأوامر بمنعهم و ظل المنع مستمرا ردحا من الزمن غير قصير الى أن أذن لهم دارا الثانى بالبناء. و لقد برز من بين المنفيين زعيم اسمه نحميا عينه الفرس واليا على اليهودية فجاء و أخذ ينشط

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۷۱

فى سبيل انعاش قومه، و تحصين سور أورشليم، فتصدى له أهل شرق الأردن و فلسطين بقيادة زعماء ثلاثة هم: جاشم العربى، و سنبلط السامرى، و طوبيا العمونى، و أخذوا يصاولونه و يزعجونه و يعرقلون نشاطه. و اشترك معهم الآشوريون و الفلسطينيون. و يؤيد هذا كله ما ورد فى بعض أسفار التوراة.

و يذهب الى هذا كذلك الدكتور جواد على فيقول ان سفر نحميا يخبرنا بأن سنبلط الحورونى و طوبيا العبد العمونى و جاشم العربى قد احتقروا اليهود حينما حاولوا بناء سور القدس و اغتاضوا من ذلك، و ان سنبلط و طوبيا و العرب و العمونيين و الاشدوديين غضبوا جدا و قرروا ان يحاربوا أورشليم، و ان سنبلط و جاشم خاصة حاولا إبطال بناء السور لانهما خافا من تمرد اليهود و من عودة ملكهم .. و هذا مما يدل على ان العرب و حلفاءهم قد استعادوا نفوذهم فى فلسطين و أنهم كانوا على أبواب القدس. و يظهر من هذا السفر ايضا ان عددا قليلا- من العبرانيين أرادوا الرجوع بعد السبى إلى أورشليم على الرغم من سماح الفرس لهم بالعودة و الحاح الأنبياء عليهم فى طلب الرجوع.

ثم يتابع كيلر سرد الحوادث فى هذا الشأن فيقول ان إعادة تشييد الهيكل فى أورشليم لم يؤخذ بصورة جدية أخيرا الا فى عهد دارا خليفة كورش، أى بعد أن مرّ عشرون عاما على المباشرة بوضع الأسس له. و كان على اليهود بعد ذلك ان ينتظروا الى حلول القرن التالى ليبدأوا فيه بتشييد سور المدينة من جديد. و قد تم ذلك على عهد نحميا الذى عينه الفرس حاكما مستغلا على اليهودية، أى فى سنة ۴۴۴ قبل الميلاد.

فى حكم اليونانيين

لقد انتقل مركز القوى فى القرن الرابع قبل الميلاد من «الهلال الخصيب» الى الغرب بالتدريج. و عندما استطاع الاسكندر الكبير دحر دارا الثالث سنة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۷۲

۳۳۳ ق. م بالقرب من الاسكندرونة تمهدت له الأمور فاستولى على الشرق كله

اما بالنسبة للقدس و فلسطين فان يوسفوس المؤرخ اليهودى يورد رواية غير موجودة فى التوراة مفادها ان الاسكندر بعد ان استولى على حصن غزة المنيع جاء الى القدس، فاستقبله الناس فيها و الحبر اليهودى الاعظم جدوع استقبالا حافلا. و زار الهيكل فقدم القرابين فيه، ثم أنعم على الناس بانعامات غير قليلة. غير ان كيلر يستبعد صحة هذا الخبر لأن التنقيبات الأثرية لا تؤيد ذلك، و لأن الاسكندر لم يكن لديه الوقت الكافى لزيارة القدس بعد أن تأخر حوالى تسعة أشهر فى محاصرة صور و غزة. و على كل فالظاهر ان القدس اليهودية كلها قد خضعت للحكام الجدد، و ليس هناك ما يدل على حصول مقاومة أو تمنع فى هذا الشأن.

و حينما قضى الاسكندر نحبه فى بابل بالبرداء (الملاريا)، و تقاسم قواده الملك بينهم، كانت القدس و ما حولها من بلاد اليهودية من

حصة البطالسة فى مصر بادىء ذى بدء و استمر ذلك مدة تناهز المائة سنة و قد زاد خلال هذه المدة النفوذ اليونانى الهلينستى بين اليهود حتى انتقل قسم كبير منهم الى الاسكندرية، و ترجم التوراة الى اليونانية. و فى سنة ۱۹۵ ق. م استولى انطيخوس الثالث على فلسطين و مملكة يهودا كلها، فأصبحتا خاضعتين للسلوقيين تمام الخضوع. و قد حاول السلوقيون إكراه اليهود على التخلى عن تقاليدهم و طقوسهم الدينية، و نجحوا فى ذلك الى حد غير يسير لأن الكثيرين من يهود القدس و منهم رؤساء الحاخامين مالأوا السلطة و أخذوا يفعلون ما تريد. ثم تخلق الكثير منهم، و لا سيما الشبان، بأخلاق اليونان و أخذوا يظهرون فى الألعاب الاولمبية و هم عراة فى كل مكان و على الأخص فى الملعب الذى أقامه جيش الحبر الأعظم اليهودى فى قلب القدس، أى فى الوادى الذى يحاذى الهيكل و يقع قريبا منه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۷۳

ثم جاء أنطيخوس الرابع، المسمى أبيفانوس، فنهب هيكل القدس و انتهك قدسيته فى سنة ۱۶۸ ق. م، حيث كان من عادته انتهاك قدسية المعابد فى كل مكان. و لم يكتف مما حصل عليه فى الهيكل من نفائس، بل كلف بالاضافة الى ذلك جابى ضرائبه أبولونيوس بالتوجه الى القدس مع قوة من الجيش. فعمد هذا الى نهب المدينة و اضرام النار فيها، ثم هدم البيوت و الجدران فى كل مكان، و أخذ النساء و الأطفال أسرى، كما استولى على المواشى و سائر الحيوانات.

و كان ما أصاب اليهود فى القدس على أيدى السلوقيين أشد مما أصابهم حتى فى عهد الآشوريين و البابليين. فقد ادخلت عبادة زيوس إله الأوليمپ فى هيكل يهوه، و عوقب بالموت كل من كان ينفذ تعاليم اليهودية مثل تقديم الضحايا و القرابين، و مراعاة السبت، و الختان، و تحريم لحم الخنزير، و ما أشبه. و يقول كيلر (الص ۳۱۶) ان هذا كان أول اضطهاد دينى منظم حصل فى التاريخ.

و بتأثير هذا الضغط و القسوة حدثت ثورة فى البلاد بقيادة الحاخام ماتاثياس و أولاده الخمسة. و قد بدأت فى قريتهم الصغيرة مودين التى تسمى اليوم المدية، و تقع على بعد عشرين ميلا من القدس. و هذه ما اطلق عليها بثورة المكابيين. و تمكن يهوذا مكابيوس بن ماتاثيوس الذى قاد الثورة بعد أبيه من تحرير القدس فى ۱۶۴ ق. م و إعادة العبادة فى الهيكل الى ما كانت عليه فى السابق، ثم أعيد بناء المذبح و قدمت القرابين الى يهوه. و مع ان الثورة التى امتدت الى مختلف الأنحاء لم تستطع الصمود فى وجه القوة التى جردت عليها بكل ما تحتويه من خيالة و فيلة، مع اختلاف اليهود بين أنفسهم و خيانة الكثيرين منهم، فقد كانت نتيجتها اعتراف انطيخوس الرابع بحرية اليهود الدينية و بطبقة رجال الدين فى القدس سنة ۱۶۷ ق. م. لكن المكابيين أخذوا بعد ذلك يطالبون و يثورون من أجل الحصول على الحرية السياسية كذلك،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۷۴

كما حصل فى أيام يوناثان و شمعون أولاد يهوذا المكابى، حتى انتهى الأمر بالحصول على الحرية السياسية أيضا فى، ۱۴ ق. م على عهد شمعون.

لكن السلوقيين ضعفوا بمرور الزمن، و لم يعد بامكانهم اخضاع المكابيين لمشيئتهم. و عند ذاك تعالى شأن الرومان فى روما و استطاعوا التحرر من ربقة التسلط القرطاجى (الفينيقى) الذى كان يفرضه حنى بعل (هانيبال) عليهم.

ثم انتزعوا السلطة من السلوقيين و غيرهم، و زحف القائد الرومانى بومبى مخترقا المملكة السلوقية الى فلسطين. و بعد ان حوصرت القدس ثلاثة أشهر دخلتها الفيالق الرومانية سنة ۶۳ ق. م و أصبحت اليهودية مقاطعة رومانية، و بهذا ينتهى استقلال اليهود السياسى الذى لم يعمر طويلا.

المكابيون و ظهور السيد المسيح

اشارة

و قد حكمت فى القدس اسرتان من المكابيين، أولاهما تعرف بأسرة حشمتاى و كان منها عشرة ملوك من ضمنهم ماتاثيا و أولاده الخمسة قادة الثورة. و أسرة هيرود التى كان من خطتها مسايرة اليونان و الرومان المسيطرين و التعاون معهم فى حكم البلاد. و كان هيرود هذا رجلا من أصل ايدومى- غير عبرى- يدين باليهودية، و قد عينه الرومان للملكية فحكم اليهود بقسوة و فضاضة على ما تشير اليه نصوص التوراة و غيرها. و فى عهده ولد السيد المسيح فى بيت لحم على ما تقول التوراة، و ظهرت نجمة بيت لحم فى كبد السماء فكانت اشارة تنبىء بمجىء حكماء المجوس من الشرق الى القدس للتفتيش عنه و الأيمان به.

و يذكر المؤرخ اليهودى يوسفوس ان شائعة سرت بين الناس فى تلك الأثناء بان اللّه سبحانه و تعالى قد قرر انهاء حكم الرومان الأجانب، و أن اشارة سماوية قد أنذرت الناس بظهور ملك يهودى جديد. فجفل هيرود لهذا الخبر، و بادر فى الحال الى جمع رجال الدين و كتّاب الناس جميعهم،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۷۵

و طلب اليهم ان يعلموه حينما يولد المسيح و يدلوه على المكان الذى يولد فيه ثم دعا حكماء الشرق و بعثهم الى بيت لحم الكائنة على بعد خمس كيلو مترات عن القدس، للتفتيش عنه و هناك أيدت الاشارات السماوية ولادته لهم.

و فى أيام هيرود كذلك زارت كيلو پاطرة ملكة البطالسة فى مصر القدس عدة مرات، و حاولت ان تستميله الى جانبها لانها كانت تخطط سريا لاعادة سطوة آبائها القديمة على هذه البلاد. فلم تفلح فى ذلك، و أخذت تحرك عليه لدى عشيقها انطونيوس الرومانى، و لو لا- لباقة هيرود و مرونته لأدى التحريك الى قطع رأسه. فقد استطاع إقناع انطونيوس بالهدايا الثمينة لكنه أجبر على التنازل عن الساحل الفلسطينى و مدنه كلها، فأهداه أنطونيوس الى عشيقته لتلطيف خاطرها. و قد أخذت بالاضافة الى ذلك مدينة أريحا و ما يحيط بها من مزارع و بساتين عامرة تحتوى على الكثير من النباتات العطرية، التى يقال ان ملكة سبأ كانت قد أهدتها الى سليمان الحكيم، و منها نبات البلسم الذى أخذت كيلو باطرة عقلا منه الى مصر فزرعتها فى منطقة المطرية.

و قد مات هيرود فى سنة ۴ ق. م فى السبعين من عمره، بعد ان حكم ستا و ثلاثين سنة قضاها فى اضطهاد شعبه و سكان بلاده على ما يزعمون. و يقول يوسفوس ان اليهود عانوا من ظلم هيرود و تعسفه خلال سنوات معدودة ما لم يعان مثله آباؤهم خلال المدة الطويلة التى مرت على عودتهم من بابل فى عهد كورش و قد قضى بهده الوسيلة على كثير من أسر القدس العريقة و أزيلت من الوجود. و كان آخر ما فعله قبل موته انه قتل ابنه أنتى باتر، ثم مات بعد خمسة أيام، بعد ان رشح ثلاثة من أولاده الصغار و هو على فراش الموت ليخلفوه فى الحكم. و أول من خلفه ابنه أرخلاوس، فقد بايعه على الملك فى القدس أفراد أسرته و جنوده المرتزقة المتكونة من الألمان و الغال و المكدونيين.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۷۶

و بدلا من ان يحزن اليهود لموت هيرود صاروا يطالبون بتخليد ضحاياه، الذين ذهبوا قرابين لتعسفه و أطماعه. غير ان ابنه الملك الجديد رد عليهم بسوق الجيوش على القدس نفسها. و جرت فى اعقاب ذلك مذبحة رهيبة فيها قتل فى اثنائها ثلاثة آلاف شخص فى يوم واحد، بحيث ملأت جثثهم قاعات الهيكل و أبهائه، و بذلك برهن على ان «الولد على سر أبيه». و قد صادف ان ذهب الملك أرخلاوس و اخوه هيرود انتيپاس الى روما للحصول على تأييد الامبراطورية لحكم أرخلاوس، فانتهز الشعب المتذمر غيابهما و اتسع نطاق الاضطرابات و القلاقل فى القدس و ما حولها بحيث اضطر الرومان الى سوق فيلق خاص اليها لتهدئة الحالة.

ثم حصلت ثورة اخرى تجاوز فيها اليهود على جنود الرومان، فبادر الجند الى أضرام النار فى الهيكل، ثم هاجموا الناس فى داخله و نهبوا جميع ما وصلت اليه ايديهم هناك. و انتشرت الثورة من القدس الى سائر انحاء المملكة اليهودية كما تنتشر النار فى الهشيم. فنهبت القصور الملكية فى كل مكان و أضرمت النيران فيها. ثم خف حاكم سورية الرومانى الى القدس مع جيش قوى تعزز بوصول نجدات اليه من بيروت و بلاد العرب. و ما وصلت أرتال الجيش الى مشارف القدس حتى فرّ الثوار اليهود، فتعقبهم الجيش و ألقى

القبض على عدد كبير منهم. و عند ذاك شنق حوالى الفى شخص .

و قد صادف فى هذه الفترة العصيبة أن مر يوسف النجار فى طريق عودته من مصر الى فلسطين. و سمع بحكم أرخلاوس فى مكان أبيه فلم يمكث فى القدس بل توجه الى الناصرة، و هناك قضى السيد المسيح طفولته و صباه، حتى بعث مبشرا و هاديا للناس.

و يقول الاستاذ دروزه : و فى هذه الفترة، و بالتحديد فى عهد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۷۷

أو غسطوس قيصر، و فى أواخر عهد هيرودس الثانى ظهر من بنى اسرائيل عيسى بن مريم عليه السلام داعيا الى اللّه وحده، ربه و رب السماوات و الأرض، و الى الصلاح و الاصلاح، مبشرا بالرحمة و الرفق و السلام ناعيا على اليهود و زعماء دينهم ما ارتكسوا فيه من انحرافات و آثام دينية و خلقية ..

و قد كان من طبيعة الدعوة التى دعا اليها ان غدت الديانة المسيحية ديانة انسانية عامة انضوت تحت لوائها أمم مختلفة .. و قد تألب رؤساء اليهود على السيد المسيح بسبب دعوته الاصلاحية لأنه كان يشدد الحملات و النكير عليهم.

و حرضوا الجمهور عليه، ثم شكوه الى الحاكم الرومانى بلاطوس البنطى و طالبوا بشنقه. و تذكر الأناجيل المعروفة ان الحاكم استجاب لهم و نفذ طلبهم. لكننا نقول تعليقا على هذا ان القرآن الكريم يقرر أن اللّه أنزل الانجيل على عيسى و إنّ شنق عيسى لم يتم بلا شبّه لهم، و ان رواية شنقه قائمة غلى الظن دون اليقين، و ان هناك اختلافات كثيرة فى شأن عيسى بين النصارى أنفسهم.

صلب السيد المسيح

ذهب السيد المسيح فى رحلته الأخيرة من الجليل الى البلد المقدس، و قد سلك الطريق الذى كان ابراهيم الخليل قد سلكه مع أسرته من قبل مارا من بين الجبال التى تخترق منطقة السامرة. فمنعه السامريون من المرور فى بلادهم و اضطر الى ان ينحرف عنها و يحاذى الحدود الأردنية فى سيره، ثم يعبر الأردن الى اريحا. و من ثم قصد القدس. و قد استغرقت رحلته كلها ثلاثة أيام بلياليها، لأنه كان يقطعها مشيا على الأقدام مع بعض حواريه.

فبانت له القدس قبل انتهاء الطريق من وراء قمة جبل الزيتون و كأن يدا سحرية قد استحضرتها من بين الجبال. و هنا يورد كيلر (الص ۳۴۹) وصفا للمدينة المقدسة من بعيد كما كانت تبين للرائى يومذاك، نقلا عن المؤلف غارستنغ فى كتابه عن أريحا:

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۷۸

.. فقد كانت ترتفع أسوارها العظيمة الى علو مئتين و خمسين قدما عن الوادى. و كانت تعلو من وراء شرفاتها المنفرجة خطوط أبنيتها الكبيرة المارة بالبقعة التى تنحصر فيها البيوت و الشوارع و الأزقة الضيقة. و يقع فى مقابل جبل الزيتون مباشرة الهيكل الذى يشغل مقدمة المنظر، فيحجب بلمعانه و روعته جميع الأبنية الأخرى. و تتجه واجهته، التى ترتفع الى مائة و خمسين قدما و تمتد فى عرضها بالمقدار نفسه، نحو الشرق فتتألف بكليتها من الرخام الخفيف. و كانت زخارفه و تزييناته كلها بالذهب الخالص، كما كانت الأساطين تطوق أبهاءه الوسيعة و دهاليزه المتفرعة. على ان ما كان يتوّج جلال المنظر و بداعته المعبد الذى يقوم فى الوسط، و يتلألأ كما يتلألأ الجبل الذى تكسو قممه الثلوج، على ما يعبر به المؤرخ اليهودى يوسفوس.

و فى الجهة الشمالية الغربية من سور المعبد كان يرتفع مباشرة «برج أنطونيا» موكّرا فوق مرتفع صخرى القوام. و يبلغ ارتفاع كل بريج من بريجات زواياه الكبيرة حوالى مائة و عشرين قدما. و توصل بين الجهة الجنوبية لمنطقة المعبد و قصر الأسرة الحسمونية المالكة فى المدينة العليا قنطرة متينة خاصة.

و فى أعلى نقطة فى المدينة كان يقوم قصر هيرود بالقرب من السور الغربى، و تعلوه بالشاكلة نفسها ابراج ثلاثة يبلغ ارتفاعها ۱۳۰ و ۱۰۰ و ۸۰ قدما.

و قد أطلق عليها هيرود الأسماء الآتية: هيبيكوس، و فاسيل، و ماريا من.

و يمتد من هذه النقطة سور سميك فيخترق بحر البيوت المنتشر حتى يصل الى منطقة الهيكل، فيقسم بذلك قلب المدينة مرة أخرى الى قسمين كبيرين.

و يكتنف المدينة، على ما يقول كيلر جو قهّاريم عنه تعدد التحصينات و كثرة الأسوار و الأبراج التى تحيط بالهيكل. فحينما ينظر الناظر الى القدس بهذه الحالة يكاد يتنفس عنادها و صلابتها أو عدم مرونتها. و قد كانت هذه المزايا نفسها هى المسؤولة عما حل بالقدس من دمار بعد ذلك، و طرد اسرائيل من أرض الآباء (كذا).

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۷۹

و لا بد من ان المسيح قد خالجه هاجس داخلى بمستقبل القدس اليهودية و مصيرها حينما تمعن فى هذا المنظر و نقّل ناظريه فى أنحائه. فقد بكى عليها كما يذكر إنجيل لوقا.

اما ما ذكر فى الأناجيل عن محاكمة السيد المسيح فى القدس، و الحكم عليه بالصلب، و تنفيذ هذا الحكم، فقد تم التأكد منه بدقة علمية بذلها عدد من الباحثين فوجدوا أنها روايات موثوقة بكل ما فيها من تفصيل.

إذ تبدأ المأساة التى لا مثيل لها بالتكشف منذ أول توقيف المسيح. فقد كان عليه السلام قد جمع حواريه حوله فى حديقة الجثمانية فوق جبل الزيتون و ما أن بدأ بحديثه معهم حتى فاجأهم جمع كبير من اليهود بالسيوف و العصى يتقدمهم يهوذا، أحد حواريه. و كان هؤلاء قد بعثهم اليه حبر اليهود الأعظم و الحاخامون. فأوقفوه و أتوابه الى المجلس الدينى الأعلى لليهود. أو السانهدرين الذى كانت بيده يومذاك السلطة اليهودية العليا و الذى تجتمع فيه السلطتان الدينية و الدنيوية. و كان هذا المجلس كذلك يتولى أعمال المحكمة العليا لليهود، و يجتمع تحت المعبد فيما يقرب من الجسر المؤدى الى القسم الأعلى من القدس.

اما الأسباب التى استند اليها المجلس اليهودى فى الحكم على السيد المسيح بالصلب فيلخصها كيلر بالنقاط الآتية نقلا عن الأستاذ الالمانى مارتن نوت :

اجتماع الحواريين بمريم و القديسان من النساء و فجأة عصفت ريح من السماء و امتلأت الدار على ما جاء فى الانجيل. موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۸۰

«.. ان انتظار أنبياء اليهود القدماء الذى كان يتركز فى ظهور مسيح ملك فى المستقبل قد تطور خلال مدة التسلط الأجنبى الطويلة، و انقلب الى أمل فى ظهور محرر سياسى يحرر اليهود من الأجانب. و كان كلما يزداد التذمر من حكومة البلاد الرومانية تزداد وضوحا فى مخيلة اليهود فكرة ظهور مسيح فاتح يتولى القضاء على السلطة الأجنبية الممقوتة. و اذا ما قيس بسوع الناصرى بهذه المقاييس لا يمكن أن يكون هو ذلك المسيح المنتظر .. و إذا لم يكن كذلك فانه لا بد من أن يكون دعيّا و مسيحا مزيفا. و لما ثبت كونه دعيا و مسيحا مزيفا فان مصلحة السلم و الحياة الدينية فى أورشليم لا بد من ان تتطلب التخاص منه.

كما ان ادعاء يسوع فى أثناء المحاكمة بانه المسيح، و انه ابن اللّه بالنسبة للأسس التى جاء بها العهد القديم، كان يكفى للحكم باعدامه بتهمة الكفر الصريح»

و قد كان القانون يومذاك يقتصى مصادقة الوكيل الرومانى، بيلاطوس البنطى ، على هذا الحكم قبل تنفيذه. و كان بيلاطوس هذا مكروها جد الكراهية من اليهود، لكنه كان يدرك كذلك ان يسوعا المتهم كان موضع حقد اليهود و كرههم له، و لذلك رفض المصادقة على القرار من دون تردد و قال لحبر اليهود الأعظم انه لم يقتنع بالذنب المنسوب الى يسوع. لكن الغوغاء التى تجمهرت حول قصر الوكيل بتحريض من أحبار اليهود و رجالهم أصرت على طلبها فى إعدام المسيح، فاضطر الى المصادقة. ثم أخذ بيده و سلمه اليهم ليصلبوه.

و كان المكان الذى وقع فيه هذا كله الساحة «المبلطة» فى محكمة بيلاطوس و المعروف ان هذه الساحة بقيت سالمة حتى بعد أن

دمرت القدس فی سنة سبعين بعد الميلاد. و قد اكتشفها المنقبون فی السنوات الحديثة بعد كثير من التنقيب و البحث ففی ساحة برج أنطونيا المعروف وجدت بقعة كبيرة مبلطة تبلغ حوالی ۳۰۰۰ ياردة مربعة فی مساحتها، مبنية علی الطراز الرومانی فی عهد السيد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۸۱

المسيح، فكانت هذه البقعة هی التی وقف فيها بين يدی بيلاطوس بينما كانت الغوغاء يعلو صراخها فی الخارج. و فی هذه البقعة كذلك عذب المسيح و جلد قبل صلبه، كما كانت العادة المتبعة يومذاك. ثم أخذه الجنود الرومانيون ليقوموا بصلبه. و قبل ان يفعلوا ذلك أخذوه فألبسوه الأرجوان و وضعوا فوق رأسه تاجا من الشوك ليسخروا به. و هكذا أخذ الی التل الذی صلب فيه (جبل الجلجلة). و قدموا له قبيل الصلب شيئا من الخمر المخلوط بالمر للتخفيف من عذابه، لكنه امتنع عن شربه و تحمل آلام مسمرة جسمه فی الصليب . فقضی الأمر.

و لا يكاد يبعد هذا عن الموقع الذی جلس فيه بيلاطوس للمحاكمة بأكثر من ألف، خطوة، علی طول «طريق الالام» المنتهی بكنيسة القبر المقدس. و فی سنة ۳۲۶ ميلادية أقام الامبراطور قسطنطين نصبا بديعا فوق قبر السيد المسيح، الذی كان قد اكتشف حديثا يومذاك. و كان يتألف من أعمدة مزينة تزيينا غير قليل، يعلوها سقف من العارضات المطلية بالذهب ..

و فی داخل مصلی الكنيسة اليوم هناك عدد من الدرجات المتآكلة تؤدی الی سرداب فيه قبر طوله ستة أقدام منحوت من الصخر. فهل هذا هو مدفن السيد المسيح؟

يقول المستر كيلر (الص ۳۵۶) ان ما يزيد علی ألف قبر قد اكتشف فی فلسطين تعود الی ذلك العهد، لكنها كلها كانت فی مقابر أو سراديب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۸۲

تعود للأسر. اما هذا القبر فهو لوحده. و يفهم من أحاديث الانجيل ان المسيح كان أول من دفن فی قبر كبير، فقد تسلمه يوسف النجار و لفه بقطعة نظيفة من نسيج الكتان و وضعه فی قبره الجديد الخاص الذی كان قد نحته فی الصخر، ثم دحرج حجرا كبيرا سدّ به الضريح و غادر المكان.

و يذكر فی مكان آخر من الكتاب (الص ۳۶۷) ان بطرس كان أول رسول بعد وفاة السيد المسيح بشّر بين الوثنيين و هداهم الی النصرانية، كما كان رئيس أول طائفة مسيحية فی القدس و اليهودية، ثم وسع مجال عمله بعد ذلك الی خارج فلسطين.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۸۳

تدمير القدس علی أيدی الرومان سنة ۶۶– ۷۰

يفهم مما جاء فی انجيل لوقا ان السيد المسيح تنبأ بتدمير القدس و قتل الكثيرين من أبنائها، و أخذ عدد آخر منهم أسری الی بلاد أخری، و دخول غير اليهود اليها دخول المنتصر. و قد أنذر بنی اسرائيل بذلك حينما طغوا و تجبروا و هزءوا برسالته السماوية التی جاءت تبشر بالسلام و المحبة علی طول الأجيال.

فصح ما تنبأ به عيسی بن مريم و حل الدمار بالقدس بعد مجزرة رهيبة استقامت خمس سنين، فأدت الی محوها من الوجود و اختفاء اسم اليهود منها عبر القرون و لما يمض علی صلب المسيح جيل واحد.

فقد تعالی صوت اليهود يوما بعد يوم و كثرت احتجاجاتهم علی الرومان و تصرفهم فی أورشليم علی ما يقول كيلر (الص ۳۷۵). و راح «الزيلوت» المتعصبون من اليهود يؤلفون عصابات ثائرة فی البلاد، و يطالبون بازالة الحكم الأجنبی عنها. و كان كلّ منهم يحمل خنجرا أو مدية و يخفيه بين طيات ثيابه علی الدوام، ثم ازداد عدد هؤلاء و انضم الناس اليهم فی كل مكان حينما كانت تصرفات الوكيل الرومانی تزيد فی الطين بلة، و تؤدی الی ازدياد التوتر.

و انقلب هذا الغضب المتزايد الى ثورة علنية فى مايس سنة ۶۶ للميلاد، حينما طالب فلورس الوكيل الرومانى اليهود بتسليم سبعة عشر قنطارا من خزانة الهيكل فى القدس. و عند ذلك تسلم الثوار المدينة و صارت فى قبضة أيديهم.

فقد كان الامتناع عن التضحية اليومية للامبراطور يعنى اعلانا صريحا للحرب ضد الامبراطورية الرومانية. و ألقت القدس بقيودها على أقدام روما فتحدت بذلك الامبراطورية العظيمة.

و سرت نيران الثورة فى كل مكان بعد ذلك، فخرج الزمام من يدى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۸۴

فلورس و لم يعد هو المسيطر فى البلاد. و حينئذ زحف سيستوس غالوس حاكم سورية على القدس لينقذ الموقف بفيلق واحد، و عدد كبير من القوات المساعدة، لكنه اضطر الى النكوص بخسائر فادحة. و استولى الثوار على البلاد

و إذ كان اليهود على ثقة بان روما سترد على هذا التحدى بكل بطش و جبروت، خفّوا الى تحصين المدن و اصلاح مواقع دفاعها. فرمّموا الأسوار القديمة و عيّنوا القادة العسكريين. و قد تعين يوسفوس، المؤرخ اليهودى القديم، قائدا عاما فى منطقة الجليل. اما بالنسبة للرومان، فقد عهد الامبراطور نيرون بالقيادة الى الجنرال فسباسيانوس ، الذى كان قد برهن على كونه جنديا لامعا، و أظهر كفاية ممتازة، عند احتلال الرومان لبريطانية.

فزحف، يصحبه ابنه تايتوس، على رأس ثلاثة من أحسن فيالق الجيش الرومانى و عدد من القوات المساعدة، و هاجم منطقة الجليل فى الشمال. و قد شهدت القرى الصغيرة المطلة على بحيرة طبرية، التى كان المسيح يعظ صيادى السمك فيها قبل سنوات قليلة، أول مجزرة دموية فى هذه الحروب. و أخضعت منطقة الجليل بكاملها فى تشرين الأول سنة ۶۷ للميلاد. و سار بين جموع الأسرى فى النتيجة يوسفوس القائد العام نفسه، فقد قيد بالسلاسل و حمل الى المقر العام بأمر من فسياسيان. و أصبح ستة آلاف أسير من بعده عبيدا يعملون فى قناة الكورنيث فى روما.

ثم استؤنف قمع الثورة فى الربيع التالى، لكن أخبارا وصلت فى أثناء المعركة تفيد بانتحار نيرون فتوقفت الأعمال العسكرية مدة من الزمن. و بعد تطورات كثيرة و كفاح مرير حصل فى روما نودى بفسياسيان قائد فلسطين نفسه امبراطورا على رأس الامبراطورية الرومانية، و غادر البلاد بعد أن عهد الى ابنه تايتوس بانهاء المهمة. فظهر على أبواب القدس يقود

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۸۵

جيشا لجبا فى ربيع سنة سبعين، و كان هذا الجيش يتألف من الفيلق الخامس و العاشر و الثانى عشر و الخامس عشر، مصحوبة بالخيالة و المهندسين و سائر القوات المساعدة، بحيث بلغ مجموع الجيش الكلى ثمانين ألف محارب

و كانت المدينة المقدسة تعج بالناس، لأن الحجاج كانوا قد قدموا اليها من قريب أو بعيد للاحتفال بعيد الفصح اليهودى، و قد حصل نزاع بين الزيلوت المتطرفين و بين المعتدلين من اليهود خلال المراسيم فبقى القتلى و الجرحى فى مكانهم من دون أن يخف اليهم أحد. و كان الرومان فى الوقت نفسه يتوزعون على المعسكرات القريبة من المدينة. ثم قوبل نداء الجيش بالاستسلام بالهزء الصاخب، ورد عليهم تايتوس بالهجوم. فراح المشاة الرومان و أدوات الحصار السريعة الرمى و قاذفات الحجارة يعملون عملهم فى وقت واحد. و كان كل واحد من المجانيق يمكن ان يرمى أحجاره الى بعد ستماية قدم. و لم تخمد الحرب الأهلية بين اليهود فى الداخل الا حينما أخذت الأحجار و القذائف تمطر المدينة بوابل متواصل منها. فاصطلح الطرفان المتناحران و اتفقا على ان يتولى شمعون باركيورا زعيم المعتدلين الدفاع عن الجهة الشمالية، و ان يعهد الى يوحنان الكيشالى قائد الزيلوت المتطرفين بالدفاع عن منطقة الهيكل و برج انطونيا.

و قد استطاعت فى بداية أيار آلات الحصار و أجهزته، بعد قصف متواصل استدام اسبوعين، ان تحدث ثغرة كبيرة فى السور الكائن فى أقصى الشمال و فى خلال خمسة أيام أخرى اخترق الرومان السور الثانى. و بعد أخذ ورد دام عدة أيام سيطر الرومان على

الضاحية الشمالية و ثبتوا أقدامهم فيها.

و كان تايتوس فى تلك المرحلة قد اقتنع بأنه اذا أوقف القتال و استعرض الجيش فى داخل السور على مرأى من الناس فانهم سيبادرون الى الاستسلام فأمر بذلك و دخل الجيش يستعرض و يدق طبوله من الصباح الباكر حتى المساء خلال أربعة أيام متوالية، فلم يحدث التأثير المطلوب. ثم حاول محاولة أخيرة لاقناعهم، فندب اليهم أسيره يوسفوس المؤرخ اليهودى ليناشدهم بالخضوع.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۸۶

و ذهب اليهم و راح يخاطبهم بلهجة تدمى الفؤاد و يذكرهم بماضيهم و تاريخهم و بآبائهم و أجدادهم، و رسالة اسرائيل، فلم يعبأوا به، ثم أخذ يحذرهم و ينبههم الى المصير المظلم الذى ينتظرهم، و الخراب الذى سيحل بالمدينة و الهيكل فذهبت توسلاته ادراج الرياح.

و لذلك بدأت الحرب ثانية من السور الثانى، و كان الهدف برج انطونيا.

و اندفعت مقدمة الجيش من خلال شوارع الضاحية الى منطقة الهيكل و الجهة العليا من المدينة. و استمرت المقاومة خلال الوقت كله. و كان الرومان اذا ما جنّ الليل يلاحظون أشباحا هزيلة تحيط بهم من كل الجهات، و كانت هذه الأشباح تتسلل من الداخل ناجية بنفسها من جحيم الحصار و جوعه فى داخل المدينة. و قد رأى تايتوس ان ينتقم من هؤلاء تأديبا للذين يقاومون فى الداخل، فأمر بان يصلب على الأعواد كل هارب أو ملتجىء أو طالب طعام أو علف.

و تنفيذا لذلك الأمر كان الجنود المرتزقة يصلبون خمسمائة شخص يوميا على صلبان تنصب خارج المدينة، و سرعان ما تكونت غابة كبيرة تمتد الى سفح التلول، و استمر هذا العمل حتى توقف بتعذر الحصول على الخشب المطلوب للصلبان. فقد قطعت الأشجار كلها لهذا الغرض و لأغراض الحصار الأخرى، و أصبح ما يحيط بالمدينة قاعا صفصفا، و حتى جبل الزيتون لم يعد يتكون فيه الظل المألوف. و فسد الهواء بروائح الجثث المنتنة التى كانت ترمى الى الخارج و تتكدس بقرب الأسوار بالآلاف، و هى جثث المائتين من الجوع و الساقطين صرعى فى الحروب و غيرهم.

و لأجل تشديد الحصار و النكير على المدينة و من فيها أمر بأن تحاط كلها بسدود عالية من التراب، فتم ذلك و طوقت القدس من جميع الجهات بعد ان اشتغل فيها أفراد الجيش فى الليل و النهار، و تم كذلك انشاء ثلاثة عشر استحكاما و عدد من النقاط الحصينة الأخرى. و بهذا انقطع حتى تهريب بعض القوت و الطعام و النجدات الى داخل المدينة. فخيّم شبح المجاعة على القدس التى كانت ملأى الى حد الطفوح بالحجاج، و أخذ الموت يحصدهم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۸۷

حصدا مخيفا، و قد أدى الجوع بالناس الى ارتكاب كل ما تعافه النفس و تأباه الانسانية من أجل الحصول على القوت.

و قد استمرت المجانيق على قصف القدس بأثقالها ليل نهار، و سئم تاتيوس من هذا الكابوس المخيف فأراد ان ينهيه بأسرع ما يمكن. و فى غرة تموز هاجم جنوده برج أنطونيا فنسف القصر الذى كان يسوع الناصرى قد حوكم فوق ساحته المبلطة و حكم بالموت قبل سنين، من أساسه. و كانت جدرانه تتاخم سور الهيكل الشمالى. ثم جاء دور الهيكل الحصين بكل ما فيه من بهاء و أورقة و درابزينات. و ذاكر القائد العام ضباطه فى هذا الخصوص، و كان كثير منهم يريدون اعتباره حصنا من الحصون فيشنون عليه الهجوم بكل الوسائل. لكن تاتيوس عارضهم فى هذا و أراد ان أمكن ان يحافظ على المعبد الذى انتشرت سمعته فى انحاء الامبراطورية على ما يقول كيلر (الص ۳۸۲). و لآخر مرة طلب الرسل من المدافعين ان يستسلموا فكان الرد بالرفض مرة أخرى. و هكذا قرر تاتيوس مهاجمة هذا المكان المقدس.

فانصب على ساحاته و أبهائه وابل متواصل من السهام و الحجارة الثقيلة، و صمد اليهود فى الدفاع كالمأخوذين على ما يذكر كيلر. و لم يتراجعوا قيد أنملة و كان فى أملهم ان يخفّ يهوه الى انجادهم فى آخر لحظة فينقذ هيكله المقدس.

و كان من الصعب تهديم الحجارة التى بنى بها هيرود الهيكل من قبل. و لأجل ان يدخل اليه الجنود بالقوة أمر تاتيوس بأن يحرق بابه الخشبى. و قبل ان يتم احتراقه كله أصدر تعليماته باطفاء النار و فتح ممر للجنود من خلاله لمهاجمة الهيكل فى الداخل. و مع ان اوامر تاتيوس كانت تحتم تحاشى تدمير البقعة المقدسة فقد تسربت النار فى الليل الى الساحة الداخلية. و اندفع الجنود فى كل مكان فجرت مجزرة مخيفة بينهم و بين المدافعين حول تلك البقعة. و قد بلغت الحماسة بأحد الجنود أن رمى مشعلا ملتهبا من شباك الذهب فى الغرف المجاورة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۸۸

لقدس الأقداس. و كانت هذه الغرف مغلفة بخشب قديم و تحتوى على مواد قابلة للاحتراق و من جملتها جرار الزيت المقدس. فالتهب كل شىء، و اندلعت ألسنة اللهيب فى كل مكان حتى احرقت قدس الأقداس و ما يحيط به، على الرغم من محاولة القائد تاتيوس إطفاء النار و إنقاذه بنفسه. حيث لم يرتدع الجنود عن نشر النار و ترويجها، و لم يكفوا عن مهاجمة كل شىء لأنهم كانوا يعتقدون بوجود الذهب فى كل مكان منه.

و فى شهر آب من سنة ۷۰ للميلاد نصب جنود الفيالق الرومانية أعلامهم فى البقعة المقدسة، و ضحوا لها. و مع ان نصف القدس كانت فى أيدى العدو، و برغم أعمدة اللهيب و الدخان التى كانت تتصاعد من الهيكل المحترق لم يشأ المتطرفون ان يستسلموا .. فتحتم على تاتيوس القائد ان يبذل فى هذه المرة أيضا كل ما كان عنده من جهد و يستغل جميع امكانياته للسيطرة التامة على المدينة بكاملها. و ما حلّ أيلول حتى تم له ما اراد و انتهت المقاومة.

فاستولى الجيش الرومانى على المدينة التى ظلت تقاوم بعناد و قوة مدة من الزمن بعد ان نهبها و قتل الكثيرين ممن ظلوا فيها. و عند ذاك أمر القائد بأن تهدم المدينة بأسرها، و ان يدّمر الهيكل الى الأرض، و لم يبق قائما سوى الأبراج الثلاثة و جزء من سور المدينة فى الجهة الغربية لتكون مقرا للحامية التى تقرر إبقاؤها.

و كان عدد قتلى اليهود عاليا بحيث لا يمكن تصوره. فقد كان فى المدينة خلال الحصار ستماية ألف نسمة. و يذكر يوسفوس ان عدد الأسرى بلغ ۰۰۰، ۹۷ أسير، غير الذين صلبوا و بقرت بطونهم، و ان عدد الجثث التى التى أخرجها اليهود من باب واحد من ابواب المدينة فقط خلال ثلاثة أشهر قد بلغ ۸۰۰، ۱۱۵ جثة.

و فى سنة ۷۱ للميلاد احتفل تاتيوس بنصره العظيم على القدس اليهودية بموكب مظفر هائل سار فى شوارع روما. و كان يسير بين السبعماية أسير

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۸۹

يهودى فى ذلك الموكب حنا الكيشالى و شمعون باركيوار و هما يرسفان فى قيود الأسر. و فى عمرة الفرح الذى استولى على روما حمل فى موكب الظفر هذا نصبان تذكاريان ثمينان من الذهب الخالص، هما الشمعدان المسبع و مائدة خبز التقدمة اللذان كانا فى هيكل القدس.

و فوق هذه الخرائب المقفرة المتجهمة التى منع اليهود و النصارى على السواء من الاقتراب اليها جاء الأمبراطور هدريان (۱۱۷- ۳۸ م) فشيد مستوطنة رومانية جديدة، سماها إيليا كابيتولينا. على أن منظر المستوطنة الأجنبية فوق هذه الأرض اليهودية المقدسة أدى الى نشوب ثورة أخرى فى البلاد، بقيادة رجل اسمه باركوكبا أى ابن الكوكب. فدعى القائد جوليوس سيفيروس من حاكميته فى بريطانية الى اليهودية فسحق آخر محاولة يائسة بذلها اليهود للحصول على حريتهم. لكن ذلك استغرق ثلاث سنوات. و عند ذاك أنشأ الامبراطور هدريان هناك «ساحة سباق» و حمامين و مسرحا كبيرا.

ثم نصب تمثال لكبير آلهة الرومان (جوبيتر) فوق خرائب الهيكل اليهودى للتشفى، و فى الموقع الذى يعتقد النصارى بأنه موقع الضريح المقدس كان الغرباء يصعدون الدرجات ليقدموا الخضوع و الطاعة فى مزار وثنى أقيم للالهة فينوس، إلهة الحب و الجمال

عند الرومان.

و قد بيع القسم الأعظم من سكان أرض الميعاد، الذين لم يقتلوا فى حرب ۶۶- ۷۰ م الدامية و ثورة ۱۳۲- ۱۳۵، بيع العبيد فى البلاد. و لم يعثر علماء الآثار و منقبوها على بيّنات ملموسة تدل على وجود الاسرائيليين فى فلسطين بعد سنة سبعين للميلاد، و لم يجد أحد حتى و لا قبرا واحدا كتبت عليه كتابة عبرية. و هدمت الكنائس كلها، و حتى بيت اللّه فى كوپرنوم الهادئة استحال الى خراب بلقع.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۹۰

بعد تدمير القدس

يذكر عدد من المؤرخين ان اليهود الذين نزحوا الى خارج فلسطين على أثر هذه النكبة، و لا سيما الذين توجهوا الى قبرص و مصر و القيروان اصطدموا فى عهد الامبراطور تروجان (۹۸- ۱۱۷) باليونانيين الوثنيين الذين كانوا فى هذه الأقاليم، و تمكنوا من قتل آلاف منهم. و كانوا يمثلون تمثيلا فظيعا بهم فيقطعون أطرافهم و يشربون دماءهم و يأكلون لحومهم. فغضب الامبراطور عليهم و أوقع فى الاسكندرية مذبحة هائلة فيهم، و كذلك فعل قواده فى قبرص كما بعث برجاله الى ليبية و بين النهرين للعمل على ذبحهم هناك أيضا.

و حينما انقسمت الامبراطورية الرومانية الى شرقية و غربية صارت فلسطين و سائر بلاد الشرق العربى تابعة للقسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية، و ممن تولى فى هذه العاصمة بعد قسطنطين، يوليانوس المرتد أو الجاحد، لأنه ارتد عن المسيحية و راح يضطهد المسيحيين و يعيد بناء المعابد الوثنية.

و كان مما فعله فى القدس انه حرض اليهود القليلين يومذاك على تجديد هيكلهم فيها، و أمدّهم بالمال و الرجال ليبرهن على كذب السيد المسيح- على حد قوله- حينما تنبأ بأنه سوف لا يقام فى الهيكل حجر على حجر بعد تدميره.

فتسارع اليهود من الخارج الى القدس و اغتنموا هذه الفرصة، لكن الروايات تقول عن بناء الهيكل ان اليهود كانوا كلما أقاموا جبهة من جبهاته تتداعى فى اليوم الثانى، و لذلك لم يتم بناء الهيكل حتى الآن.

و قد قتل يوليانوس فأحبطت خططه، و اضطهد اليهود فى القدس من جديد فى عهد جوتنيان (۵۴۱- ۵۷۹ م) فثاروا فى أيامه و قمعت ثورتهم بشدة و قسوة كذلك. و فى سنة ۶۱۵ ميلادية انتصر الفرس على الرومان و استولوا على سورية و فلسطين، فعاد اليهود الى التنمر و أخذوا ينتقمون لأنفسهم من النصارى فى القدس و سائر انحاء فلسطين التى شهدت مذابح أهلية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۹۱

كثيرة مرة أخرى. و مما يروى فى هذا الشأن ان اليهود ساعدوا الفرس على احراز الانتصار، و أنهم كانوا يشترون منهم الأسرى و يذبحونهم. و قد بلغ عدد الذين قتلوهم بهذه الطريقة حوالى مائة و تسعين الفا. و حينما انتصر هرقل على الفرس سنة ۶۲۵ م و أجلاهم عن فلسطين تسنى للنصارى ان ينتقموا من اليهود فتجددت المذابح بينهم. و هذه هى المذابح التى وقعت قبيل الفتح الاسلامى للقدس، و هى تدل على شدة كراهية النصارى الذين طغت أكثريتهم على فلسطين يومذاك و لا سيما فى القدس نفسها. و قد أدت بهم هذه الكراهية الى ان يشترطوا فى الصلح الذى عقدوه مع الخليفة عمر بن الخطاب، عندما فتح القدس، عدم سكنى اليهود فيها.

استنتاجات أساسية

يلاحظ من الخلاصات التاريخية المار ذكرها ان هناك نقاطا أساسية تختص بوجود اليهود فى فلسطين، و مقدار حقهم فيها، لا بد من أن نوردها هنا لالقاء الضوء الحقيقى على تاريخ هذه البلاد المقدسة، و ازهاق الباطل الذى أخذت الصهيونية و أنصارها فى العصر الحديث تبالغ فيه و تستند عليه فى تكوين حق تاريخى لليهود وحدهم فى البلاد الفلسطينية.

و أول ما يتبادر الى الذهن من هذه النقاط التاريخية هوان القدس، و ما يحيط بها من بلاد، لم تكن يهودية فى الأصل، و ان اليهود كانوا طارئين عليها و ظلوا غرباء عنها حتى تسنى لهم ان يحتلوها بالقوة لفترة محدودة من التاريخ. و يؤيد ذلك بلا شك الكثير مما جاء فى أسفار التوراة التى تجعل فلسطين أرضا غريبة و عدوا بها فسميت أرض الميعاد. فقد كانت تسكن فيها قبل ان يأتى اليها ابراهيم- و قبل ان يخرج اليهود مهزومين من مصر- أقوام ذات مدنية عريقة عمرت الأرض فاستغلت زرعها و معادنها، و شيدت المدن و البلاد،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۹۲

ردحا طويلا من الزمن. و كانت هذه تتألف من العشائر الكنعانية الساميّة و الشعوب العربية التى أثبتت وجودها فى مواطنها هذه خلال حقب طويلة من الأعصر التاريخية. إذ كان هناك الأموريون، و العمالقة، و المدينيون، و الأدوميون و الأنباط، و اليبوسيون، الذين بنوا مدينة القدس و اعتبروها من المدن المقدسة، و غيرهم . و قد كان الأنباط و العمالقة و الأدوميون و المدينيون و اليبوسيون من العرب المقيمين فى فلسطين. و هناك شواهد و أدلة كثيرة تبرهن على ذلك.

فمن طريف ما يشير الى عروبة الأدوميين قسم من نقوش أسر حدون الآشورى (۶۸۰- ۶۶۹) التى تنص على ما يأتى: من أدوماتو (أدوم) قلعة العرب التى كان فتحها سنحاريب ملك آشور أبى، و أخذ منها الأسلاب، و فتحتها أنا فأسرت ملكتها أفكالاتو ملكة العرب جاء حزائيل ملك العرب بهدايا كثيرة، و قبل قدمى و توسل الى لأعيد اليه التماثيل فعطفت عليه و أصلحت عطب أتار سماين، و داى، و نهى، و رولدا (رضا)، و أبيرولو، و أتاركوروما العرب و أعدتها اليه بعد ان نقشت عليها اسم سيدى آشور و قوته العليا، و اسمى .. و لما حل القضاء بحزائيل أجلست ابنه ياتا (يطيع) .. و بعد ذلك قاد وهب أو أبو (وهب) جميع العرب فى ثورة على (يطيع) و لكنى انا أسرحدون ملك آشور، ملك الأقطار الاربعة المحب للعدل .. أرسلت جنودى لنجدة (يطيع) فأخضعت جميع العرب و قدت و هبا و جنوده و حملتهم اليّ فوضعت الأطواق فى أعناقهم .. و يؤيد هذا ما يذكره المؤلف الأمريكى مونتغومرى الذى يقول ان الأدوميين كانوا عربا فى عنصريتهم، و كانت عواطفهم مع العرب . موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۹۳

و يذكر الاستاذ دروزة عن اليبوسيين (الص ۱۵۷): و ليس هنالك ما يوضح هوية اليبوسيين الذين يظهر ان ذكرهم مع الكنعانيين بسبب كونهم من أرومة أخرى نرجح أنها أرومة عربية الجنس تفرعت من إحدى الموجات التى كانت تخرج من جزيرة العرب و تطرأ على بلاد الشام، و جاءت الى عرب الأردن فاستقرت فيها قبل خروج بنى اسرائيل من مصر. و بعض النصوص يفيد ان اسم مدينتهم يبوس، و أنها هى القدس، و لعل الاسم من اسم القبيلة على ما كان يجرى عليه الأقدمون فى التسميات.

و مما أورده الدكتور جواد على كذلك (الص ۳۴۸ و ۳۴۹) استنادا الى مونتغومرى و نولدكه الألمانى ان من أسفار التوراة المهمة التى ورد فيها ذكر عدد من القبائل التى يظن أنها عربية سفر القضاة، ففيه خبر غزو قام به (المدينيون) (أهل مدين) و العمالقة و بنو «المشرق» لفلسطين الى حدود غزة. و قد قاموا بهذا الغزو فى أوائل القرن الحادى عشر قبل الميلاد. و فى القضاة ايضا ان المدينيين أذلّوا الاسرائيليين و ان الرب دفع الاسرائيليين الى أيدى المدينيين سبع سنوات .. و المدينيون و العمالقة و أبناء المشرق و هم «بنو قديم» كانوا أصحاب إبل، و هم من الأعراب على رأى كثير من العلماء.

و أورد أيضا (الص ۳۵۸) ان النبط قد ورثوا أدوم فاضحوا يسيطرون على شرايين التجارة الحساسة التى كانت تمر بأرض أدوم .. و الظاهر أنهم ذابوا فيمن ذاب من القبائل فى مملكة النبط التى انصهرت نفسها فى بوتقة أوسع، و هى بوتقة العروبة التى صهرت كل تلك العناصر، و أذابتها فى سبيكة الاسلام بعد ذلك. و قد ذاب فى هذه السبيكة عدد كبير من يهود فلسطين و جزيرة العرب، و من اندمج فيهم و تأثر بديانتهم و لا شك قبل الاسلام و بعده. فالعرب هم أحق من غيرهم إذن فى حيازة الملك. موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۹۴

اما عن عروبة الأقوام الأخرى فاكتفى بايراد رأى الدكتور جواد الذى يقول فيه: و يتبين من هذه الاشارات الواردة فى التوراة و فى

«المكابيين» و فى أماكن أخرى ان العرب كانوا فى الشام و فلسطين قرون عديدة قبل الميلاد، و أنهم كانوا من سكان تلك البلاد الاصليين. و من المؤسف حقا ان العرب الشماليين كانوا يكتبون باللغة الآرامية، و ان التوراة قصدت بالعرب فى الغالب «الأعراب». اما أهل المدن فلم تسمهم بهذا الاسم، بل سمتهم باسمائهم الخاصة او بأسماء مدنهم، فعز علينا الوصول الى معرفة هوية عرب الشام و فلسطين المتحضرين فحسبوا من الاراميين، و حسبوا على غيرهم أيضا، و شك فى أصل الآخرين لأنهم دعوا بأسمائهم، و لم يدعوا عربا لأنهم لم يكونوا أعرابا. و لو كانوا منهم لأشير الى ذلك، و لهذا لم ترد فى التوراة و فى المكابيين اشارات كثيرة اليهم، لا لأنهم لم يكونوا من أهل الشام و فلسطين، او لأنهم كانوا قلة، بل لسبب آخر معلوم مفهوم، هو انهم لم يكونوا أعرابا بل كانوا حضرا مستقرين. و لو كانت كلمة «عرب» قد خصصت فى ذلك الوقت على نحو ما خصصت له فى الوقت الحاضر لسمّوا بها من غير شك، و لتبين لنا أنهم كانوا كثرة، و أنهم كانوا هناك اصلا من الأصول (الص ۲۶۸).

و يضيف الدكتور جواد (الص ۳۴۸) الى ذلك قوله: و على كل ففى التوراة اعتراف بان اسماعيل هو ابن ابراهيم البكر، و انه ولد فى فلسطين و عاش فى برية فاران، و فى ذلك دليل على ان مواطن الاسماعيليين (أبناء اسماعيل) الأولى على رأى قدماء اليهود و التوراة هى فلسطين. و الاسماعيليون هم من العرب كما ذهب الى ذلك علماء التوراة، فهم أقدم عهدا بها من الاسرائيليين.

و النقطة الثانية التى نستنتجها هى ان هذه الأقوام السامية و العربية التى كانت موجودة فى القدس و ما حولها من بلاد فلسطين قد قاومت اليهود على مجيئهم اليها من مصر، و ظلت تقاوم دخولهم مدة تقارب الأربعين عاما. و كان العمالقة أول طبقة من سكان فلسطين قاومت العبرانيين و حاربتهم لمنعهم من الدخول

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۹۵

اليها .. فحارب العمالقة العبرانيين عند سيناء لمنعهم من اجتياز أرضهم، كما حاربوهم فى الأرضين الجنوبية من فلسطين لصدهم عن الدخول اليها عن طريق قادش. و ساعدوا المؤابيين فى دور القضاة و المدينيين فيما بعد خلال حروبهم مع العبرانيين. و حاربوهم فى أيام الملك شاؤول و فى أيام داود، فأثارت مقاومتهم العنيفة هذه للعبرانيين حقدا عنيفا فى نفوس الاسرائيليين عليهم يتجلى فيما دوّن عنهم فى أسفار التوراة . و قد قاوم اليهود و حاربهم أيضا الأدوميون، و حاولوا منعهم من الدخول الى فلسطين و المرور فى بلادهم و هم آتون من البرية الى فلسطين، بقصد الوصول الى القدس. و حاربوهم كذلك فى أيام شاؤول و من جاء بعده . ثم قاتلهم اليبوسيون على أبواب القدس للدفاع عن مدينتهم و الذبّ عنها، و استمر هذا الدفاع مدة طويلة من الزمن حتى استطاع داود التغلب على أسوارها المنيعة و كذلك حاربتهم طبقات السكان الأخرى و قاومت استيلائهم على فلسطين و الاستقرار فيها.

و على هذا فنحن، على ما يقول الدكتور جواد على، أمام جيل من العرب كان يسكن فلسطين الوسطى و فلسطين الجنوبية، و فى طور سيناء، قبل هجرة العبرانيين الى هذه البلاد، و ان هذا الجيل قد قاوم العبرانيين، و لم ينثن عنه عزمه حتى اندمج فى بقية الشعوب التى ظلت تقاوم العبرانيين، و من ذريته أبناء فلسطين الحاليون .

و هناك نقطة أخرى يشير اليها عدد من مستشرقى الغرب المعروفين من أمثال مرغليوث و مونتغومرى، و هى ان تلك الشعوب العربية التى كانت موجودة فى حوالى القدس قد أثرت تأثيرا غير يسير فى حياة اليهود و ديانتهم و لغتهم، عند ما دخلوا الى البلاد عنوة و اختلطوا بهم. فان الاصحاح الثالث من سفر الخروج يشير الى ان موسى عليه السلام حينما جاء الى مدين تزوج من صفوره ابنة يثرون (رعوئيل) كاهنها و أميرها، و ان المدينيين كانوا بصحبة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۹۶

الاسماعيليين حينما بيع يوسف لهم. و المدينيون فى رأى كثير من علماء التوراة هم من العرب، و تقع أرضهم فى بلاد العرب. و يرى البعض ان موسى تأثر بآراء يثرون هذا، و تعلم منه العبادة الجديدة التى شاعت بين العبريين و هى عبادة الاله «يهوه»، و يهوه هو إله قبائل مدين أو بعض بلاد العرب الشمالية، لا سيما و قد أقام موسى مدة غير يسيرة بين المدينيين (جواد على الص ۳۵۲).

و يقول المستشرق هيستينغز ان النبى أيوب كان عربيا كما يستدل من الطابع الذى يغلب على أسفاره. فقد عاش أيوب فى أيام حكم القضاة فى حوران أو على حدود أدوم و بلاد العرب، أو فى جزيرة العرب نفسها. و كان يسكن أرض عوص التى يرى بعضهم أنها تقع فى منطقة نجد، و يرى آخرون انها فى حوالى حوران أو فيما يقرب من فلسطين. و يشير مونتغومرى (الص ۱۷۲) الى ان من قدماء القائلين بأثر العربية فى تلك الأسفار العالم اليهودى «ابن عزرا» من رجال القرن الثانى عشر للميلاد، و تبعه عدد من الباحثين فى ذلك حتى قالوا ان تلك الأسفار كانت مترجمة عن أصل عربى. و من المتحمّسين فى الدفاع عن هذا الرأى المستشرق الانكليزى مرغليوث ، الذى درس الأسماء الواردة فى تلك الأسفار و قابلها مقابلة لغوية أيضا و يؤيده كذلك فى هذا الرأى مستشرقان أمريكيان هما فوستر و فيفر.

و لقد تكرر فى التوراة ذكر طغيان اليهود و خروجهم على رأى انبيائهم، و تماديهم فى الملذات و طرق الرذيلة من دون ان يعبأوا بنصائح رجالهم و انبيائهم. و لهذا كله أصابهم ما أصابهم من غضب اللّه و سخطه عليهم، فنكبوا و شردوا فى الأرض.

و لادراك ما يراد بهذه الأقوال يجدر بنا فى هذه المناسبة ان نورد هنا ما يذكره أحد المؤلفين الانكليز المختصين بالبحث عن الحياة الجنسية و تاريخها عند موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۹۷

الأقوام المختلفة. فيتطرق ج. راترى تيلور أولا فى كتابه (الجنس فى التاريخ) الى القانون اليهودى و شريعة موسى فيقول: و بالنسبة للتنظيمات التى تنظم السلوك الجنسى بين الناس كان القانون اليهودى يختلف عما كان عليه فى العالم اليونانى- الرومانى اختلافا غير يسير. و كان هذا القانون مستمدا من مجموعة قوانين حمورابى البابلية، لكن موسى نزل عليه الوحى الالهى فاستلهم الموافقة القدسية عليه. و قبل ان يصعد الى جبل سيناء كان «يهوه» إلاها محليا جبليا ينصرف اهتمامه الى دخاخين القرابين المحترقة فقط. و كانت الوصية الجنسية الوحيدة التى تنطوى عليها «الوصايا العشر» الوصية ضد الزنا، أو السطو على زوجة الجيران. و يجب ان يلاحظ ان الزنا فى هذه الحقبة من التاريخ كان يعتبر، كما يعتبر فى روما و عند اليونان، اعتداء على الملكية الخاصة و يعنى اغتصاب حقوق الغير فقط. و لم يقصد فى ذلك ان يقتصر المرء فى التفاته على زوجته فقط، حيث ان الحقيقة هى ان الزوجة حينما كان يثبت عمقها فى إنجاب الأولاد كانت تقدم الى زوجها جارية من جواريها لتنجب ابناء له.

و يذكر لنا التاريخ بالاضافة الى ذلك ان الرجال كانوا أحرارا فى اتخاذ العشيقات و الاحتفاظ بهن علاوة على ما عندهم من أزواج، و لم يكن هناك تحديد لعدد الزوجات عند كل رجل.

و لم يكن هناك كذلك اى حظر على العلاقات الجنسية قبل الزواج عند اليهود. و يلاحظ ان التوراة لم يكن يحرم الزنا غير التجارى و غير المتقصد كما لم يحرم اغتصاب المرأة بشرط ان يكون للوالد الحق فى المطالبة بتعويض مادى عن البكارة- و حينما تصل البنت الى الثانية عشرة و النصف من العمر تكون حرة فى ممارسة الاتصال الجنسى مع من تشاء، ما لم يمنعها أبوها منعا خاصا. و مع ان البغاء كان لا ينظر اليه بارتياح فقد كان من الأشياء الشائعة فى أورشليم، و كان عدد البغايا على درجة من الكثرة بحيث كانت لهن سوق خاصة بهن فيها. و لم يكن اللواط فى فترة ما قبل السبى جريمة يعاقب عليها القانون فى موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۹۸

اورشليم كذلك، الا اذا ارتكب باعتباره جزءا من العبادة الدينية للآلهة غير اليهودية . و يمكن الاستنتاج مما جاء فى الاصحاح التاسع عشر من سفرى التكوين و القضاة ان اللواط يعتبر شكلا طبيعيا من أشكال الغواية و الفسق، و لو كان شكلا مبتذلا و يشير الحظر المفروض فى الاصحاح الثالث و العشرين من سفر التثنية الى الشكل الدينى منه فقط، كما ان الكلمة المترجمة بمعنى اللواط فى سفر الملك جيمس من التوراة تختص بالقس الذى يعنى ببغاء الهيكل.

و الحقيقة فقد أصبحت حتى هذه المهنة شائعة فى مملكة يهوذا على عهد ملوك اليهود الأقدمين.

استيلاء العرب على بيت المقدس

اشارة

لاحظنا من بين المراجع الغربية التى تيسرت لنا ان من خير من يصف فتح العرب لبيت المقدس السرجون باكوت غلوب، العسكرى البريطانى الذى اشتغل مدة طويلة فى المملكة الأردنية الهاشمية و اطلع على تاريخ العرب و أحوالهم.

فهو يصف هذا الفتح بإيجاز فى كتابه «فتوحات العرب الكبرى» و يقول (الص ۱۸۲): فما حلّ خريف سنة ۶۳۶ م حتى كان العرب قد اكتسحوا سورية بأجمعها الى حد جبال آسية الصغرى، لكن القدس و قيصرية فى الجنوب بقيتا صامدتين فى وجههم. و كان العرب فى كلوب باشا موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۹۹

الوقت نفسه قد أنشأوا قاعدة عسكرية فى الجابية الواقعة فى منطقة الجولان، و هى منطقة متوسطة يستطيع جيشهم منها ان يدفع حركاته بسرعة فى أى اتجاه كان لاخماد الثورات و يظهر ان فكرة انشاء قواعد عسكرية كبيرة مثل هذه، فى مواضع متوسطة يمكن تركيز القوات العربية فيها، من دون ان يفسدهم الاتصال بالسكان المدنيين، تعزى فى أصلها الى الخليفة عمر بن الخطاب.

و منذ ان بدأ الاستيلاء على سورية قبل ثلاث سنوات كانت فلسطين أقليم عمرو بن العاص الخاص. و كان ينضم الى الجيش العربى الرئيسى بين حين و آخر فى أيام الشدة، مثل موقعة اليرموك، و لكن حالما كان يزول الخطر كان يعود الى منطقته الخاصة. و قد كان التاكتيك العربى، الذى جعلهم قوما لا يغلبون فى السهول المكشوفة، لا يمكن ان يطبق فى البلاد الجبلية او البلاد المغلقة.

و لذلك فطالما كانت الجيوش البيزنطية موجودة فى الميدان كان عمرو بن العاص يحصر نطاق عملياته فى سهل فلسطين الساحلى من بئر السبع الى قيصرية. على ان جيوش الميدان المعادية لم يبق لها وجود الآن. فتسلق العرب بنتيجة ذلك جبال اليهودية الصخرية، و ضربوا نطاق حصارهم على القدس. و لم يعد من المؤمّل أن يطول أمد هذا الحصار أو يتطاول بابتعاد هرقل و جيوشه الى ما وراء جبال طوروس. و قد فتح صفرونيوس بطريرك القدس باب المفاوضات مع العرب فى أواخر خريف ۶۳۷ على وجه الاحتمال، و سرعان ما تم التوصل الى الاتفاق على شروط الاستسلام. على ان صفرونيوس قد أصرّ على ان لا يسلّم المدينة الا الى الخليفة عمر بن الخطاب شخصيا. فأرسل أبو عبيدة رسالة فى هذا المضمون الى المدينة المنورة، و قرر عمر فى الحال أن يزور الجبهة السورية بنفسه.

و قد سار راكبا فى طريق القوافل الى درعة، التى تقع اليوم على الحدود الجنوبية الفاصلة بين سورية و الأردن، و هو يلبس ملابسه المرقعة البالية كالمعتاد.

لكن الخليفة المتقشف صعق حينما لاحظ ان سكان درعة قد خرجوا لاستقباله و معهم المغنيات و الراقصون بالسيوف، و الضاربات على الطبول من النساء.

و صاح من سخطه على ذلك «أوقفوهم أوقفوهم!» على ما يقول الرواة لكن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۰۰

ابا عبيدة سرعان ما بيّن له ان هذا كان من عادة أهم البلاد فى مناسبات مثل هذه، و أنهم اذا منعوا من القيام به سوف يعتقدون ان عمر ما زال على موقفه المعادى منهم. و بمثل هذه الحجج أقنع الخليفة بصعوبة على التغاضى عن هذا العبث التافه . لكن غضبه على القادة العرب كان أشد من هذا. فقد ركب ابو عبيدة و يزيد بن ابى سفيان و خالد الى الجنوب لاستقباله و هم يلبسون ملابس مقصبة ثمينة، و يمتطون خيولا مرخّتة بالعدد الغالية. فقال لهم و هو مغضب، على ما يروى، أتأتون الى و أنتم ترفلون بمثل هذه الملابس، هل تغيرتم الى هذا الحد خلال سنتين؟ إنكم جميعا تستحقون العزل بالخزى و العار. فأجاب القادة و هم مرتبكون، على ما يذكر الرواة: ان التبدل الذى تراه يا أمير المؤمنين هو تبدل فى الظاهر فقط و كشفوا عما تحت الملابس الخارجية ليروه دروعهم المزرده من تحتها. لكن الخليفة الذى كان يلبس رداء مرقعا لم يهدأ غضبه الا بصعوبة. و قد برهن المستقبل على ان مخاوفه كانت فى محلها.

و كان ينتظر عمر بن الخطاب فى القاعدة العسكرية فى الجابية وفد مرسل من البطريرك صفرونيوس، فوضعت شروط الاستسلام فى الحال. ثم ركب الخليفة الى الجنوب عبر وادى الأردن، فى الطريق العام القديم الذى يمر ببيسان و يقطع جبال السامريين الباسمة،

المغطاة بحقول القمح و الكروم و بساتين الزيتون، الى ان وصل الى المدينة المقدسة حيث استقبله فيها البطريرك حامى الكنيسة ذى اللسان المعسول. لكن صفرونيوس اذا كان لسانه قد نطق بكلمات مجاملة رقيقة، فقد كان قلبه أبعد ما يكون عن الاخلاص. و حينما كان الخليفة البدوى الحافى يمشى بملابسه الرثة حول كنيسة القيامة همس البطريرك باليونانية فى أذن أحد أتباعه يقول «هذه هى بالتأكيد فظاعة الدمار الذى تكلم عنه النبى دانيال و هو يقف فى البقعة المقدسة ».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۰۱

و قد حدث بالصدفة ان حلّ وقت صلاة الظهر حينما كان عمر بن الخطاب منشغلا فى تفقد كنيسة القيامة، و بينما كان أحد مرافقيه يهم بفرش حصيرة الصلاة على أرض الكنيسة ليقوم الخليفة بادائها منعه عن ذلك و هو يقول انه لا يحبذ ان يصلى فى هذا المكان. ثم أردف يقول «لو فعلت هذا فان المسلمين سيطالبون بجعل الكنيسة مسجدا.» و لذلك خرج من الكنيسة و صلى فى خارجها

و ما يزال يوجد مسجد صغير حتى اليوم، و قد بنى الى جانب جدار كنيسة القيامة، و هو على ما يقال يضم البقعة التى صلى فيها الخليفة صلاته تلك. و قد كانت القدس و ما تزال يقدسها المسلمون تمام التقديس، لأن محمدا علم أتباعه بالتوجه اليها عند الصلاة، كما أنه عرج الى السماء من موقع هيكلها يوم أسرى به. و يبدو ان عمر بن الخطاب قد سلك مع سكان المدينة المقدسة هذه سلوكا فيه الكثير من التواضع و المجاملة.

و اتخذ الخليفة فى أثناء هذه الزيارة الترتيبات اللازمة لادارة الأقاليم المفتوحة حديثا، ثم قسمها الى مناطق عسكرية. و فى ربيع ۶۳۸ ركب العاهل العربى البسيط حصانه من جديد الى البادية فى طريق عودته الى المدينة.

اما المؤرخ الألمانى بروكلمان فيوجز فى كتابه المعروف (تاريخ الشعوب الاسلامية) فتح بيت المقدس و يقول: و من هناك وجّه عمر خالد بن ثابت لفتح بيت المقدس التى لم تلبث ان طلبت الصلح. فتولى عمر نفسه عقد الصلح مع أهلها، و كانت شروطه رفيقة غير ثقيلة. فقد أعطاهم عمر الأمان لأنفسهم و أموالهم و كنائسهم، كما منحهم الحرية الدينية على ان يعطوا الجزية للمسلمين و على ان لا يسكن بيت المقدس معهم أحد من اليهود. و الواقع ان عمر سار بنفسه الى بيت المقدس، فدخل ساحة الهيكل المهجورة فأزال الردم بيده عن الصخرة المقدسة التى يعدها اليهود و النصارى و المسلمون جميعا منتصف الأرض، و أمر ببناء المسجد هناك.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۰۲

المسجد الاقصى

جاء فى دائرة المعارف الاسلامية قول كاتب البحث فيه، (وينسنك) إنه المسجد الذى بنى فى منطقة الهيكل فى القدس. و يعنى الاسم «الحرم الأبعد»، و قد ورد ذكره فى السورة السابعة عشرة، الآية الأولى، من القرآن الكريم «سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا».

و قد بينا فى بحثنا عن «المعراج» ان التأويل القديم يجعل هذه الآية تشير الى عروج النبى الى السماء، و يرى ان المسجد الأقصى يقصد به أحد الأماكن السماوية. على ان هذا التفسير كان لا بد من ان يفسح المجال بمرور الزمن الى تفسير آخر يشار فيه الى بيت المقدس. و لهذا التفسير علاقة باسراء النبى، و هكذا فان الجمع بين قصتى الاسراء و المعراج تتكون منه قصة رحلة النبى الليلية الى المسجد الأقصى فى بيت المقدس، و رحلته بعد ذلك من بيت المقدس الى السماوات العلى.

و لكن كيف أصبحت القدس متميزة فى هذا الشأن فى نظر مفسرى القرآن الكريم و شارحيه؟ لقد كان هذا على ما يقول الاستاذ شريك نتيجة من نتائج ميل الأسرة الأموية المالكة الى تقديس بيت المقدس على حساب أرض الاسلام المقدسة. لكن الدكتور هوروفيتز يتحدى هذا التفسير و يشكك فيه. و على كل فان القدس كانت تعتبر مكانا مقدسا فى الاسلام من أقدم الأزمنة، حيث كانت القبلة الأصلية التى، و ان تركت لتحل مكة فى محلها فقد بقيت محافظة على قدسيتها كما يمكن ان يلاحظ مثلا من إقدام عمر

على بناء المسجد فى موقع الهيكل. موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۰۳

و اسم المسجد الأقصى الآن يطلق على الأخص على المسجد الكائن فى جنوب منطقة الهيكل الذى كان فى الأصل على ما يقول البعض كنيسة من انشاء الامبراطور جستينيان. و يذكر الكتّاب العرب المتأخرون ان هذا المسجد بناه الخليفة عبد الملك (۶۵- ۸۵، ۶۸۵- ۷۰۵)، و قد يعنى هذا ان كنيسة جستنيان قد أعيد بناؤها بهذا الشكل.

اما المستشرق الانكليزى لسترانج فيذكر المسجد الأقصى فى كتابه (فلسطين فى عهد المسلمين) بتفصيل أوفى. فهو يبدأ البحث بشرح قدسية المسجد و الأسباب التى أدت اليها، و يذكر المعراج و إيراد آية الاسراء. و يقول كذلك ان الخليفة عمر بن الخطاب أمر بعد أن تسلم بيت المقدس فى سنة ۶۳۵ م (۱۴ ه) ببناء مسجد على ما كان يعتبر موقعا لهيكل النبى داود. و قد عين الموقع فى المكان الذى كان النبى عليه السلام قد صلى فيه قبل ان يعرج الى السماء، بناء على الوصف الذى سمعه منه. و يقع هذا المكان بقرب الصخرة التى أعيد اكتشاف موقعها بعد ان كانت مختفية تحت أكوام الزبل و الروث.

و كان المسجد الذى بناه الخليفة هناك بسيطا بشكله و هيأته، لأنه بنى باللبن غير المشوى و الخشب. و لذلك لم يستقم طويلا، و ربما لم يبق له أثر بعد نصف قرن من الزمن حين أمر عبد الملك بن مروان بتشييده من جديد. و كان البناء الذى شيده فى ۶۹۰ (۷۲ ه) من الحجر بناء ضخما بديع المنظر. ثم يذكر لسترانج هنا انه يبدو من المحتمل ان البناء الجديد هذا قد استعملت فيه المواد الانشائية التى كانت موجودة هناك، و هى من أنقاض كنيسة «سنت ميرى» العظيمة التى كان قد شيدها من قبل الامبراطور جستنيان الرومانى فى الموقع نفسه تقريبا سنة ۵۶۰ فأحرقها خسرو الثانى ملك الفرس سنة ۶۱۴، حينما موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۰۴

شن حملته الكبيرة على سورية فأدت الى تدمير معظم المبانى المسيحية المهمة فى البلاد المقدسة.

و يورد لسترانج كذلك فى حاشية من حواشى بحثه رواية أخرى فى هذا الشأن، نقلها عن المؤرخ البيزنطى المعروف ثيوفانس، الموسوم باسم «كرونو غرافيا ». و هو إذ يوردها يقول إنها أقدم ذكر لخبر بناء المسجد الذى أمر عمر، لأن أقدم من يذكر الخبر من العرب هو المقدسى فى سنة ۹۸۵ م.

فيقول ثيوفانس عن أخبار سنة ۵۲۴ م ان عمر بدأ باعادة بناء الهيكل المقدس (كذا)، لأن بناءه فى الحقيقة لم يبق له وجود بعد ان أصبح انقاضا و خرائب.

و حينما سأل عمر أهالى بيت المقدس عن السبب أجابه اليهود بقولهم «انك اذا لم تهدم الصليب القائم على جبل الزيتون فان بناء الهيكل لن يمكن بقاؤه ثابت الأسس و الأركان. و عند ذاك هدم عمر الصليب فى مكانه لأجل ان يمكن بناء الهيكل على أسس متينة. و للسبب نفسه هدمت صلبان كثيرة فى أماكن أخرى ..

و لا شك ان قول اليهود هذا إن صح ففيه دس و خبث، كما ان رواية ثيوفانس (التى نرجح زيفها) و لهجتها الأصلية ظاهرة التحيز و التعصب الى آخر حد، لا سيما ما يختص منها بتهديم الصلبان لأن التساهل الذى أبداه المسلمون و الخليفة عمر بالذات مع النصارى عند فتح بيت المقدس يدحض ذلك. و هذا ما يعترف به المؤرخون الغربيون أجمع. يضاف الى ذلك أن الخليفة عمر أمر ببناء المسجد الأقصى لا الهيكل اليهودى المزعوم.

و يذكر لسترانج أيضا ان زلزالا يقال انه وقع فى سنة ۷۴۶ (۱۳۰ ه) فهدم قسما كبيرا من المسجد الأقصى الذى بنى فى عهد الملك. ثم يورد فى هذا المقام رواية استقاها من مخطوطة «مثير الغرام فى وصف البلد الحرام» العربية، و خلاصة ما فى الرواية المسندة الى عبد الرحمن بن محمد بن ثابت،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۰۵

عن أبيه الذى رواها عن أبيه و جدّه، أن أبواب المسجد فى أيام عبد الملك كانت مغطاة كلها بصفائح ذهب و فضة و لكن الجناحان الشرقى و الغربى من المسجد تهدما فى أيام المنصور الخليفة العباسى. و حينما فوتح المنصور باعادة بناء القسم المتهدم و توسيع

المسجد أجابهم بأنه نظرا لعدم وجود المال فى الخزانة العامة يومذاك، فعليهم أن يقلعوا صفائح الذهب و الفضة و يستعملوها فى سكّ العملة المطلوبة للبناء، ففعلوا ذلك و أكملوا البناء و كان ذلك فى سنة ۱۵۴ ه (۷۷۱ م) على الأرجح.

ثم حدث زلزال آخر فقوّض هذا البناء من جديد، و حينما تولى الخليفة المهدى بعده كان المسجد فى حالة خراب فأمر ببنائه. لكنه أمر كذلك بتوسيعه لأنه كان طويلا ضيقا فى السابق، فأجريت التوسيعات المطلوبة فيه، و كان ذلك ما يعتقد فى سنة ۷۶۰ م (۱۶۳ ه) التى توجه فيها المهدى الى بيت المقدس و صلى فيه. و قبيل ان يصف المقدسى المؤرخ المسجد الأقصى فى سنة ۹۸۵ م أنشأ فيه عبد اللّه بن طاهر رواقا ذى أعمدة. و كان وصف المقدسى له فى أيام الخليفة الفاطمى العزيز باللّه فى مصر. ثم يقول لسترانج ان وصف الرحالة ناصر خسرو لبيت المقدس فى سنة ۱۰۴۷ (أى بعد ۶۲ سنة) هو مطابق لوصف المقدسى. و هذان الوصفان معا يعطياننا فكرة واضحة عن المسجد الأقصى قبل ان يستولى الصليبيون على بيت المقدس.

و مما يذكره لسترانج كذلك نقلا عن المقدسى ان عددا من الزلازل وقع فى سورية و مصر بين سنتى ۴۰۷ و ۴۲۵ للهجرة، فوقعت فى ۴۰۷ قبة الصخرة فوق الصخرة نفسها، و تهدمت مدينة الرملة فى سنة ۴۲۵ (حوالى ثلثها)، ثم تهدم الجدار الخارجى من منطقة الحرم القدسى فأعيد بناؤه و بناء الصخرة بأمر من الظاهر الخليفة الفاطمى فى مصر.

و فى ۱۴ تموز سنة ۱۰۹۹ استولى الصليبيون بقيادة غودفرى دوبويون على بيت المقدس، فأعطيت منطقة الحرم الشريف الى الداوية أو فرسان الهيكل، فأحدثوا تغييرات غير يسيرة فى المسجد الأقصى و أقسام الحرم المجاورة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۰۶

لكنهم تركوا قبة الصخرة من دون أن يعبثوا بها. فقد شيدوا فى غرب المسجد الاقصى بامتداد السور الجنوبى لمنطقة الحرم مستودع أسلحتهم، أى فى موقع الرواق الذى أشرنا اليه. و وصفه ناصر خسرو، و فى أسس زاوية الحرم الجنوبية الشرقية الى غرب مهد السيد المسيح بنوا اصطبلات خيولهم.

و حينما استرد صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس من الأفرنج فى سنة ۱۱۸۷ أعيد إصلاح و ترميم منطقة الحرم بأجمعها (يراجع من أجل هذا الجزء التاسع من ابن الأثير). و يقول لسترانج كذلك ان المؤرخين العرب لا يذكرون تفصيلات ما جرى من تعمير فى المسجد الأقصى بعد ان استرد صلاح الدين بيت المقدس حتى جاء مجير الدين فى ۱۴۹۶ فذكر فى- أنس الجليل- ان السور الجنوبى لمنطقة الحرم بالقرب من محراب داود أعاد بناءه سلطان مصر المملوك محمد بن قلاوون الذى حكم من ۱۳۱۰ الى ۱۳۴۱ م. و أمر كذلك بتبليط الطرف الجنوبى من المسجد بالمرمر و فتح شباكين فى الجدار الجنوبى الى يمين المحراب الكبير و شماله. و يظهر ان المسجد الأقصى لم يكن يختلف فى أيامه كثيرا عما هو عليه اليوم (كتب لسترانج هذا فى ۱۸۹۰).

هذا و قد كتب المستشرق الأنكليزى كريسويل خبير فن العمارة الأسلامية فى كتابه المعروف فصلا موجزا ايضا عن المسجد الأقصى نورد فيما يأتى ترجمة: يبدأ كريسويل بالتساؤل عن المدة التى استقام فيها بناء المسجد الذى شيده الوليد، و الظاهر انه يعتقد ان الذى شيّد المسجد الأقصى، بعد البناء البسيط الذى أمر ببنائه عمر بن الخطاب، هو الوليد بن عبد الملك و ليس اباه عبد الملك بن مروان كما يذكر معظم المؤرخين. ثم يقول انه يبدو ان ذلك البناء قد دمّر تدميرا غير يسير فى الزلزال الكبير الذى وقع سنة ۷۴۷ أو ۷۴۸ لكن أول ذكر لأعادة بنائه ورد فى كتاب متأخر يعرف بالمثير- و لعله يقصد موسوعة العتبات المقدسة ؛ ج۵ ؛ ص۱۰۶ موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۰۷

كتاب مثير الغرام المشار اليه قبل هذا- و قد كتب سنة ۱۳۵۱. و يعزو هذا إعادة التعمير الى المنصور. و يذكر الكتاب نفسه ان زلزالا آخر وقع بعد بضع سنوات و أعاد بناء القسم المتهدم من المسجد الأقصى فيه الخليفة المهدى و لا يسعنى أن أشعر بأن هذين الزلزالين هما عبارة عن زلزال واحد، و هو المذكور أولا. ثم يتابع كريسويل قوله بأن المسجد أعيد بناؤه بشكل أضخم و أمتن مما كان عليه من قبل، و لكن القسم القديم غير المتهدم منه أبقى فى وسط المبنى الجديد كأنه شامة فيه. و هذا يمتد الى حد أعمدة الرخام، و من

بعدها يبدأ القسم الجديد. و لم يذكر أى الخلفاء أمر بالتعمير و لكن صاحب كتاب المثير يقول ان الخليفة المهدى هو الذى فعل ذلك. اما السنة التى تم فيها فيعتقد لسترانج أنها سنة ۱۶۳ ه (۷۸۰) لأن الطبرى يذكر أن المهدى هو ذهب فى تلك السنة الى بيت المقدس فصلى فى المسجد الأقصى.

و نورد هنا الوصف الوحيد الذى يتيسر لدينا عن المسجد بشكله ذاك، و هو وصف المقدسى نفسه الذى يقول:

ان الحرم له ستة و عشرون بابا، و يسمى الباب المقابل للمحراب باب النحاس الكبير .. و الى يمينه توجد سبعة أبواب كبرى أيضا، و سبعة ابواب مثلها فى الجهة الشمالية. و هناك فى الجهة الشرقية احد عشر بابا غير مزخرف ..

و يغطى القسم الأوسط من الحرم سقف ذو جملون كبير تعلو فوقه قبة جميلة.

و تغلف السطوح فى كل مكان بطبقة من الرصاص.

فكيف كان شكل هذا المسجد يا ترى؟ لنترك هذا السؤال مؤقتا و نتابع تاريخ المبنى فى سيره. فقد حصل زلزال فى سنة ۱۰۳۳ فهدم المسجد تهديما استدعى ان يقوم الظاهر الخليفة الفاطمى بأعادة بنائه سنة ۱۰۳۵ م، و كثيرا ما كان المسجد الأقصى بشكله الحالى يعتبر من إنشاء الصليبيين و صلاح الدين، لكن هذا رأى مغلوط لأن القسم الأعظم من بناء الخليفة الظاهر ما زال موجودا فان المعمار التركى المقتدر المرحوم كمال الدين الذى أجرى ترميمات فى المسجد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۰۸

بين سنتى ۱۹۲۴ و ۱۹۲۷ قد أماط اللثام عن تفصيلات كثيرة فى البناء تبرهن على ما نقول:

۱- لقد أزال الجص عن سطح العقد الشمالى الذى يحمل القبة فكشف بذلك عن زخرف بديع بالفسيفساء المزجج يتألف من لفائف كبيرة من نبات شوكة اليهود (أكانتوس) تعلوها كتابة طويلة بالكوفى، تحت عوارض السقف مباشرة، يرد فيها اسم الخليفة الظاهر الفاطمى. و هذا يبرهن على ان العقد الكبير الذى يحمل القبة لا يمكن ان يتأخر بناؤه عن ۱۰۳۵ م.

۲- لقد أزال جزئيا غطاء الرصاص من حافة القبة الخشبية السفلى. و تميل هذه الحافة السفلى قليلا الى الخارج لتدفع عن البناء ماء المطر أو الوفر. و تبقى محافظة على شكلها هذا بسلسلة من العارضات البارزة الى الخارج كما هو الحال تماما فى قبة الصخرة حيث تخرج العارضات بمقدار ۸۵ سنتمترا فى مقابل ۷۵ فقط فى الأقصى (۵، ۳۳ مقابل ۵، ۲۰ بوصة). و كان من حسن حظى، على ما يقول كريسويل، ان أرى هذه العارضات مكشوفة للعيان، فكان معظمها قد نخره الدود، لكن القليل منها الذى بقى سالما تقريبا كما كان محفورا بزخرفة فاطمية. و يبرهن هذا على ان اسطوانة القبة لا يمكن ان تتأخر عن زمن الظاهر، و كذلك العقود الأربعة التى تحمل القبة لا العقد الموجود تحت القبة فقط.

۳- إن جميع عقود المسجد تسند بعارضات ذات شدتين، و قد دقت بالمسامير فى الجانب الأسفل من كل زوج لوحة سميكة عليها زخرف منقوش بالدهان. و كان هذا يختفى وراء غلاف خشبى ازيل عنه فى عشر أو اثنتى عشرة حالة. فكانت إحدى الشدات تحمل نطاقا من كتابة القرن الحادى عشر الكوفية. و لذلك فان الأقواس القريبة من القبة لا يمكن ان يتأخر زمنها عن زمن الظاهر كذلك. و تنطبق نفس الملاحظة هذه على شدّة العارضة الأولى التى تلى القبة فى كل جهة من جهتى الرواق الوسطى.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۰۹

۴- كان سقف المصلى يتألف (الى زمن متأخر). من عوارض سقفية متقاربة تقاربا غير يسير تستند الى أفاريز مسطحة بحجمين، يبلغ عرض بعضها ۳۵ سم و طولها تسعين (۷۵، ۱۳ فى ۲۵، ۴۳). و هى مزخرفة بزخارف محفورة من النادر ان يتأخر عصرها عن القرن الثامن. و المفروض أنها أخذت من المسجد الذى بناه المهدى و استخدمت فى البناء مجددا.

و الآن دعنا نعود الى المخطط (التصميم) فنفحصه. اننا نجد ان هناك خطا من أعمدة جسيمة مدورة ما تزال سالمة شرقى رواق المصلى على مسافة ۱۰، ۷ م منه. و هناك عمود آخر من مثل هذه فى الرواق التالى الممتد الى الشرق. اما القسم المحمول على

أعمدة من الرخام فقد بقى فيه رواقان مقنطران يمتدان فى شرق القبة و غربها مع جزء ثالث فى الجهة الشرقية. و نلاحظ كذلك ان العقود الشمالية و الجنوبية التى تحمل القبة تستمر فى امتدادها شرقا و غربا، لأجل أن تحمل قوتها الدافعة الى الجدران الجانبية، و هكذا تكوّن مخططا بشكل

T

على الورق و ليس فى الحقيقة و الواقع، لأن جميع الأروقة المقنطرة تستمر الى حد جدار القبلة.

و على هذا يتضح ان قسما كبيرا من المسجد الحالى هو من تشييد الخليفة الظاهر الفاطمى، أى عقود الرواق الأوسط و أربعة عقود تحت القبة و الأسطوانة الى حافتها العليا، و عقد آخر شرقى عقد المصلى، و الأروقة الكائنة فى يسار العقد الشرقى الذى يحمل القبة، مع رواقين يقابلانها فى الجهة المقابلة.

شكل مسجد الظاهر- ان الحد الشمالى لبناء المسجد الذى شيده الظاهر لا بد من أنه كان على نفس ما هو عليه اليوم، لأن مدخلين من المداخل الثلاثة الموجودة فى الوسط يجب ان يكون تاريخها، بالنسبة للزخرف الموجود فيها، غير متأخر عن القرن الثامن. و فيما يأتى أدوّن استنتاجاتى العامة (القول لكريسويل) فى هذا الشأن:

۱- إن قسما كبيرا من المسجد الأقصى الحالى هو من تشييد الظاهر الفاطمى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۱۰

۲- ان مسجده كان يتألف من سبعة أروقة متكونة من عقود تتعامد مع جدران القبلة، و تتألف كلها الا العقدين الوسطيين من أحد عشر قوسا.

۳- لقد كان الرواق الأوسط يبلغ ضعف الأروقة الأخرى فى عرضه تقريبا (۸۰، ۱۱ مقابل ۵۰، ۶ متر و ۷۵ ۳ مقابل ۲۵، ۲۱ قدم). و كان له فى أعلاه منور، و كانت الفسح السبع الأولى بين الأعمدة مغطاة بسقف جملونى الشكل توجد فوقه قبة خشبية كبيرة.

۴- كانت العقود المستعرضة التى تحمل القبة تمتد الى الجدران الجانبية نظرا لما تقتضيه قوة الحمل الدافعة فيها.

۵- كانت الأروقة الجانبية تغطيها سقوف جملونية الشكل فى مستوى أخفض من مستوى الجملون الكبير و موازية له.

۶- و انى ميّال (يقول كريسويل) الى الاعتقاد بان هذا المسجد لم يكن أعرض من بناية المسجد الحالية.

تكوين جامع المهدى- و لنعد الآن الى وصف المقدسى. فليس هناك احد لا يستطيع الالتفات الى الشبه الموجود فى الخصائص الرئيسة التى لاحظها فى المسجد و الخصائص البارزة فى مسجد الظاهر، اى المدخل الكبير الأوسط مع المداخل السبعة الأصغر عن اليمين و عن الشمال، و السقف الجملونى الكبير فوق القسم الأوسط من المصلى مع القبة الجميلة المرتفعة فوقه، و السطح المغلف بالرصاص.

و لكن هناك أشياء أكثر من هذه. فقد لاحظنا ان الأعمدة هى بحجمين، إذ يبلغ قطر الأعمدة فى المصلى و شرقيه حوالى تسعين سنتمترا (۳ اقدام) بالمعدل. غير ان هذه لا تعد أعمدة قط، لأنها حينما أزيل عنها الجص وجد أنها مبنية بسوف من الحجارة. و هذا ما يذكرنا فى الحال بكلمات المقدسى حينما وصف مسجد المهدى و قال «ان الأقسام القديمة منه قد بقيت، حتى أصبحت كأنها شامة فى وسط العمران الجديد». و يمتد هذا القسم الى حد أعمدة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۱۱

الرخام، و لا يبدأ القسم المتأخر الا حيث تنتهى «الأعمدة المبنية».

و هكذا فان جامع المهدى كان قسم منه مشيدا على أعمدة و قسم آخر على أساطين مدورة، كما فى المسجد الحالى تماما، و كان القسم الأوسط منه مغطى بسقف جملونى جسيم ترتفع فوقه قبة جميلة. يضاف الى ذلك ان الرواق الاوسط الكبير و الرواقين الى يمينه و شماله لا بد من أن عرضها قد كان بمقدار عرضها الحالى لأن محاورها تتعين بالمداخل الوسطى الثلاثة، التى لا يمكن ان يتأخر

زمن اثنين منها عن القرن الثامن. و ليس من العجيب أن يكون عدد الأبواب فى الجهة الشرقية من مسجد المهدى، و هى احد عشر، مساويا بالتمام لعدد الأقواس فى العقود الحالية. أفلا يدل هذا اذن على ان عقود مسجد المهدى كانت تتألف من أحد عشر قوسا؟ و اذا ما أخذت جميع هذه النقاط بنظر الاعتبار فان الاستنتاج الواضح لكل ذلك يكون منطويا فى ان الظاهر الفاطمى احترم مخطط المهدى و أخذه فى الاعتبار، فترك الأساطين المدورة بالحالة التى كانت عليها و أعاد تشييد كل شىء على النمط نفسه. كما ان عرض مسجد المهدى لا بد من أنه كان يبلغ ۸۰، ۱۱ (من مركز إلى مركز) بالنسبة للرواق الأوسط، زائدا ۵۰، ۶- ۱۴ م للأروقة الأربعة عشر المقابلة للأبواب الأربعة عشر الأصغر فى حجمها، فيساوى المجموع ۸۰، ۱۰۲ م. و لما كان الطول من الشمال إلى الجنوب، بالنسبة للقياس الداخلى، ۲۰، ۶۹ م (۲۳۰ قدم) تكون النسبة بالضبط تقريبا ۳: ۲، و هى نسبة ملائمة فى فن العمارة العباسى، مثل أبنية المنصور فى بغداد و الأخيضر و فى سامرا فى القرن التالى. و لا شك ان وجود خمسة عشر رواقا يعنى إضافة أربعة أروقة فى كل جهة من جهتى المسجد الحالى. و ليس من الصدفة الغريبة ان توجد فى الملحق الصغير من الناحية الشرقية، المسمى جامع عمر، أربع فسحات و يكون معدل عرضها ۷۵، ۶ م (۲۲ قدما) على وجه التقريب. و لذلك فان الجهة الشرقية من الملحق هذا تقابل الجهة الشرقية فى مسجد الهادى اذا ما أعيد تكوينه كما يقترح، و تكون الأساطين الجدارية الكائنة فى الجهة الجنوبية من هذا الملحق على محور الأساطين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۱۲

الجدارية التى يتطلبها تطبيق نظريتى هذه تقريبا.

حوامل الأفاريز الخشبية- تكون حوامل الأفاريز هذه، التى تتصل بالعارضات السقفية من الطرفين بحجمين كما ذكر من قبل. و هما يعودان الى زمن أقدم بكثير من زمن الظاهر الفاطمى، و اعتقد انهما من حوامل الأفاريز التى كانت فى مسجد المهدى. و حينما نشرت انا صورتيهما فى مجلة «أخبار لندن المصورة» الصادرة فى ۱۶ كانون الثانى ۱۹۳۷ اعتقد عدد من النقاد انهما كانا من طراز حوامل الأفاريز الأموية. اما أنا فقد عزوتهما الى أيام المهدى بالنظر لحيوية الفن الهيلينستى و بقائه فى سورية الى ما بعد انقراضه فى البلاد الأخرى بكثير .. و نحن نرى الآن من الملاحظات و التنقيبات التى أجريت تحت الأرضية الحالية خلال عملية تجديد ما يقرب من ثلث بناء المسجد الأقصى فى سنة ۱۹۳۸- ۱۹۴۲ ان المسجد لم يكن له رواق أوسط عريض قبل أيام المهدى، و لذلك لم تكن هناك حاجة لحوامل الأفاريز العريضة التى تبلغ ستين الى مائة و عشرة سنتمترات فى حجمها (۶، ۲۳ فى ۷، ۴۳ بوصة).

المسجد الاقصى الاموى- و يصح بالضرورة من الوصف الذى أورده المقدسى بأن مسجدا أقدم، بعقود تستند الى أعمدة من الرخام و تمتد من الشمال إلى الجنوب، كان قد أدخل فى المسجد الأقصى الذى شيده المهدى. و لا تزال هذه العقود موجودة فى شرق و غرب القسم الذى تغطيه القبة.

و حينما أدخلت القبة فى البناء كان من الضرورى تهيئة دعامات من الشرق و الغرب بجعل عقود مستعرضة تمتد الى الجدران الجانبية، و تتألف من سلسلة من الاقواس التى تستند الى مساند مستقلة توضع فى كلا جانبى العمود المقابل للعقود الطويلة، فتنحشك العقود القديمة ما بين الأقواس المستعرضة الجديدة. موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۱۳

ففى أثناء العمل الذى تم فى ۱۹۳۸- ۱۹۴۲ استطاع هاملتون حينما أزاح الجص ان يلاحظ بأن بناء سبندلات الأقواس المستعرضة غير مرتبط ببناء سبندلات العقد الطولى الأول الموجود فى شرقى القبة . و لا ينطبق هذا على العقد الثانى لأن الأقواس المستعرضة تنشأ هنا من نفس الدعامة التى تنشأ منها الأقواس فى الشمال و الجنوب. و لذلك فقد استنتجت بأن هذا القسم قد تأثر بالزلزال أكثر من غيره و أعيد بناؤه من قبل المهدى العباسى. و لا يزال هناك فى الجهة الشرقية الأبعد عقد ثالث داخل جزئيا فى الجدار.

.. و قد تم التوصل الى اكتشاف آخر تحت التبليط حينما أزيل قسم منه.

فقد وجد قسم من جدار شمالى أقدم يبلغ ارتفاعه سافا واحدا فى بعض الأماكن و لوحظ امتداده الى ما يزيد على ۱۸ مترا (۵۹ قدما).

و كـان يبلغ سـمكه مترا واحـدا (۲۵، ۳ قـدما) و كـانت جبهته الجنوبيـة على بعـد ۴۰، ۱۸ مـترا (۶۰ قـدما) من الجهـة الداخلية للجدار الشـمالى الحالى. و على هـذا فان المسـجد الأقـدم، و هو الأموى على ما يفترض، كان يبلغ طوله من الشـمال الى الجنوب ۸۰، ۵۰ مترا (۱۶۷ قدما) فقط بدلا من ۲۰، ۶۹ (۲۲۷ قدما)، لكن عرضه لا يمكن تعيينه.

قبة الصخرة

جاء فى دائرة المعارف الاسلامية ان قبة الصخرة هى القبة المعروفة فى القدس، التى تسمى خطأ فى بعض الأحيان بجامع عمر. فهى فى الدرجـة الأولى ليست جامعا و انما هى مزار أو مصـلى مشـيد فوق الصـخرة المقدسـة و حولها شبيه بالأبنية المقببة المنتشـرة فى منطقة الحرم. و لم تكن فى الدرجة الثانية مما شيده

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۱۴

عمر من الأبنيـة بل كانت من تشـييد الخليفـة الأموى الخامس عبـد الملك بن مروان و يقـدس الصـخرة هـذه المسـلمون و النصارى و اليهود على سواء فيعتبرونها محور ارتفاع العام. حتى ليقال انها أقرب الى السـماء من أية بقعة أخرى بمقدار ثمانية عشـر ميلا. و يجعلها المسلمون تلى الكعبة فى قدسيتها.

و مع ان الصـخرة لم يرد لها ذكر فى العهـد القـديم فقـد ورد ذكرها فى التلمود و الترجومـة. لكن الأحاديث الاسـلامية قد كبرت هذه المادة الاسـطورية و ضـخمتها جميعها. و مما تقوله ان الملائكة زاروا الصـخرة قبل خلق آدم بألفى سـنة، و استوى فلك نوح عليها بعد الطوفان. و يقال انها صخرة من صخور الجنة بالفعل، و سينفخ هنا فى يوم الحشر اسرافيل الملك صورة الأخير. و قبل ان يحصل ذلك ستأتى الكعبة من مكة عروسا تتهادى مزفوفة إلى الصخرة.

و يجزمون بأنها ترتكز على نخلة سوف تقوم عاصـية امرأة فرعون، و مريم أخت موسى، بتزويد المؤمنين فى ظلها بنشقة باردة من أنهر الجنـة، و المعتقـد ان جميع مياه الأرض الحلوة قـد نشأت من مكان ما تحتها. و يقول آخرون ان الصـخرة معلقـة بين السـماء و الأرض بمعجزة، و لما كانت هذه العجيبة أغرب من أن تصدقها العيون البشرية فقد أخفيت عن قصد بالمبنى الذى يحيط بها.

و فى أسـفل الصـخرة مغارة يسـمع من قاعها عندما تقع قدم الماشـى عليها صوت أجوف يشـير إلى وجود كهف تحتها، أو ربما بئر، و هى ما يسمى ببئر الأرواح حيث تجتمع- على ما يعتقد- الأرواح الراحلة عن هذا العالم مرتين فى الاسبوع.

و لا شك ان تجويف الجـدران و المساحة هذا هو الذى نشأت عنه اسـطورة تعلق الصـخرة فى وسط الهواء. و يقول الحديث ان جميع أنبياء اللّه سـبحانه و تعالى الى حد النبى محمد (ع) كانوا قد صـلوا على هذه الصخرة التى يحيط بها كل يوم حرس ملائكى مؤلف من سبعين ألف ملك. و يقال ان اللّه عز و جل أمر موسـى بأن يضع الصـخرة فى موضع القبلة، و كان فى نية محمد ان يفعل الشـىء نفسه لكن اللّه أوحى له أن يجعل القبلة نحو الكعبة فى مكة المكرمة، و قد حصل هذا التغيير فى رجب من السنة الثانية للهجرة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۱۵

و حينما فتح عمر بيت المقدس وجد الصخرة مغطاة بالقذارة بحالة مزرية.

فأمر بأن يقوم الأنباط بازالة هذه الأقذار، و بعد أن طهّرت الصخرة ثلاث زخات قوية من المطر، صلى فوقها. و فى سنة ۶۹- ۷۲ (۶۸۸- ۶۹۱) بنى عبد الملك بن مروان قبة الصـخرة، و كان السـبب المباشـر لذلك الحالة السياسـية فى تلك الأيام. فقد آثر سكان الحرمين، مكـة و المدينـة، الانحيـاز إلى منـافس عبـد الملك فى الخلافـة عبـد اللّه بن الزبير. و لما كان عبـد الملك يخشـى من أن يعود رعاياه الفلسـطينيون من حجهم إلى مكـة فى تلك الأيام و هم ملقحون بروح الثورة عزم على انتهاج خطة يحوّل فيها حجاج مكة من الذهاب الى المنطقة الثائرة و يوجههم بدلا عنها الى بيت المقدس. و بعد أن جس نبض الناس بنشر مناشير تنص على عزمه هذا، و بعد ان قوبل ذلك بالتأييد الحار (كذا) مضـى فى تنفيذ فكرته و وضع مشـروعه فى حيز التنفيذ، و هو تزيين القدس بالأبنية الدينية المفخمة . و بعد

هذا أعلن لرعاياه قوله «ستكون هذه الصخرة لكم بمثابة الكعبة»، و يستند فى هذه الجملة على المؤرخ العربى اليعقوبى. و لتلافى مصروفات هذه البناية يقال انه خصص لها خراج مصر لمدة سبع سنوات، و أمر بأن تكون الخزانة التى يصرف منها تشييد قبة الصخرة فى مبنى صغير خاص خططه فى جوار موقع القبة، و يعرف اليوم بقبة السلسلة. و قد راق نظره هذا المبنى بحيث أمر بأن يكون مبنى قبة الصخرة على غراره. و كانت الصخرة يومذاك محاطة بمشبك من العاج و ستائر مقصبة. و فى هذا الوقت علقت أيضا درة ثمينة، مع قرون كبش ابراهيم، و تاج خسرو، فى السلسلة المعلقة فى أواسط القبة. و حينما استولى العباسيون على الحكم انتقلت هذه المعلقات إلى الكعبة . و قد كانت البناية فى تلك الأيام مضخمة بالروائح و العطور بحيث موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۱۶

ان المرء الذى كان يزورها و يخرج منها يبقى العطر عالقا فيه فيعرف بأنه كان فيها.

و السبب الآخر الذى جعل عبد الملك يقدم على تشييد قبة الصخرة يذكره المقدسى. و يقول ان الخليفة لاحظ قبة كنيسة القيامة و بهاءها، خوفا من أن يؤثر ذلك فى نفوس المسلمين و أنظارهم شيد القبة فوق الصخرة لتضاهيها و قد كان هناك اختلاف خلال مدة من الزمن حول المؤسس الحقيقى و البانى لقبة الصخرة. حيث كان يبدو أنها أبدع مما يمكن أن يحققه العرب (كذا) فكان فيرغوسن يقول انها من صنع المعماريين البيزنطيين فى أيام الامبراطور قسطنطين و انها كانت تدل على موقع الضريح المقدس. لكن كوندر كان أبرز المعارضين لهذا الرأى. و لا شك ان عبد الملك استعان بالمعماريين اليونان فى البناء، و كان يتيسر عدد غير قليل من الأعمدة اليونانية و التيجان بين أنقاض الكنائس التى هدمها الايرانيون، مما يمكن إدخالها فى ضمن البناء بسهولة.

و لذلك فان حجة فيرغوسن تناقض أدلة المؤرخين العرب عدا كونها على جانب من الخطأ.

و يدل على ان قبة الصخرة شيدها عبد الملك هو وجود الكتابة الكوفية المشهورة بالخط الأصفر فى خلفية من الموزاييك الأزرق فوق الكورنيش المحيط بقاعدة القبة. و تنص على ان: «بنى هذه القبة عبد اللّه عبد الملك أمير المؤمنين فى سنة اثنتين و سبعين» و حينما رمم البناء فى عهد المأمون العباسى سنة ۸۳۱ م ..

و بنى الجدار المثمن أزيلت بعض البلاطات و استبدلت بغيرها و هى تحمل اسم المأمون. لكن التزوير اكتشف بسهولة لأن موزاييك البلاطات لجديدة أعمق فى لونه الأزرق و الحروف المكتوبة فوق أكثر تحاشكا و تقاربا.

و تاريخ قبة الصخرة معروف معرفة غير يسيرة فى الأدبيات التاريخية. فقد تطلب الأمر ان يعاد ترميمها و تجديدها عدة مرات فى القرون التالية. ففى ۱۰۹۹ دخل الصليبيون الى القدس فوهب بالدوين الثانى مبنى القبة إلى فرسان الهيكل لتصبح كنيسة لهم. فأعيد تزيينها من الداخل و الخارج برسوم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۱۷

نصرانية و صور لقديسين. و نصب مذبح من الرخام على الصخرة و صليب ذهب كبير فى أعلى القبة، كما نصبت شبكة حديد كبيرة ذات أربع بوابات من صنع الفرنسيين ما بين أعمدة الدائرة الداخلية. و قلبت المغارة فى أسفل إلى مصلى، إذ كانوا يعتقدون بأنها قدس الأقداس فسموها «الكونفسيو». و هكذا أصبح المبنى نموذجا للكنائس التى ظل يبنيها فرسان الهيكل فى أوربا، و صارت القبة رمزا لهذه الطريقة الرهبانية فأخذت تظهر فى ختم «السيد الأعظم». و فى الصورة التى رسمها الرسام الشهير رافائيل بعنوان «زواج العذراء» يبدو مبنى مضلعا يذكر بقبة الصخرة ليرمز الى معبد يهودى.

و فى ۱۱۸۷ استعاد صلاح الدين الأيوبى المدينة المقدسة و أزال جميع الاضافات المسيحية من مبنى القبة. و توجد فى داخلها كتابة كتبها صلاح الدين لتسجل تجديده لها. و قد حصلت عدة تجديدات و ترميمات منذ ذلك التاريخ أيضا.

أما البناية فهى على شكل مثمن منتظم يبلغ طول ضلعها ستة و ستين قدما، كما يبلغ طول القطر من الداخل مائة و اثنتين و خمسين قدما، و قطر القبة من قاعدتها ستة و ستين قدما. و ترتفع القبة الى تسعة و تسعين قدما، و هى من الخشب المغطى من الخارج بالرصاص و من الداخل بالزخرف الجصى المذهب و المزين بالزينة الغنية. و تكوّن الآيات القرآنية المكتوبة كتابة متداخلة جميلة

أفريزا حول المبنى. و تحيط بالصخرة من الداخل أربع اسطوانات جسيمة و اثنا عشر عمودا من الوسط. و على هذه كلها ترتكز القبة. هذا و يبلغ طول الصخرة نفسها ستة و خمسين قدما و عرضها أربعة و أربعين و هى تكاد تكوّن نصف دائرة فى شكلها، و يقع الجانب المّقوس من الجهة الشرقية و الجانب الأعلى المستقيم من الغرب. و تكوّن من الناحية الجيولوجية جزءا من الطبقات الصلبة الرمادية التى تتكون منها هضبة القدس، و قد أبقيت خلال العصور كلها بحالتها الخشنة الطبيعية تقريبا. و عندما يزور الزائر الورع هذه البقعة عليه ان يجعل الصخرة الى يمينه حتى يكون طوافه حولها بعكس

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۱۸

الطواف حول الكعبة. و يقول ابن عبد ربه فى العقد الفريد ان الزائر عندما يدخل الصخرة عليه ان يصلى فى الأركان الثلاثة، و على الرخامة التى تماثلها فى القدسية لأنها تجثو فوق باب من أبواب الجنة. و الرخامة هى قطعة من التبليط بالقرب من «باب الجنة»، و المفروض عند البعض أنها تدل على المكان الذى صلى فيه الخضر (الياس) بينما يعتقد آخرون أنها تغطى قبر سليمان. على ان الجميع يجزمون بأنها كانت فى الأصل قطعة من أحجار الجنة، و أنها تسمى «بلاطة الجنة». و هناك حديث ينص على ان النبى محمدا دق فى هذه الرخامة تسعة عشر مسمارا (ذهبا) لا بد من ان تقع منها بصورة دورية واحدا بعد آخر. و حينما تنقلع كلها تكون نهاية العالم قد أزفت. و قد كاد الشيطان ان يتمكن من قلعها كلها لو لا ان يتدخل الملك جبرائيل فى أحرج الأوقات و يحول دون ذلك. و قد بقيت فيها الآن ثلاثة مسامير بينما غار أحدها إلى الأسفل قليلا و لذلك يمر الزوار الأتقياء من فوقها بهدوء و بطء لئلا يكونوا سببا فى قلع أحدها فيعجلوا بدنو يوم القيامة.

و بعد ان يسرد المستر و وكر، كاتب البحث، الأساطير هذه و يعتنى بايرادها يأخذ بايراد غيرها و يقول: و على قطعة منفصلة من عمود رخام تقع فى جنوب غربى الصخرة، و تغطى بقية غير متقنة الصنع تضم فى داخلها أيضا شعرات من لحية النبى عليه السلام، يوجد «قدم محمد»، و هو الذى خلفه وراءه فى ليلة صعوده الى السماء على براقه الخاص. و قد كان هذا يعرف فى أيام الصليبيين، عندما احتل النصارى قبة الصخرة (بقدم عيسى) اما الثقب المدور فى وسط الصخرة فهو البقعة التى حفر فيها جسد النبى فمرق منها الى أعلى. و يشاهد على مقربة من ذلك سراج البراق نفسه بشكل عدة كسر من الرخام. و يبدو واضحا أيضا فى غرب الصخرة بصمة يد جبريل «كف سيدنا جبرائيل»، و هو المكان الذى مسك الصخرة منه حينما كادت ان ترتفع مع محمد (ص) عند صعوده. و فيما يقابل هذا مباشرة يحتفظ برايات محمد، و عمر، و درع الحمزة. و تغطى الصناديق التى يحتفظ فى داخلها بهذه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۱۹

المخلفات طبقة من الغبار، فيجمع هذا بعناية مرة واحدة فى السنة و يباع بكميات قليلة جدا للاستعمال كدواء شاف من جميع الأمراض. و هناك انخفاض بسيط فى التبليط القريب من جهة الصخرة الغربية يقال إنه أثر قدم النبى ادريس و فى الزاوية الشمالية الشرقية «راوزونة» تسمى «قبلة الأنبياء». و هناك كذلك عدة نسخ قديمة من القرآن الكريم و حاجز قصير يطلق عليه «تقليد سيف على».

و يتم الدخول إلى المغارة فى الأسفل عن طريق «باب المغارة» الواقعة فى الزاوية الجنوبية الشرقية للصخرة. و ينزل الزوار بتواضع الاحدى عشرة درجة فيها و هم يقرأون ما يعرف بصلاة سليمان: «ربى اغفر للمذنبين الذين يأتون إلى هنا و أغث المظلومين». و يبلغ معدل ارتفاع المغارة ست أقدام، و يمكن ان يلاحظ فى سقفها أثر رأس النبى محمد. و قد بلطت أرضيتها بالرخام و صبغت جدرانها بالأبيض. و المقول إنها يمكن ان تسع اثنين و ستين شخصا (المرجع هو ابن الفقيه). و هناك نتوء فى الصخرة بارز للعيان يسمى «لسان الصخرة» لأنه سلّم على عمر فى احدى المناسبات. و يشاهد هناك كذلك عمود نحيف يعتقد بأنه هو الذى ترتكز عليه الصخرة. و يلفت الدليل نظر الزائرين كذلك الى «محراب سليمان» فى الجهة اليمنى، و مقام الخليل فى الجهة اليسرى، و فى الزاوية الشمالية الى مقام الخضر و الى محراب داود فى الجهة المقابلة.

و هناك فى جنوب شرقى الصخرة سلّم يؤدى الى شرفة الصخرة، و منها يمكن الوصول إلى الهلال المنتصب فوق القمة. اما الثناء الذى يطرى به المقدسى القبة فلا يزال يصح فى يومنا هذا كذلك: و عند الفجر حينما تبدأ أشعة الشمس بمداعبة القبة و يستقبل سطحها خيوطها الذهبية يتكون منظر عجيب خلاب، لم أر مثيلا له فى بلاد الاسلام جميعها قط.

هذا و يورد المستشرق الانكليزى لسترانج تفصيلات كثيرة عن قبة الصخرة و تاريخ كل شىء عنها. و قد رأينا من المناسب ان نقتبس نتفا مما كتب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۲۰

فى هذا المجال. فهو يقول انه يفهم من التفصيلات التى دونها المؤرخون العرب ان بناء القبة الذى شيده عبد الملك بن مروان فى سنة ۶۹۱ (۷۲ ه) هو من حيث المخطط نفس البناء الذى نشاهده فى نهاية القرن التاسع عشر تقريبا فقد رممت القبة او البناء الخارجى و أعيد بناؤها فى عدة مناسبات، لا سيما بعد الزلزال، لكن المخطط المثمن بقى على حاله.

ثم يبحث لسترانج فى قدسية المكان عند المسلمين فيقول ان قدسية الصخرة تبنى على شيئين: ۱- انها تمثل قبلة النبى موسى القديمة ۲- لأنها كانت قبلة الاسلام الاولى إذ لم ينزل الوحى على النبى عليه السلام بجعل القبة تتجه الى مكة إلا فى شهر رجب من السنة الثانية للهجرة. يضاف إلى ذلك ان المسلمين يعتقدون ان النبى صعد الى الجنة من فوق هذه الصخرة، و عاد إلى الأرض فنزل فى هذه البقعة أيضا. و قد اتخذ عبد الملك هذه القدسية ذريعة له، حينما حاربه منافسه عبد اللّه بن الزبير و استولى على الحجاز، يوجه بها أنظار المسلمين إليها. و ينقل عن المؤلف پالمر (المشار اليه قبلا) ما يأتى فى وصف أحوال الخلافة الأموية فى الفترة التى بنيت فيها قبة الصخرة.

.. لقد حدثت على عهد الملك بن مروان سنة ۶۸۴ م حوادث لفتت الأنظار الى مدينة داود مرة أخرى. فقد ظلت الامبراطورية الاسلامى تعانى الانقسامات الخطيرة و النزاعات الحزبية مدة ثمانى سنوات. إذ ثار سكان المدينتين المقدستين مكة و المدينة ضد السلطات الحاكمة و نادوا بعبد اللّه بن الزبير رئيسا روحيا و دنيويا لهم .. و استطاع الثائر المغتصب ان يحصل على اعتراف جزيرة العرب و الأمصار الأفريقية به، و جعل مقر حكومته فى مكة نفسها. فارتجف عبد الملك هلعا من ذلك و خاف على ملكه من الزوال .. و لأجل أن يتحاشى النتائج الوخيمة، و يضعف خصمه فى الوقت نفسه، فكّر فى إبعاد الناس عن الحج الى مكة و اقناعهم بأن يحجوا إلى بيت المقدس.

و يذكر لسترانج بعد هذا ان اليعقوبى يورد وصفا واضحا لكيفية تشبث عبد الملك، للأسباب السياسية المذكورة، فى جعل المسلمين يطوفون حول

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۲۱

صخرة بيت المقدس و يحلونها فى محل الحجر الأسود الموجود فى مكة فى نفوسهم. و لو نجحت المحاولة لعمد الخليفة الى وضع شعائر سنوية خاصة للحج الى بيت المقدس، على غرار الشعائر التى ظلت تقام فى الحرم المكّى المقدس منذ أيام النبى عليه السلام، و لتحوّل تدفق سيل الذهاب المستمد مما يقدمه الحجاج من قرابين و أضاحى و رسوم إلى خزانة عبد الملك نفسه بدلا من ان يذهب الى جيوب سكان مكة الذين كانوا يومذاك يؤيدون خصمه ابن الزبير فى مطالبته بالخلافة. و لو نجح عبد الملك فى هذا لكان من الممكن أيضا أن تصبح القدس عاصمة للأمويين بدلا من دمشق. غير ان الحوادث أثبتت بعد ذلك ان الخليفة الأموى فشل فى حمل الحجاج المسلمين على التوجه الى المدينة المقدسة فى فلسطين، و لم تخسر مكة تميزها فى كونها مركز الاسلام المقدس، حتى عند ما اندحر ابن الزبير و قتل، و بقيت دمشق عاصمة للخلافة الأموية.

ثم يورد لسترانج نص رواية اليعقوبى التى يقول فيها ان المسلمين حينما احتجوا لدى عبد الملك مستنكرين إقدامه على هذه البدعة فى الاسلام أجابهم يقول: ألم يرو ابن شهاب الزهرى حديثا عن الرسول يقول فيه .. ان الناس سيشدون الرحال الى مساجد ثلاثة:

المسجد الحرام و مسجدى، و المسجد الأقصى و بعد ذلك بنى عبد الملك قبة فوق الصخرة و علق الأستار حولها، ثم عين لها سدنة و بوابين. و تعوّد الناس على الطواف حول الصخرة كما كانوا يفعلون حول الكعبة فى مكة المكرمة، و استمرت هذه العادة فى أيام الخلفاء الأمويين جميعها من بعده.

و نورد تعليقا على ما يذكره لسترانج فى هذا الشأن ما يذكره المستشرق الألمانى فلهاوزن (الص ۲۰۶- ۲۰۷ الترجمة العربية)، الذى مرت الأشارة إليه، ان خلفاء بنى أمية لكى يزيدوا فى رجحان كفة الشام من الناحية السياسية حاولوا فيما حاولوا نقل مركز الشعائر الدينية الى الشام .. و هنا يذكر قصة النزاع بين عبد الملك و عبد اللّه بن الزبير المبينة قبل هذا، و يضيف الى ذلك قوله و لكن عبد الملك ترك ما كان ينويه من احلال القدس فى محل مكة،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۲۲

بمجرد ان امتد سلطانه الى ماوراء بلاد الشام. و قد بدا ان فكرة إحلال بيت المقدس محل مكة الاسلامية كلها فكرة لا يمكن تنفيذها. و لكن عبد الملك حاول فيما بعد ان يجعل للشام شأنا دينيا على حساب ما كان للمدينة من شأن، و من قبله كان معاوية قد أمر سنة ۵۰ ه بأن يحمل المنبر النبوى الى الشام .. فرجع عما أراد .. و قد همّ عبد الملك بما كان معاوية قد همّ به، و لكن صاحب خاتمه صرفه عن ذلك. و يقال ان ابنه الوليد هم مرة أخرى بما همّ به أبوه، و لكنه كف عن ذلك لما طلب سعيد بن المسيب من عمر بن عبد العزيز ان يكلّم الوليد فى ان لا يتعرض الى سخط اللّه عزّ و جل .. و يروى ان خالد بن عبد اللّه القسرى قال: لو أمرنى أمير المؤمنين لنقضت الكعبة حجرا حجرا و نقلتها الى الشام.

و يقول فلهاوزن فى مناسبة أخرى (الص ۲۱۷) ان الوليد قد نفذ ما يقال ان أباه عبد الملك كان قد عزم عليه و تركه، و هو انه أخذ من النصارى فى دمشق كنيسة القديس يوحنا فوسّع بها المسجد الملاصق لها و جدده تجديدا رائعا فى سنة ۸۴ ه. و أخذ من كنيسة نصرانية فى بعلبك قبتها النحاسية المطلية بالذهب و وضعها فى بيت المقدس فوق الصخرة المقدسة. و يذكر (الص ۳۶۸) عند حديثه عن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية أنه هدم أسوار حمص و بعلبك و دمشق و بيت المقدس لأنه لاقى مقاومة منها حينما أخذ الخلافة بالقوة.

و يروى لسترانج كذلك عن المقدسى ان اهتمام عبد الملك بتعمير قبة الصخرة و المسجد الأقصى، و بناء أبنية شامخة باذخة فيهما هو مضاهاة الكنائس الكبيرة التى كان النصارى قد شيدوها بفخامة فى بيت المقدس من قبل، و اقناع المسلمين بعدم التأثر بها و التوجه نحو مساجدهم لا غير.

و مما ورد فى دائرة المعارف اليهودية عن بناء قبة الصخرة قولها نقلا عن مجير الدين ان عبد الملك حينما بناها استخدم فيمن استخدم عشر أسر يهودية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۲۳

و أعفاها من الجزية. فتكاثرت هذه الأسر بمرور الزمن بحيث اضطر عمر بن عبد العزيز الى تنحيتهم عن خدمتها .. و كانت كذلك بين خدم الحرم القدسى نفسه جماعة أخرى من اليهود تقوم بصنع زجاج الفوانيس و المصابيح، و الأوعية الزجاجية. و لم تكن تجبى الجزية منها، و لا من اليهود الذين كانوا يصنعون فتائل المصابيح أيضا.

وصف كريسويل لقبة الصخرة

اما كريسويل المختص بفن العمارة الاسلامية فيسهب فى وصف قبة الصخرة و يأتى على كل جزء من أجزائها بالتفصيل فى كتابه المشار اليه قبل هذه (الص ۱۷- ۴۰). فهو بعد أن يذكر سبب انشاء القبة يقول ان الصخرة قطعة غير منتظمة من الحجر الطبيعى تجثم فى وسط منطقة الهيكل فى القدس، التى تسمى منطقة الحرم الشريف. و هى تكوّن بالفعل قمة جبل موريا. و هناك كل الأسباب التى

تدعونا الى الاعتقاد بأن هذه الصخرة هى ما اطلق عليها الحاج الفرنسى القادم من بوردو (۳۳۳ م)Lapis pertusus ، و التى يقول ان اليهود كانوا يأتون اليها مرة فى السنة فيمسحون بالزيت على سبيل التكريس و يبكون ثم يمزقون ثيابهم و يرحلون عنها . و هى الأساس الحقيقى لهيكل «القرابين المحترقة»، حيث تكوّن المغارة تحتها «الحفرة التى كانت فى اسفل الهيكل، التى يتجمع فيها دم الضحايا المختلط بالماء المستعمل للتطهير».

و لما كانت هذه القبة أقدم أثر موجود للعمارة الإسلامية فإن المعرفة الدقيقة عن منشئها الأصلى تعد على جانب كبير من الأهمية، و يقول: و ساحاول الآن أن أصفها بالشكل الذى كانت عليه فى ايام عبد الملك فهى حلقية الشكل تتألف من قبة جوفاء عالية يتخللها ستة عشر شباكا، و ترتكز على أربع ركائز مبنية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۲۴

(دنك) و اثنى عشر عمودا تقف كلها فى دائرة تتسع اتساعا يكفى للاحاطة بالصخرة، و تترتب بحيث تتناوب كل اسطوانة ثلاثة أعمدة منها مع ركيزة بنائية واحدة. و بذلك تتكون اسطوانة وسطية يتساوى قطرها مع ارتفاعها.

تقريبا. و تقع دائرة الركائز فى وسط مثمّن كبير يبلغ معدل طول كل ضلع منه ۶۰، ۲۰ مترا (۵، ۶۷ قدما)، و تكون هذا المثمن ثمانية جدران يبلغ ارتفاعها ۵۰، ۹ مترا (۵، ۲۹ قدما). و هناك من الخارج سبع فسحات بين الأعمدة فى كل ضلع، لكن الفسحات الواقعة فى الزوايا هى حشوات غير مفتوحة.

و تتخلل سائر الفسحات من الأعلى خمسة شبابيك. و هناك باب عرضه ۶۰، ۲ مترا (۸ اقدام) و ارتفاعه ۳۰، ۴ مترا (۱۴ قدما) فى كل ضلع من أضلاع المثمن التى تقابل الجهات الأصلية، و لذلك يكون الشباك الوسطى الكائن فوق الباب فى هذه الأضلاع أصغر بكثير من الشبابيك الأخرى. و لما كان الفضاء الحاصل ما بين الدائرة و المثمن واسعا بحيث يصعب تسقيفه بعارضات (جسور) منفردة، فقد أقيم مثمن أوسط يتألف من أربعة و عشرين عقدا تحملها ثمان ركائز بنائية و ستة عشر عمودا مرتبة بحيث يتناوب كل عمودين مع ركيزة واحدة لتهيئة الدعم المطلوب للسقف. و لذلك فقد قصد بالرواقين اللذين يدور أحدهما حول الآخر ما بين الدائرة و المثمن ان يطوف الناس عن طريقهما طوافهم المقدس حول الصخرة. و يغطى هذين الرواقين الانحدار من الخشب المغلف بالرصاص. و تضاء داخلية القبة بستة و خمسين شباكا يترتب وضعها كالآتى: خمسة فى كل ضلع من أضلاع المثمن فيكون مجموعها أربعين، و ستة عشر شباكا فى الأسطوانة الكبيرة. و بهذا يكون العدد المجموع ستة و خمسين، و هو العدد المطابق لما جاء فى رواية ابن الفقيه سنة ۹۰۳ م.

و حينما يدخل المرء الى الداخل يجابه بداخلية تسيطر عليها الروعة و السناء، و تتلألأ بحشوات الرخام و أعمدتها التى تعلوها تيجان مذهبة، و بالموزاييك الملون بالأخضر و الأزرق و الذهبى و اللؤلؤى. و تقوم امام الداخل مباشرة العقود

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۲۵

الثلاثة التى تعود لضلع من أضلاع المثمن الأوسط، و هى ترتكز على عمودين رخام يقومان ما بين الركيزتين المغلفتين بالرخام ايضا. و تمتد من فوق تاجيهما المذهبين عارضات رابطة جسيمة يغطى جانبها الأسفل بصفائح معدنية مزخرفة بزخرف نافر. و تنقش و تذهب على شاكلة العارضات التى تمتد من فوق المداخل الأربعة. و تزخرف سطوح العقود بموزايك متلألئ يلاحظ الرائى من ورائه دائرة الركائز الداخلية التى يتبين من بين عقودها الزخرف الضخم المعمول فى القبة الخشبية بكتابات و نقوش مكحلة بالذهب. و ليس بوسع المرء ان ينسى ذلك المنظر مطلقا. و إذا ما نقّل طرفه فى كل مكان يلاحظ ان الجدران تغلف من أعلاها الى أسفلها بحشوات من ارباع الرخام و تتخللها ستة و ثلاثون شباكا من الشبابيك الجميلة.

و يتطرق كريسويل كذلك (الص ۳۱) الى زخرفة مبنى قبة الصخرة بالتفصيل، فيقول ان القسم الأعلى من الجدران الخارجية و الاسطوانة أيضا كانت فى الأصل مع أنها مغلفة فى الوقت الحاضر بحشوات من الخزف المزخرف مغطاة بالذهب و الموزاييك الملون. و هذا ما ذكره أبوت دانيل (۱۱۰۶ م) و جون و رزبورغ (۱۱۶۵ م) و ثيودريك (۱۱۷۲ م) و ويليام الصورى (۱۱۸۴) و غيرهم.

و لم يستبدل السلطان سليمان الغلاف القديم بغلاف الخزف الحالى الا فى سنة ۱۵۵۲ م. و قد جدد هذا الغلاف عدة مرات منذ ذلك الوقت و يرى البعض ان أفخر قسم فيه هو على درجة من الجودة بحيث يمكن ارجاعه الى عهد يسبقه عهد السلطان سليمان. و لذلك يجب ان يؤكد على ان هذا الرأى لا ينطبق على الواقع، لأن چودى الألمانى يقول (فى ۱۵۱۹):

و الجدران مغلفة من الخارج بشغل الموزاييك الغالى الثمن، و مع ان كنيسة سان ماركَ فى البندقية، و كنيسة القيامة فى القدس، و كنيسة بيت لحم قد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۲۶

شغلت بنفس الشغل فى الداخل فلا توجد هناك صور فى قبة الصخرة سوى صور ملائكة .

و يقول انطونيو دى أرانـدا (فى ۱۵۳۰) ان هـذا المبنى مكسو من الخارج كله من حد وسط الى أسفل برخام ثمين جدا، و مكسو من الوسط الى أعلى بالموزاييك الفاخر و الزخرف المورق و سائر الزخارف الجصية البذيعة .

و يصفه فى الأخير بانيتليو دافيرو فى ۱۵۵۲ فيقول انه مغلف من الأرض الى الوسط بالواح كبيرة لماعة من أفخر الرخام، و من الوسط الى حد الصبّة الاولى فى الأعلى باغلى الموزاييك و أبدعه مع نقوش كثيرة فيها أغصان و أوراد و سائر أنواع الأزهار الجميلة .

و فى هذه السنة غلفت الجدران الخارجية بالخزف المزخرف على ما يفهم من كتابة منقوشة فوق الباب الشمالية. و كانت الأسطوانة قد غلفت من قبل فى سنة ۱۵۴۵- ۴۶. و يذكر زوالارت عن التغليف الجديد الذى تم فى ۱۵۸۶ قوله ان المبنى تمت زخرفته من الخارج بألواح من الرخام و بلاطات ملونة فى القسم الأعلى منه على طريقة دمشق، و بالرخام الأبيض من أسفل .

و قد ذكرنا من قبل ان عقود أروقة المداخل الأربعة جميعها كانت مزينة من دون شك بالموزاييك. اما الوجه الداخلى للجدار الخارجى فهو مغلف اعلاه الى اسفله بحشوات من أرباع الرخام مع نطاق زخرفى بالأسود و الذهبى يبلغ عرضه خمسين سنتمترا (۵، ۱۹ بوصة) و يمتد حول الداخل كله الى ارتفاع ۸۵، ۳ مترا (۵، ۱۲ قدما).

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۲۷

و تملأ الفتحات المروحية الأربع فوق عتبات الأبواب العليا امتلاء مختلفا، إذ تملأ الموجودة فوق المدخلين الشرقى و الغربى بمصبّعات حجرية تتألف من أنصاف دوائر متراكبة مثل الكثير من المصعبات الرومانية، و قد تكون مبتكرة. اما الاثنتان الأخريان فتعودان الى وقت متأخر. و تحاط الكوتان الجنوبية و الغربية بأطارين يشبه زخرفهما زخرف الغطاء المعدنى الذى يغطى العتبات فى أسفل.

و تغلف الركائز البنائية الثمان العائدة للمثمن بالرخام، كما يدور الكورنيش الكورينثى الذى يزين الجهات الداخلية للعارضات الرابطة حول الوجه الداخلى للركائز. فيكون كورنيشا خاصا يكون كل شىء فوقه مغطى بالموزاييك. و لما كان سطح العقود يتألف من سلسلة فتحات مثلثة تقريبا، فقد رسم الفنان الذى رسمها أشكاله على محور كل عمود من الأعمدة. و تنشأ من فوق كل تاج من تيجان الأعمدة شجرة غريبة الشكل فتنتشر بمينا و شمالا باتساع المجال لها، و بذلك ينشأ عنها ما يسميه ستريزكوفسكى بالتعبير الزخرفى الشمعدانى. و تكون هذه ملبسة بالجواهر و الأقراط و القلائد، و حتى بعناقيد من العنب.

و لكن الزخرفة فى نهاية كل عقد من العقود المجاورة للركيزة البنائية حيث يكون الفضاء الباقى بقدر نصف الفضاء الموجود فوق الأعمدة فقط، تكون من نوع آخر. فبدلا من ان تبدأ مجموعة الزخارف من أسفل تبدأ من قمة العقد و تنزل الى جانب الركيزة البنائية. و تتألف بصورة عامة من نبات قرن الرخا (كودنوكوبيا) يمتد أحد سيقانه الى الخارج فيتلوى على شاكلة اللولب الى الداخل. و ينتهى فى إحدى الحالات الى تعبير زخرفى يشيع وجوده فى أبنية عربية أخرى. و يتوج جميع هذا الزخرف نطاق من الكتابة الكوفية يبلغ طوله حوالى مئتين و أربعين مترا، فينتهى فى الوجه الخارجى للعقد الجنوبى بالتاريخ ۷۲ للهجرة (۶۹۱ م).

و تزين سطوح الركائز البنائية العريضة بأزواج من سيقان نبات شوكة اليهود (أكانثوس) تنشأ من جذر النبات نفسه فتتلبس بالقلائد و الأقراط و ما

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۲۸

اشبه، لكن الأجنحة الضيقة تتألف زينتها على الدوام من شجرة تحاكى الطبيعة فى شكلها، أو من مجموعة خيالية تحتوى على أشكال مختلفة تتراكب بعضها فوق بعض. و هنا يوجد شيء يلفت النظر: فهناك ثمان ركائز بنائية، و لذلك هناك أيضا ستة عشر جناحا لكن الملحوظ ان ثمانية أجنحة متتالية تزخرف كل منها بشجرة، بينما تزخرف الثمانية الأخرى بخليط عجيب من الأشكال يجعلنى استنتج بأن اناسا من مدرستين فنيتين مختلفتين تعتنق كل منهما قواعد فنية مختلفة عن الأخرى و قد تقاسموا العمل فيما بينهم. و لا استطيع الاحجام هنا عن لفت النظر بصورة خاصة الى التركيب الجميل الموجود فى الزخرف المحتوى على نخلة من النخيل يهب عليها الهواء و ما فيها من تفوق غير قابل للقياس على نماذج موزاييك ال «رافينا» الموجود فى قطع الزخرف. و يجب ان تلاحظ كذلك الشجرة الصغيرة الموجودة فى كل جهة من جهتى الجذع، لأننا هنا نلاحظ القاعدة الأساسية المعروفة فى الفن الاسلامى- و هى قاعدة تغطية الفراغ تغطية متساوية متناسقة. و تغلف ركائز القبة البنائية الأربع أيضا بالرخام من جهاتها الأربع كلها، لكن أجنحتها تزين علاوة على ذلك بحشوات أو سرر من الزينة المذهبة. فهى مزينة بكورنيشات فيها شيء بسيط من الانحدار و مزخرفة بلفائف من نبات شوكة اليهود (أكانثوس) يعلوها (على ارتفاع ۹۰، ۶ مترا من الأرضية تقريبا) زخرف بالموزاييك كما هى الحال فى خصور العقود. على أن العقود تزينها ألواح متناوبة من الرخام الأبيض و الأسود، يحتمل انها وضعت لتخفى التلف الذى أصاب حواشى الموزاييك لأن الأشكال تبدو مقتطعة بها و قد كانت هذه موجودة فى سنة ۱۳۴۴ م كما يفهم مما يذكره العمرى، و لذلك فمن المحتمل ان يكون السلطان الناصر محمد هو الذى وضعها فى ۱۳۱۸- ۱۹.

اما الوجه الداخلى للأسطوانة فهو مزخرف كالآتى: فهناك أولا واجهة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۲۹

رخام تغطى العقود و خصورها، و يتوج هذه نطاق من زينة تضاهى الزينة التى تكوّن كورنيش ركائز القبة البنائية، و يعلو هذا النطاق ربع دورة كبيرة من الحلية المعمارية المقولبة مغطاة بالموزاييك. و تأتى فوق هذا الأسطوانة الأصلية نفسها التى يزينها نطاقان كبيران من الموزاييك تحجز بينهما حلية مقبولة كبيرة.

و يبلغ قياس هذين النطاقين معا ۴۰، ۹ مترا. و توجد فى النطاق الأعلى منهما الشبابيك الستة عشر التى تجلس أساكفها (عتباتها) على الحلية المقولبة الكبيرة نفسها. و يتوّج النطاق الأعلى كذلك كورنيش خشبى تستقر فوقه، على ارتفاع ۴۰، ۲۰ مترا من الأرض العقود العمياء (المغلقة) الكائنة فى قاعدة القبة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۳۰

القدس و الحروب الصليبية

اشارة

لا يخفى ان القدس و سائر الأماكن المقدسة فى فلسطين كانت هى السبب المباشر الذى اتخذه الصليبيون ذريعة لشن حروبهم على الشرق الاسلامى فى تلك الايام. و قد مرت القدس، و ما جاورها من البلاد، خلال الحقبة الطويلة التى استدامت فيها الحروب الصليبية فى فترات عصيبة من تاريخها لا- تختلف كثيرا عن فترات التاريخ الأخرى التى تميزت بالمآسى و النكبات و ظلم الانسان لأخيه الانسان. و قد كتبت كتب كثيرة فى الشرق و الغرب عن الحروب الصليبية هذه، و يذهب كثير منها الى ان الغزو الصليبى الوحشى للأراضى المقدسة و ما يحيط بها من البلاد لم يكن الدافع اليه دافعا دينيا حقا كما تفيد التسمية أو كما يريد البعض ان يفكر فيه، و انما كان دافعا استعماريا أسبغت عليه الصبغة الدينية التى كانت تروج فى ذلك العصر و الأوان. و سوف يلاحظ القارىء مما نورده

من المقتبسات الغربية المنصفة عظم الجرائم الانسانية، و الأعمال الوحشية التى اقترفوها باسم الدين. و مع ذلك فقد استطاعت البلاد العربية يومذاك، و هى حامية العتبات المقدسة للأديان السماوية جميعها، ان تصمد صمودا كان فيه خير حل للمشكلة الانسانية و كافحت كفاحا لا بد لها من ان تعيده فى يوم محنتها هذا لتحق الحق برغم ما يبيته لها الأعداء.

و قد وجدنا ان خير من يكتب عن هذه الفترة من المؤرخين، و يأتى بحقائق ناصعة تستند الى أحسن المصادر الغربية هو السيد أمير على المؤرخ الهندى المسلم الذى تثقف بالثقافة الغربية و تشبع بها الى جانب ثقافته الاسلامية حتى وصل الى ان صار عضوا فى مجلس شورى الملك فى انكلتره، و ألف كتبا كثيرة عن الاسلام باللغة الانكليزية أهمها «روح الاسلام» و «القانون الاسلامى» و كتاب «مختصر تاريخ العرب و التمدن الاسلامى» الذى سنقتبس منه لهذا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۳۱

البحث بعض ما كتبه عن القدس و عن الحملات الصليبية و أحوالها.

فهو يبدأ بحثه هذا بالتمهيد لما يكتبه عن الصليبيين و حروبهم بوصف عام لحالة المسيحيين المرفهة فى البلاد الاسلامية يومذاك و التسامح الذى يبديه المسلمون تجاههم، ثم يقول: غير ان هذا التسامح الرائع لم يكن ليخفف من غلواء هؤلاء المتهوسين الذين كانوا ينظرون إلى بقاء المسلمين فى القدس بعين البغض و الاستنكار.

و يتابع بحثه فيقول: و كان الحجاج يزورون الأرض المقدسة، و يلاقون فيها من العرب ضروب الرعاية و الكرم .. و لكنهم كانوا بالرغم من كل ذلك يعودون الى بلادهم و قد امتلأت قلوبهم حسدا و حقدا. فما كاد ينتهى القرن العاشر حتى اعتقد المسيحيون اعتقادا جازما ان ساعة الخلاص قد أزفت، و ان العصر الألفى السعيد قد حل أو كاد. و بهذا الاعتقاد طفقت جموع المهاجرين تتدفق من العالم اللاتينى على الأرض المقدسة، و فى القرن الحادى عشر ازداد عددهم زيادة هائلة.

و فى ذلك الحين كان حكم فلسطين قد انتقل الى أسرة أرتق التركمانية ..

و كان هؤلاء يجهلون الحماسة التى كانت تتأجج فى قلوب الأجانب، فلم يعاملوهم بالتسامح الذى كان يعاملهم به الحكام الأولون، لذلك كان هؤلاء الحجاج المتعصبون اذا ما عادوا الى أوطانهم شوهوا الحقيقة و شنعوا بالمسلمين ..

حتى عقد البابا أربان الثانى أخيرا مجلسا فى بلاسنثيا فى آذار ۱۰۹۵ و مجلسا آخر فى كلير مونت فى تشرين الثانى و خطب معلنا ضرورة انقاذ ضريح المسيح فى القدس من أيدى الكفار (كذا) كما أعلن غفران ذنوب الخاطئين الذين يلتحقون بالجهاد الدينى، و وعد الذين يموتون فى سبيل هذه الحرب بجنات الخلد، غير ان الباعث الحقيقى لتلك الحروب الصليبية الدامية كان فى الواقع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۳۲

الهوس الدينى الممزوج بأغراض أخرى كالميل الى تأسيس ممالك جديدة، و الحصول على ثروات طائلة، و الرغبة الملحة التى سرت فى أعماق النفوس الوضيعة فى احتساء الأنبذة الشرقية، و التمتع بفتنة الكرجيات .. و يقول المؤرخ هالام انهم تذرعوا بكل وسيلة لنشر هذا الجنون الوبائى، و كان الجندى فى خلال الحملات الصليبية معفى من العقبات و يضمن له النعيم الأبدى.

و بعد ان يصف الحروب الصليبية الأولى و الثانية و الثالثة و أهوالها و فظاعاتها، و لا سيما ما حدث منها فى الاستيلاء على انطاكية يورد السيد أمير على وصف المؤرخ الفرنسى المسيو ميشو لما جرى خلال استيلاء الصليبيين على القدس فى ۱۵ تموز سنة ۱۰۹۹ م، على الوجه الآتى:

.. و كان المسلمون يذبحون ذبح الأنعام فى الشوارع و المنازل، و لم يجد أهل المدينة محلا أمينا يعتصمون به فألقى بعضهم نفسه من فوق الأسوار.

و ازدحم البعض الآخر فى القصور و الحصون و المساجد و لكنهم لم يستطيعوا برغم ذلك إخفاء أنفسهم من متصديهم. فحاصر الصليبيون جامع عمر الذى اعتصم فيه المسلمون وجدوا تلك المناظر الوحشية التى تعدّ و صمة فى جبين فرسان التوتون، إذ هجم

الجنود على الهاربين و أعملوا السيف فى رقابهم فى غير ما شفقة و لا رحمة، و لم يكن يسمع فى تلك الساعة الرهيبة غير أنين الجرحى و حشرجة الموتى. وطئوا كذلك بخيولهم الجثث المكدسة فى أثناء مطاردة الهاربين. و يقول ريموند دى آغيل الذى شهد تلك الموقعة: كانت الدماء قد وصلت فى رواق المسجد الى الركب . و لم يكف الصليبيون عن السفك الا عند ما تقدموا الى اللّه بالابتهال و الشكر على نجاحهم، و لكنهم ما كادوا ينتهون من صلاتهم حتى و اصلوا الفتك و القتل مرة أخرى و ذبحوا فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۳۳

هذه المرة جميع من أبقوا على حياتهم رجاء ان ينالوا منهم الفدية. و قد اضطر بعض سكان القدس إلى إلقاء نفسه من أعلى الحصون و المنازل، كما أحرق الصليبيون البعض حيا. ثم جاءوا بالذين كانوا قد لاذوا بالفرار و وضعوهم على جثث الموتى المكدسة، و أخذوا يمثلون بهم أشنع تمثيل. و لم تكن تجدى فى ذلك الموقف الدامى دموع النساء و لا صراخ الأطفال، و لا منظر البلد الذى صفح فيه السيد المسيح عن جلاديه، فكل هذه المناظر المثيرة للرحمة و العطف لم تكن لتلين قلوبهم القاسية.

و يقول مؤرخ آخر (ميلز ج ۱، الص ۲۷۸) ان الصليبيين كانوا قد صمموا فيما بينهم على ان لا يظهروا عطفا أو رحمة نحو المسلمين، و لهذا كانوا يسوقونهم الى الميادين العامة و ينكلون بهم شر تنكيل دون ان يبقوا على أحد، فكانوا يذبحون النساء و الأطفال و البنات و الاولاد على حد سواء، حتى أصبحت ميادين القدس و شوارعها ملأى بالجثث و أشلاء الأطفال من غير ما شفقة و لا رحمة. و على هذا النحو هلك فى القدس وحدها زهاء سبعين الفا!!

و بعد ان فتح الصليبيون بيت المقدس على هذه الشاكلة انتخبوا غردفرى ملكا عليها، و لكن أخاه بولدوين خلفه بعد سنة و شرع يحاصر قيصرية ..

و عند ما دخلوها لم يراعوا حرمة العهود و ذبحوا السكان الآمنين فى غير ما شفقة و لا رحمة .. و على هذا النحو انتقلت فلسطين و جزء من بلاد الشام الى أيدى الافرنج الذين أسسوا فيها النظام الاقطاعى الذى كان شائعا فى أوربة يومذاك ..

و يقول الكاتب الأمريكى انطونى ويست فى (الحروب الصليبية)، الص ۷۲ (: و شرع الصليبيون فى مسير طويل شاق عند نزولهم مع الساحل الفلسطينى، فقد مروا بقمم جبل لبنان و بمدينتى صور و صيدا ثم عكا و يافا.

و من هذه المدينة استداروا الى الداخل، و بعد مضى ستة أشهر على مغادرتهم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۳۴

انطاكية وصلوا قمة المضيق الجبلى الذى يفصل بيت المقدس عن البحر و عسكروا فيه لقضاء ليلتهم .. و فى صبيحة اليوم التالى تسلقوا جبل المشارف فى برد قارس قبيل الفجر، و عند بزوغ الشمس بدى أمام أعينهم بيت المقدس.

و ملأهم المنظر بمزيج من الفرح و الرعب، فقد كانوا يتوقعون رؤية أرض الميعاد و هى تفيض لبنا و عسلا و تختلف عن الجبل الأجرد الذى تسلّقوه الآن، الا أن المنظر الممتد أمامهم لم يكن سوى واد مغبر أكسبته شمس الصيف لونا بنيا. و كانت بيت المقدس أمنع قلاع العالم القديم، و هى قائمة على جبل تتوج أسوارها قطوع جانبية عميقة لثلاثة وديان صخرية. و منذ ألفى عام بذل حكامها جهدهم واحدا بعد آخر لجعل القلعة لا تقتحم. و عند ما اقترب النصارى من المدينة طغى عليهم عزم جنونى بأن لا شىء يحول بينهم و بين الاستيلاء عليها، و وجدوا ان المسلمين قد ردموا الآبار ضمن أميال متعددة فى كل اتجاه. فمكث الصليبيون حيث هم متمونين بالمياه التى كانت تجلب لهم مع الخمور على ظهور البغال من نهر الأردن البعيد و تصل متعفنة فاسدة الطعم. و مع هذا كانت تسد حاجتهم، و تحمل الصليبيون ذلك مدة ثلاثين يوما، و فى نهاية الشهر شقوا طريقهم عنوة الى داخل المدينة. و عند حلول الظلام فى يوم ظفرهم انقلبت حالتهم الروحية من حماس جارف الى جنون إجرامى فاندفعوا طوال الليل يبحثون فى المدينة ذابحين كل رجل و امرأة أو طفل تقع أعينهم عليه. و قد لجأ كثير من يهود المدينة الى كنيسهم الكبير فلم ينجهم ذلك، فقد أحرقه الصليبيون بمن فيه، اما من حاول منهم النجاة من اللهب فقد قتلوه. و قبيل الصبح توجه الصليبيّون نحو المسجد الأقصى حيث تقوم الصخرة، و كانوا قد سجنوا

المسلمين هناك بعد استسلامهم و إلقاء اسلحتهم. فقتلهم الصليبيون عن بكرة أبيهم فى داخل المسجد. و عند طلوع الضياء كانت مدينة بيت المقدس تغرق بالدماء، و فى شوارعها و مساجدها أكثر من اثنى عشر ألف قتيل. و قد خلفت هذه المجزرة مرارة استمرت قرنا و نصف قرن.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۳۵

لقد حصل الصليبيون على بيت المقدس و برّوا بقسمهم فأنقذوا الضريح المقدس ممن حسبوهم كفارا و أصبحوا أحرارا فى العودة، الا أنه كان عليهم قبل ذلك اختيار قيّم على المدينة المقدسة يتولى أمر الدفاع عنها. و كان ريموند كونت طولوز يتوقع منهم ان يبلغوه مطمحه بمنحه تاج المملكة النصرانية الجديدة. و لكن مجلس الفرسان نظر فى أمر ريموند .. فوقع اختيارهم على غودفرى دى بويون و كان من الأوائل الذين اقتحموا أسوار القدس ..

مملكة القدس الصليبية

يقول السيد أمير على ان مملكة القدس الصليبية كانت تعتمد فى الحصول على الرجال و المواد الحربية و الطعام على جميع انحاء العالم الأوربى و امرائه الذين يتوقون الى «إعلاء كلمة اللّه»، و المغامرة فى الحصول على الكنوز الطائلة و الثروات العريضة، و مناصرة المتهوسين المتفانين فى مقاتلة الكفار، كما كانت تعتمد أيضا على طريدى العدالة الذين كانوا يتدفقون بكثرة على سواحل الشام. و كان أمورى قد توفى و خلفه ابنه على العرش، غير انه كان مصابا بمرض معد هو (الجذام) جعله أجدر بالرثاء منه الى ادارة شؤون الدولة. فتزوجت أخته ايزابيلا من أمير مونتفرات، و ولدت له طفلا سماه بالدوين. و لما توفى زوجها تزوجت ثانية من لوسنيان الذى عينه بالدوين نائبا عنه، و لكنه سرعان ما عزله و نصب مكانه ريموند أمير طرابلس الذى لم يلبث ان تنازل عن العرش لابن اخته بالدوين الخامس و لم يكن قد ناهز بعد الخامسة من عمره. و المظنون ان الملك الطفل قتل بايعاز من أمه، و سواء أكانت الرواية هذه صحيحة أم مختلفة فالمعروف ان إيزابيلا على أثر وفاة ابنها نادت بنفسها ملكة على القدس و وضعت بيدها تاج الملك على مفرق زوجها. و هكذا انتقل عرش فلسطين فى سنة ۱۱۸۷ الى ايزابيلا و زوجها لوسينيان. و فى عهد بالدوين المجذوم عقدت معاهدة صلح بين السلطان و الفرنج. و يقول ميشو ان هذه الهدنة جديرة بالملاحظة، إذ أن المسلمين كانوا جد حريصين على تنفيذ

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۳۶

أحكامها فى حين لم يتقيد المسيحيون بشروطها قط، كما ظهر عليهم ميل شديد الى إشهار الحرب من جديد ..

كيف استرد صلاح الدين القدس

و فى سنة ۱۱۸۶ نقض ريجنالد- يسميه العرب أرنات- شروط المعاهدة، و انقضّ بجيشه على إحدى القوافل المارة بالقرب من حصنه (الكرك) و ذبح عددا غير قليل منهم بعد ان سلب أموالهم. فغضب السلطان صلاح الدين غضبا شديدا و طلب من حاكم القدس ان يعاقب المعتدى، و لما رفض الملك إجابة طلبه أخذ صلاح الدين على عاتقه تأديب ريجنالد، على ما يقول أمير على، و حاصر بنفسه الحصن الذى وقعت بقربه تلك المأساة الدامية، كما أرسل الى الجليل قرة صغيرة بقيادة اكبر أبنائه على الملقب بالملك الأفضل لمراقبة حركات الفرنج. فلم يكد الصليبيون يعلمون بوجوده حتى وحدوا صفوفهم و زحفوا عليه فأسرع السلطان الى نجدة ابنه .. فعسكر جيش الفرنج فى سهول صفورية، و لكن صلاح الدين استطاع بمهارته الحربية ان يستدرجهم من مكمنهم المنيع الى واد مكشوف بين الجبال الواقعة بمقربة من بحيرة طبرية فى تل حطّين.

فسار الفرنج كأنهم جبال تتحرك شطر البحيرة، و لكن جنود السلطان أخذوا أهبتهم و قطعوا عليهم الماء فتقابل الفريقان يوم الخميس ۲ تموز، بعد ان قضى السلطان طوال الليل يهيء الصفوف، و دارت معركة رائعة بينهما يوم الجمعة و صباح السبت المصادف ۲۵ ربيع

الثانى سنة ۵۸۳ ه، فأسفرت عن تقويض دعائم دولة لوسينيان بعد أن أثخن فيهم المسلمون، و قتلوا عشرة آلاف بينهم جماعة من أشهر القواد. و كان من جملة الذين وقعوا أسرى فى أيدى المسلمين لوسينيان نفسه و أخوه جوفرى و رينو صاحب الكرك (مثير الحرب) و ابن هانفرى، و كونت هوغ و ابن لورد طبريـة. و لم ينج من الأسر غير ريمون أمير طرابلس و ابن أمير انطاكية ويليان. إذ أفلتا من القوة التى تعقبتهما و وصلوا الى الساحل. اما لوسينيان فقد عومل معاملة حسنة، غير ان السلطان أمر بقتل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۳۷

رينو و بعض القواد الآخرين الـذين كانوا قـد أخلّوا بشـروط المعاهدة و ذبحوا المسـلمين خلال الهدنة. كذلك لم يمهل الأعداء حتى يلموا شعثهم بل واصل مطاردتهم بعد موقعة حطّين. و ما هو الا ان استولى على حصن طبرية، و وقعت فى قبضة يده زوجة ريمون أمير طرابلس فردها الى زوجها معززة مكرّمة. و يقول المؤرخون ان المسلمين لم يسىء أحد منهم قط الى النساء و الأطفال ..

و من ثم توجه السـلطان صوب القدس التى كانت تضم داخل أسوارها زهاء ستين ألف جندى علاوة على سـكانها الأصـليين، و حالما أشـرف على المدينـة بعث فى طلب أشـرافها و خاطبهم بقوله انه يحترم مدينـة القـدس، و لا يرغب فى انتهاك حرمتها باراقة الدماء، و لهذا ينصـحهم بترك اسـتحكاماتهم اما هو فيتعهد من جهته بان يعوضهم عن أملاكهم بالأموال و الأراضى. غير ان الصليبيين لتعصبهم رفضوا تلبية هذا الطلب المنطوى على شىء كثير من السخاء.

فسـخط صـلاح الدين عليهم و حاصر المدينة الى حين. و لكنهم عادوا و طلبوا الصلح «باسم اله البشر جميعهم»، فتغلب عطف السلطان على رغبته فى الانتقام، و سـمح للروم و نصارى القدس بالسـكنى فى بلاده بعد أن ضـمن لهم التمتع بالحرية التامة، كذلك أمر جميع الجنود الصـليبيين داخل المدينة بأن يرحلوا مع أسـرهم و أطفالهم عن القدس، و ضرب لهم موعدا أربعين يوما، كما ضمن لهم سلامة الرحيل إلى صور أو طرابلس، و حدد فدية الرجل بعشرة دنانير شامية و خمسة دنانير للمرأة و دينار واحد للطفل.

و كان من شـروط الصـلح أن من يعجز عن أداء الفدية يؤخذ أسيرا، غير أن ذلك الشرط أهمل إهمالا تاما. إذ يقال ان السلطان وحده افتدى عشـرة آلاف شـخص، كما أطلق أخوه سـيف الدين (الملك العادل) سـراح سبعة آلاف آخرين، و قد كان رجال الدين عند ما غادروا المدينة يحملون معهم الامتعة، كذلك كثير من النصارى يحملون والديهم و اصدقاءهم الذين أقعدهم المرض عن السير. فتأثر السلطان بهذا المنظر و أمر حالا ان توزع عليهم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۳۸

الصـدقات و ان يزودوا بالدواب. و لما اسـتأذنته الملكة ايزابيلا و كان يصـحبها بعض الأمراء اذن لها بالسـفر و حباها بكرمه الغياض. و كـان معهـا رهـط من النسـاء اللواتى كن يعولن بالصـياح و النحيب و هن حاملات اطفـالهن، فلمـا اقتربن منه ناشـدنه ان يفـك سـراح أزواجهن و أولادهن و اخوانهن .. فتأثر صـلاح الدين أى تأثير بتوسـلاتهن، و فى الحال أمر برد الأسرى الى أقاربهم و وعد فوق ذلك بمعاملة الباقين منهم بالعطف و الرأفة، كما وزع الصدقات على اليتامى و الأرامل .. و يمكننا بعد هذه الإلمامة القصيرة ان ندرك البون الشاسع و الفرق المدهش بين صـفات صـلاح الدين السـمحة و بين قسوة الأمراء المسـيحيين و وحشيتهم. و يقول المؤرخ ميلز فى هذا الصـدد: ان كثيرا من المسـيحيين الذين غادروا بيت المقدس رحلوا الى انطاكية، غير ان بوهيمند أميرها لم يحرمهم الضـيافة حسب بل سلبهم أيضا أموالهم، فى حين كان أولئك البائسون يلاقون اينما ساروا فى بلاد المسـلمين ضـروب العطف و الكرم .. و يضيف السيد أمير على الى ذلـك قوله ان مـا يثير الاعجـاب ان صـلاح الـدين احترم شـعور المغلوبين، فلم يـدخل القـدس بجيشه الجرار الا بعـد ان غادرها جميع الصليبيين.

و فى يوم الجمعـة ۲۷ رجب (يوم المعراج) سـنة ۵۸۳ دخل بيت المقـدس يحف به الأمراء و اشـراف الامبراطوريـة الذين جاءوا لتهنئته على هذا النصر المبين.

فـأمر بترميم مـا دمرته الحرب، و تشـييد الجوامع و المـدارس الدينيـة التى هـدمها الفرنـج، و وضع أساسا حكيما لادارة دولاب الـدولة

يختلف كل الاختلاف عن حكومة الصليبيين المستبدة ..

و قد أحدث سقوط مدينة القدس دويا هائلا فى العالم المسيحى، على ما يذكر السيد أمير على، و أفرغ رجال الكهنوت جهودهم بالاستنجاد بالشعوب المسيحية و الاستجارة بالملوك و الأمراء و اقناعهم باشهار حرب صليبية أخرى، فتكللت جهودهم بالنجاح التام و انهالت النجدات على صور و المعسكر الضارب قرب عكا. و اشترك ثلاثة ملوك من أعظم ملوك المسيحيين شأنا فى تلك الحرب الشعواء و هم: فردريك بار باروسا امبراطور المانية، و فيليب أوغسطوس

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۳۹

ملك فرنسة، و ريكاردوس قلب الأسد ملك انكلترة .. و يقول الرواة ان رؤساء النصارى تذرعوا بكل وسيلة لاثارة روح التعصب فى شعوب أوربة كافة. اما بطريرك القدس الذى كان صلاح الدين قد أحسن معاملته فقد أخذ يطوف المدن الأوربية حاملا صورة المسيح، و قد جرحها أحد الأعراب ليحثهم بذلك على أخذ الثأر ..

و بعد حروب عنيفة خاضها الصليبيون .. طلب قلب الأسد المصالحة ففشلت المفاوضات بينه و بين الملك العادل أخى صلاح الدين، ثم بذلت محاولة أخرى للصلح اشترط فيها الصليبيون الاحتفاظ بالمدن التى كانت بأيديهم، ورد بيت المقدس لهم و صليب الصلبوت (خشبة الصليب الاصلية). و يقول السيد أمير على ان السلطان صلاح رفض تسليم القدس رفضا باتا إلا أنه أعرب عن استعداده لاعادة خشبة الصليب. و لما كان ريكاردوس قلب الأسد تواقا الى العودة الى بلاده التى بدأت تعصف بهاريح الفوضى استأنف مفاوضاته مرة أخرى مع الملك العادل و توصل الى مسودة اتفاق لم يوافق عليه الكهنة المسيحيون. و كانت الشروط أن يزوج قلب الأسد أخته أرملة ملك صقلية من الملك العادل، و ان تعطى عكا و ما فى أيدى الافرنج اليها، و ان يعطى ما بأيدى المسلمين من بلاد الساحل الى الملك العادل، و ان يحكم الزوجان مدينة القدس بصفة كونها مدينة محايدة حرة لاتباع الديانتين، و ان يجرى تبادل فى الأسرى و يعاد الصليب للمسيحيين، و يحتفظ الرهبان بامتيازاتهم. ثم جرت مفاوضات أخرى كانت نتيجتها أن أعلن ملك الأنكليز تنازله عن مدينة القدس و المطالبة بها .. و كان يوم اعلان الصلح يوما مشهودا، و لم يلبث ريكاردوس ان عاد الى بلاده ..

و هكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة التى هلك فيها عدد لا يحصى من الناس، و خسرت ألمانية أحد براطرتها العظام، كما فقدت فرنسة و انكلترة زهرة فرسانها، و لم تكتسب المسيحية غير عكا.

و بعد سفر ريكاردوس استراح صلاح الدين قليلا فى القدس. ثم سار تحرسه كوكبة من الفرسان نحو الساحل ليتعهد الثغور، و أمر باصلاح ما خرب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۴۰

منها، كما شيّد فى القدس مستشفى و مدرسة. و ولى على المدينة سكرتيره و مترجم حياته حورديك من المماليك النورية. ثم عاد الى دمشق و بقى فيها مع أسرته حتى وافته المنية يوم الأربعاء ۲۷ صفر سنة ۵۸۹ ..

الحروب الصليبية فى مراجع أخرى

و يأتى كارل بروكلمان المستشرق الألمانى على ذكر الحروب الصليبية بشىء غير يسير من التفصيل الذى يشير فيه الى معظم ما أوردناه هنا، و لكنه لا يذكر مطلقا الفظاعات التى ارتكبها الصليبيون و المجازر التى سبّبوها. و مما يذكره عن فردريك الثانى (الص ۳۶۲) و خلافه مع البابا ان فردريك هذا توّج فى ۱۸ آذار ۱۲۲۹ بوصفه زوجا لايزابيل ملكة الأرض المقدسة فى كنيسة القيامة، و كان ذلك بعد عقد الصلح مع الملك الكامل الذى تقرر تسليم القدس فيه الى الصليبيين (اى للمرة الثانية بعد وفاة صلاح الدين). لكن هذا الصلح لم يتم، و أمر البابا بتحريم شامل يفرض على المدينة المقدسة ما أقام فردريك فيها.

و يصف بروكلمان كذلك موقعة حطّين و فتح القدس على يد صلاح الدين كما يأتى: و الواقع ان الصلح الذى عقد مع صلاح الدين،

و الذى كان غى دى لوسينيان خليفة بغدوين الخامس على عرش القدس، حريصا على أدامته كثيرا ما نقضت أحكامه بسبب من تمرد الأمراء التابعين له و عدم تقيدهم بأمره. فكان ريجنالد دى شاتيون أمير الكرك لاينى يوقع بقوافل الحجاج و قوافل التجارة من حصنه القائم على البلقاء (مؤآب القديمة) شرقى البحر الميت، فوق الجرف المسيطر على طريق القوافل من دمشق الى الحجاز، و من دمشق الى مصر أيضا. و لم يعد فى استطاعة صلاح الدين ان يغض الطرف عن هذا كله، فعزم فى أوائل ۱۱۸۷ على ان يبطش بالمعتدين بطشة كبرى. ثم

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۴۱

قبة الصخرة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۴۲

انه أمر قواته السورية بالاحتشاد فى حارم ليسير هو نفسه الى منطقة الكرك فيلتقى بهذه القوات عند بخيرة طبرية. عندئذ حشد ملك القدس جيشا عظيما من الفرسان فى صفورية، و بدلا من ان ينتظر هجوم صلاح الدين فى هذا الموقع الستراتيجى الصالح نازعته نفسه ان يهاجم المسلمين فى اتجاه طبرية، و كانوا قد احتلوها، فالتقى الفريقان فى سهل مرتفع الى الغرب من البحيرة صعب. كثير الحجارة، عديم المياه هو سهل حطين. و هناك أنزل صلاح الدين بالجيوش الصليبية هزيمة قاضية، و أسر ملك القدس نفسه. حتى اذا كان أيلول سنة ۱۱۸۷ انتهى صلاح الدين و جنوده الى أبواب بيت المقدس، التى اضطرت الى الاستسلام فى ذلك الشهر نفسه . و على مشهد من جميع أفراد أسرة صلاح الدين تقريبا دخلت المدينة المقدسة مرة ثانية فى حوزة المسلمين و هدم صلاح الدين جميع أماكن العبادة النصرانية فى هذه البقعة المقدسة (كذا) و فى غير ما إبطاء سعى الى ان يقضى على آخر آثار الحكم الصليبى فى المشرق ..

و تعليقا على قول بروكلمان بان صلاح الدين «هدم جميع اماكن العبادة النصرانية فى هذه البقعة المقدسة» نقول ان هذا غير صحيح، فان صلاح الدين لم يهدم سوى التعديلات و التشويهات التى أدخلها الصليبيون فى قبة الصخرة و المسجد الأقصى و هما من أماكن العبادة الاسلامية التى حولها الصليبيون الى كنائس كما لا يخفى. و لم يشر بروكلمان كذلك الى المرجع الذى استند اليه فى تجنيه هذا (راجع قول انطونى و يست بعد صفحات قليلة). يضاف الى ذلك ان بروكلمان نفسه يذكر فى موقع آخر من كتابه هذا (الص ۳۵۵ من الترجمة) ان صلاح الدين سمح للنصارى بزيارة القدس حجاجا عزلا من السلاح. موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۴۳

و يعدد صلاح الدين كذلك (الص ۳۶۰) آثار صلاح الدين العمرانية فيقول انه خدم فن العمارة خدمات جلى فى القدس و القاهرة. فأما فى القدس فقد كان له فضل تجديد المسجد الأقصى، الذى اتخذه الصليبيون قصرا لهم، و تزيينه بالفسيفساء و الرخام. ليس هذا فقط بل لقد أقام فيه منبرا نفيسا أتى به من حلب، و ما زال باقيا الى اليوم.

و يذهب الدكتور فيليب حتى فى كتابه الذى ألفه بالانكليزية عن تاريخ العرب الى تأييد الكثير من أقوال السيد أمير على التى أوردناها عن الصليبيين.

فهو يقول (الص ۶۳۹) عن ما حدث عند استيلائهم على القدس انهم فى ۱۵ تموز هاجموا المدينة المقدسة و استولوا عليها بعد حصار دام شهرا واحدا، و ارتكبوا مجزرة لم يفرقوا فيها بين الرجال و النساء و لم يراعوا حرمة السن.

و أورد جملة من مرجع غربى تقول ان أكداسا من الرؤوس و الأيدى و الأقدام كانت تشاهد هنا و هناك فى شوارع القدس و ساحاتها.

اما عن موقعة حطّين فيقول الدكتور حتى ان صلاح الدين استولى على طبرية بعد حصار دام ستة أيام، و أعقب ذلك موقعة حطين المجاورة (۳- ۴ تموز). و قد بدأت فى يوم الجمعة يوم الصلاة الذى يتفاءل فيه صلاح الدين فى الحرب، و يعتبره الافرنج يوما سيئا. و كان عدد جيوش الصليبيين هناك يبلغ عشرين ألفا، لكنهم كانوا يشكون الحر و العطش فوقعوا كلهم تقريبا فريسة فى أيدى أعدائهم.

و كانت قائمة الأسرى المعروفين يتصدرها غى دى لوسينيان ملك القدس، فقابل السلطان المتصف بروح الفروسية الملك المنكوب بحفاوة صادقة. لكن صاحبه ريجنالد دى شايتون، معكّر صفو السلام، كان يستحق معاملة مختلفة. و ربما كان ريجنالد أكثر قادة اللاتين مجازفة و أقلهم تعقلا و أقدرهم على التكلم بالعربية. و كان و هو فى إمارة الكرك قد هاجم موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۴۴

القوافل الآمنة أكثر من مرة و نهبها حينما كانت تمر مما يقرب من أسوار حصنه المنيع، برغم مخالفة ذلك للاتفاقية المعقودة مع العرب. حتى انه أحضر اسطولا خاصا فى أيلة و أخذ يضايق فيه سواحل البلاد المقدسة فى الحجاز، و ينهب الحجاج القادمين اليها. و كان صلاح الدين قد أقسم ان يذبحه بيده هو عند سنوح الفرصة، فسنحت له فى هذه المرة. لكن ريجنالد استغل قواعد الضيافة العربية للتخلص من الموت بواسطتها فطلب شربة من الماء الموجود فى خيمة آسره، غير ان صلاح الدين لم يقدمها له لئلا تترتب عليها علاقة الضيف التى تستدعى العفو عنه. و بذلك دفع ريجنالد ثمن خيانته بحياته. و قد قرر انتصار العرب فى حطين مصير القضية الصليبية. فبعد حصار دام أسبوعا واحدا استسلمت القدس التى كانت قد خسرت حاميتها فى حطّين (۲ تشرين الاول ۱۱۸۷)، فحل الأذان فى المسجد الأقصى فى محل صوت الناقوس المسيحى و أنزل الصليب الذهب الذى كان يعلو قبة الصخرة من قبل رجال صلاح الدين. و هكذا مهد احتلال عاصمة المملكة اللاتينية لصلاح الدين الاستيلاء على معظم مدن سورية.

اما انطونى ويست فيذكر عن استرداد صلاح الدين لبيت المقدس قائلا: ان موقف النصارى فى مملكة بيت المقدس أخذ بالتردى عاما بعد عام، بعد ان خابت الحملة الصليبية الثانية. و مات نور الدين فاعتقد الصليبيون مدة من الزمن ان موته سيؤدى الى تشتيت المسلمين و ضعفهم، الا- أن صلاح الدين الذى حل محله كان زعيما أعظم منه. و مرض بالدوين الرابع ملك بيت المقدس فتوفى فى وقت كانت فيه المملكة بأمس الحاجة اليه .. و انتقل عرش بيت المقدس اثر ذلك الى غى دى لوسينيان. و كان يوم تتويجه يوم نحس لبيت المقدس .. لأنه كان متهورا عصبى المزاج و قد نفى من فرنسة لقتله رجلا فى شجار، و كان حديث عهد بالبلاد المقدسة و قليل المعرفة بأساليب قتال المسلمين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۴۵

و قد أشار كل الموجودين فى بيت المقدس ان سبيله الوحيد للثبات فى وجه صلاح الدين هو اللجوء الى التريث .. فقد كان الفرسان خبراء بأساليب المسلمين عارفين صعوبة الحفاظ على الجيوش الاسلامية مجتمعة عند ما لا يكون هنا سوى قتال يسير. فلم يصغ (غى) لهم سمعا و قال انه لا شىء يرغمه على التصرف بجبن، و انه يعتقد ان الطريق لدحر صلاح الدين هو البحث عنه و ارغامه على خوض المعركة. و قاد غى قواته صاعدا مع وادى الأردن الى طبرية، عارضا قواته فى ديار المسلمين. و تراجع صلاح الدين أمامه مفسحا له المجال للابتعاد عن معاقله. و حينما تم له فى الأخير سحب النصارى الى مسافة كافية استدار بقواته داخلا بينهم و بين ديارهم قاطعا خط انسحابهم و حاصرا اياهم فى واد قاحل. و كان غى قد ورط نفسه فى مأزق حرج و بصحبته كل محاربى مملكته تقريبا، و قد حمل معه صليب الصلبوت الّذى أخذه من كنيسة القيامة فى بيت المقدس مستعملا اياه راية حرب. و الواقع ان غى كان قد ألقى بكل ما عنده فى لعبة مقامرة لم يكن لديه أى أمل فى كسبها. و كانت هذه معركة حطّين.

و قد نظر رجاله من التل المكسو بالأشواك الذى حصر فيه جيشهم الى واد أخضر فى أسفلهم حيث تشع و تسطع بحيرة طبرية، و لم تكن هناك قطرة ماء على التل. و كان اليوم حارا ركدت فيه الريح فى مطلع شهر تموز، و كانت الشمس تحرق النصارى بلا رحمة. و أشعل المسلمون النار فى مطلع النهار بالأشواك المحيطة بجيش غى و توجه الدخان الحار الخانق الى قمة التل فجفف حناجرهم. الا أن غى و رجاله على الرغم من موقفهم اليائس قاتلوا طوال النهار و عند ما استسلم آخر رجل منهم كان الاعياء الناتج عن الحر و الظمأ قد بلغ بهم مبلغا جعلهم يقفون على أقدامهم بصعوبة، و قد بلغ الضعف ببعضهم حدا جعلهم يعجزون عن تسليم سيوفهم للمنتصرين. و عند ما انهارت مقاومتهم بكى صلاح الدين فرحا، فقد عرف ان قوة مملكة بيت المقدس قد دمرت و أنه قد استرجع المدينة المقدسة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۴۶

و قضى صلاح الدين بقية الصيف يحتل قلاع النصارى واحدة بعد أخرى و فى تشرين الأول صلى صلاة الشكر فى جامع عمر فى بيت المقدس. و كان صلاح الدين عادلا رحوما فأبقى على حياة (غى دى لوسينيان) و سمح لأسر الفرسان النصارى الذين قتلهم بالذهاب أحرارا، و لم يحرق أية بناية نصرانية فى بيت المقدس. و بعد دخوله المدينة بثلاثة أيام أعاد الكنائس ثانية الى القسس، و أغلقت كنيسة القيامة ثلاثة أيام فتحت بعدها ثانية للزوار النصارى. الا أن حقيقة واحدة بقيت و هى أن صليب الصلبوت و المدينة المقدسة أصبحا بأيدى المسلمين. و عادت الأنباء الى أوربا تحمل خبر ضياع ما أنجزته الحملة الصليبية الأولى.

و مما يذكر عن صلاح الدين حينما استرد بيت المقدس من الصليبيين انه كان عطوفا على اليهود الذين كان عددهم يومذاك قليلا جدا. و من غريب ما حدث فى عهده هذا ان ثلاثمائة من أحبار اليهود و حاخاميهم جاءوا اليه الى القدس من فرنسة و انكلترة و فاتحوه فى السماح ليهود أوربة بالهجرة الى القدس فلم يحصلوا على نتيجة ملموسة فى هذا الشأن. إذ يبدو من أخبار القدس بعد خمسين سنة (۱۲۷۶ م) ان القدس لم يكن فيها سوى يهوديين اثنين فقط.

و كانا أخوين. و فى سنة ۱۳۲۷ كانت فى القدس جالية صغيرة من اليهود يتعاطى أفرادها مهنة الصباغة فى الغالب. اما فى بداية القرن الخامس عشر فقد كان فى المدينة المقدسة كنيس واحد لليهود لكن الجالية كانت مضايقة و مضطهدة بحيث هاجر أفرادها الذين لم يكونوا يزيدون على مئة أسرة، الى الخارج.

و كان عدد اليهود فى القدس خلال القرن الخامس عشر و القرن السادس عشر يتراوح على ما يظهر بين (۲۵۰) و (۱۵۰۰) نسمة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۴۷

رحلة بنيامين ۱۱۶۵ الى ۱۱۷۳ م

اشارة

و بنيامين هذا هو الرحالة الغربى بنيامين بن يونة التطيلى النبارى الأندلسى، و كان تاجرا من تجار اليهود فى الأندلس خلال القرن الثانى عشر الميلادى فأحب أن يسير فى بلاد العالم و يطلع على أحوال أخوانه اليهود فى كل بلد من البلاد التى يزورها علاوة على الأحوال الأخرى. و قد استغرقت رحلته من سنة ۱۱۶۵ الى سنة ۱۱۷۳ م، بعد أن بدأ بها من برشلونة، و قد زار العراق فى أيام الخليفة العباسى المستنجد باللّه. و كان قد كتب هذه الرحلة عند عودته الى الأندلس باللغة العبرية، فعثر على نسخة قديمة منها الاستاذ عزرا حداد فنقلها الى العربية فى بغداد و نشرها سنة ۱۹۴۵ .

و لقد زار بنيامين فى رحلته هذه البلاد الفلسطينية معظمها يومذاك فكتب ملاحظاته عنها، و كتب أشياء كثيرة عن بيت المقدس على الأخص. و كانت زيارته لها قبيل توفق صلاح الدين الأيوبى فى استردادها من الصليبيين. و لذلك وجدنا من المناسب ان نورد هنا ما يذكره هذا الرحالة اليهودى الغربى عنها و يبدو من الرحلة انه جاء الى القدس من لبنان فزار فى طريقه اليها عكا و حيفا و قيسارية و اللد و نابلس و وادى ايلون، و جبل المورية الذى يسميه «جرن داود» كذلك و يقول عنه انه مدينة جبعون القديمة، و لم يجد فيها أحدا من اليهود، و قد سميت باسم جرن داود كناية عن البيدر الذى كان يملكه رجل يبوسى من سكان أورشليم يدعى أرنه أو أرنان. و قد ظهر الملاك لداود و أوحى له بأن يشتريه فاشتراه و شيد فيه هيكلا و مذبحا للّه (حاشية المترجم).

و كانت بيت المقدس يومذاك تقع على مسيرة ثلاثة فراسخ من جبل موريه، و يقول عنها بنيامين انها: بلدة صغيرة عظيمة التحصين تحيط بها ثلاثة أسوار.

و فيها عدد كبير من اليعاقبة و السريان و الأرمن و اليونان و الكرج و الافرنج،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۴۸

خليط من كل أمة و إنسان. و فيها معمل للصباغة يستأجره اليهود من ملك القدس سنويا فتنحصر بهم هذه المهنة دون غيرهم. و يبلغ عددهم فى هذه المدينة حوالى المئتين .. و يقول الاستاذ عزرا حداد فى التعليق ان الصليبيين حينما فتحوا القدس ذبحوا يهودها الا النزر اليسير منهم. و بعد عشر سنوات من زيارة بنيامين هذه لم يجد فيها الرحالة فتاحية (اليهودى) غير يهودى واحد .. و يتابع بنيامين قوله عن القدس بان هذه الزمرة القليلة من اليهود يقيمون فى حى مجاور لبرج داود، و البرج و اغل فى القدم و ترتفع أساساته الى عشرة أذرع، و هو من بناء أسلافنا الأقدمين، و الباقى شيده المسلمون، و ليس فى المدن بناء آخر يضارع برج داود متانة و سموا. و فى القدس مستشفيان يتسعان لايواء اربعمائة من فرسان الاسبتارية عدا المرضى الذين يجهزون بكل ما يلزمهم فى الحياة و بعد الممات .. و فى الحاشية يقول المترجم ان يوحنه ورتزبورغ احد الحجاج المسيحيين زار بيت المقدس بين سنتى ۱۱۶۰ و ۱۱۷۰ م، فوصف المستشفى بقوله: و بالقرب من كنيسة يوحنا المعمدان يقوم مستشفى فيه عدد كبير من النساء و الرجال و المرضى، و ينالون العناية التى تكلف نفقات باهظة. و قد بلغنى لما كنت هناك ان عدد اولئك المرضى بلغ الألفين، و قد يبلغ عدد الموتى منهم الخمسين فى اليوم الواحد، و قد يعالج بالعيادة الخارجية بقدر عدد المرضى المقيمين فى المستشفى، هذا فضلا عن أعمال الإحسان التى لا تقدر. إذ يتصدق يوميا على السائلين و أبناء السبيل بالخبز.

و يقول بنيامين كذلك ان فى القدس البناية المسماة «معبد سليمان» و يزعم البعض أنها من أنقاض مقدس الملك سليمان. و يقيم فى هذه البناية نحو ثلاثمائة من فرسان المعبد يمارسون فنون الحرب و القتال. و يوجد عدا هؤلاء فرسان يتوافدون من بلاد الافرنج و سائر ديار النصارى. من الذين ينذرون الخدمة فى هذا المقام سنة أو سنتين.

و بالقدس كنيسة كبرى تدعى كنيسة الضريح المقدس منسوبة الى مسيح النصارى، يحج اليها عدد غفير منهم. و للقدس أربعة أبواب: باب ابراهيم.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۴۹

و باب داود، و باب صهيون، و باب يوشفاط. و هذا الأخير يحاذى الموضع الذى كان بيت المقدس مستويا عليه فى قديم الزمن. و عليه اليوم البناء الذى يسميه الافرنج «المعبد المقدس»، و قد عقد عليه عمر بن الخطاب (كذا) قبة عظيمة أنيقة. و ليس يسمح لأحد ان يدخل فيها تمثالا أو أيقونة لأنها محل خاص بالعبادة.

و قبالة هذا البناء يوجد الحائط الغربى، و هو من حيطان قدس الأقداس فى الهيكل القديم، و يسميه اليهود «باب الرحمة» و يحجونه لاقامة الصلاة فى باحته.

و تشاهد بالقدس أطلال الاصطبلات التى عمرها الملك سليمان بجوار قصره.

و قد استعمل فى بنائها الصخر الجسيم المنحوت، مما لا نظير له فى بناء آخر.

و هناك ايضا أطلال المذابح التى كانت الأضاحى تقدم عليها فى سالف الأزمان.

و من عادة حجاج اليهود ان يكتبوا اسماءهم على الحيطان الملاصقة لهم.

و بظاهر المدينة من باب يوشفاط يشاهد النصب الذى أقامه أبشالوم.

و مرقد الملك عزية و نبع سلوان الذى يمر بوادى قدرون، و فوق هذا النبع بناء من آثار الأسلاف و ليس فيه من الماء الا اليسير. و غالب أهل القدس يشربون ماء المطر يجمعونه من صهاريج معدة لهذا الغرض فى البيوت. و من عدوة وادى يوشفاط يصعد الى جبل الزيتون، و منه يمكن مشاهدة سدوم. و بين بحر سدوم و نصب الملح الممسوخ عن امرأة لوط فرسخان، و يقال ان السائمة تلحس هذا النصب يوميا ثم يعود الى سابق هيئته. و يحاذى القدس جبل صهيون (و هو تل عريض مرتفع فى القدس، وجهه الغربى يعلو ۴۰۰ قدم فوق وادى جهنم يبلغ طوله ۲۴۰۰ قدم و ينتهى عند باب الخليج .. من الحاشية) و على هذا الجبل بيعة للنصارى و ثلاث مقابر قديمة

لليهود، فوق كل قبر حجارة محفور عليها تاريخه- لكن الأفرنج يهدمون هذه القبور و يستعملون حجارتها لبناء بيوتهم.

و تحيط بالقدس الجبال الشاهقة، منها جبل صهيون، عليه قبر الملك داود

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۵۰

و سائر الملوك من آله. و هى عافية الآثار لا تكاد تعرف فى الوقت الحاضر.

و قد حدث قبل خمس عشرة سنة ان تداعى جدار البيعة التى على جبل صهيون، فامر البطريرك بعض أتباعه من الرهبان باعادة رمّه. و أوصاهم بأن يأخذوا الحجارة من أسوار صهيون الشرقية. فعكف عشرون عاملا على اقتلاع الحجارة من أسوار صهيون.

و حدث ان عاملين تربط بينهما صداقة وثيقة كانا قد تأخرا عن موعد العمل لانشغالهما بمأدبة. فأنحى عليهما رئيس العمل بالتقريع، و وعدا بأن يكملا العمل خلال أوقات الراحة عند ما ينصرف رفاقهما للغداء. و بينما هما يشتغلان منفردين اقتلعا حجارة وجدا تحتها فجوة تؤدى الى غار عميق.

فقال أحدهما للآخر: هلم نر ما فى هذا الكهف عسانا نعثر على كنز، و لما ولجا الغار وجدا نفسيهما وسط قاعة كبرى محكمة، معقود سقفها على أساطين من رخام موشاة بفضة و ذهب. و فى القاعة خوان عليه صولجان و تاج من خالص الذهب. و يتوسط القاعة قبر داود ملك اسرائيل، و الى يساره قبر ولده سليمان و قبور سائر الملوك من آل داود. و وجدا كذلك صناديق مقفلة لم يعرفا مضمونها. و بعد مضى برهة و جيزة هبت عليهما ريح صرصر عاتية طوحت بهما الى الأرض، فبقيا بلا حراك حتى وقت الغروب. و عندها هتف بهما صوت آدمى يقول: انهضا و بارحا المكان.

هرول الرجلان نحو ظاهر الكهف فاسرعا الى البطريرك يقصان عليه ما شاهداه و سمعاه. فاستدعى البطريرك اليه الربن ابراهيم القسطنطينى الناسك من بكائى أورشليم و قص عليه الحادث. فأيد الربن كون هذا الكهف مرقد الملوك من آل داود. أما العاملان فانهما لازما فراش المرض لهول ما شاهداه و رفضا دخول المغارة مرة أخرى. و عندئذ أمر البطريرك بردم بابه حتى طمست معالمه عن الناس. هذا ما قصة ابراهيم الناسك نفسه. و يعلق المترجم على ذكر ابراهيم القسطنطينى هذا بقوله ان الرحالة اليهودى فتاحية الذى زار القدس بعد عشر سنوات وجد فيها يهوديا واحدا فقط يدعى «ابراهيم الصباغ»،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۵۱

ربما كان ابراهيم القسطنطينى الذى يشير اليه بنيامين. و يضيف فتاحية قوله ان ابراهيم هذا يؤدى للملك ضريبة فادحة لكى يسمح له بالبقاء هناك. اما فيلكس فابرى الحاج المسيحى الذى زار القدس أيام استعادتها من قبل صلاح الدين الأيوبى (۱۱۸۷ م) فيذكر انه وجد فيها نحو خمسمائة يهودى و نحو ألف نصرانى (رحلة فابرى ۹- ۲۲۶).

هذا ما يقوله الرحالة بنيامين الأندلسى عن بيت المقدس، و هو يذكر بالاضافة الى ذلك أشياء كثيرة أخرى عن سائر بلدان فلسطين معظمها. و من جملة ما يعتنى بذكره عدد اليهود الموجودين فى كل منها، و قد وجدنا من المناسب ان نورد فيما يأتى جدولا بالأعداد المذكورة علها تفيد، هى و الأرقام التى أوردناها قبيل هذا، فى دحض الحجج التى تقدمها الصهيونية اليوم لامتلاك فلسطين، اذا كانت قد بقيت أية فائدة للحجج و البراهين:

البلدة/ عدد اليهود فيها/ البلدة/ عدد اليهود فيها

القدس/ ۱/ بيت لحم/ ۱۱

عكا/ ۲۰۰/ الخليل/ لم يذكر شيء

حيفا/ لم يذكر شيء/ بيت جبرين/ ۳

قيسارية/ ۲۰۰/ قلعة الحصن/ ۳۰۰

قاقون/ ليس فيها/ سنت صموئيل/ لم يذكر شيء

اللد/ ۱/ بيسان/ ليس فيها

سبسطية/ ليس فيها/ بيت النبى/ ۲

نابلس/ ليس فيها/ بيت النبى/ ۲

جبل جلبوع/ ليس فيها/ الرملة/ ۳۰۰

وادى أيلون/ ليس فيها/ يافا/ ۱

أبلين/ ليس فيها/ تبنين/-

اشدود/ ليس فيها/ حوش/ ۲۰

عسقلان/ ۲۰۰/ ميزون/ لم يذكر شيء

زيرين/ ۱/ علمة/ ۵۰

صفورية/ لم يذكر شيء/ قادس/ ليس فيها

طبرية/ ۱۰۰/ المجموع/ ۱۳۹۰

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۵۲

هذا مع العلم ان عدد اليهود فى مدن أخرى يومذاك، على ما يذكر بنيامين نفسه، كان فيها عدد كبير جدا من اليهود. فقد كان فى دمشق ۳۰۰۰ يهودى، و الكوفة ۷۰۰۰، و الحلة ۰۰۰، ۱۰، و البصرة ۰۰۰، ۱۰، و بغداد ۰۰۰، ۴۰، و عكبرة ۰۰۰، ۱۰، و حربى ۰۰۰، ۱۵، و العزير (نهر سمره) ۱۵۰۰.

رحلة الى القدس فى ۱۶۹۷ م

و مما عثرنا عليه من الرحلات القديمة الى القدس رحلة قام بها قسيس انكليزى كان ملحقا بالمحطة التجارية الانكليزية فى حلب يومذاك. و قد رغب هو و أربعة عشر بريطانيا كانوا فى تلك المؤسسة فى ان يحجوا الى بيت المقدس فى عيد الفصح. فتركوا حلب يوم الجمعة المصادف ۲۶ شباط ۱۶۹۶ فى قافلة خاصة بهم. و قد طبعت هذه الرحلة أولا فى نيسان ۱۷۰۳، ثم طبعت طبعات أخرى راجعنا منها الطبعة الرابعة التى طبعت فى أوكسفورد سنة ۱۷۲۱. و هى عبارة عن رحلة دينية فى الغالب، برغم ما فيها من معلومات عن أشياء أخرى طريفة لا سيما فى الطريق الى القدس.

و قد سارت القافلة فى طريق محاذية للبحر فخرجت من حدود پاشوية حلب، ثم دخلت الى پاشوية طرابلس التى كانت تعود لها جبال النصيرية.

و تمر القافلة بعد ذلك بميناء بانياس المعروف. ثم بما يقابل جزيرة أرواد من الساحل. و بعد ذلك يمرون بأنهر عدة قبل الوصول الى طرابلس الشام. و فى الرحلة وصف لطرابلس و الزيارة التى زاروا الوالى فيها. و من هناك وصلوا فى طريقهم الى المدينة اللبنانية المعروفة منذ القدم و هى جبيل، اى بيبلوس التى موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۵۳

كان فيها معبد أدونيس على ما يقول صاحب الرحلة. و يذكر هنا ان حيرام الملك الفينيقى جعل أهالى جبيل يعدون المواد التى طلبها منه سليمان الحكيم حينما بنى هيكله فى بيت المقدس، على ما يذكر فى التوراة. و من ثم تمر القافلة بنهر ابراهيم حتى تصل الى خليج جونية، و بقربه تلتقى حدود پاشويتى طرابلس و صيدا فى جبال كسروان على ما يقول موندرل. و قد توجهوا بعد ذلك الى نهر الكلب الذى دفعوا قبل الوصول اليه الخاوة الى المارونيين الذين يقول عنهم القس الرحالة أنهم أكثر تعسفا و عجرفة من الأتراك أنفسهم.

و قد وجدوا على نهر الكلب جسرا جيدا بأربعة عقود كتبت على قطعة مرمر بيضاء فى جانبه كتابة عربية تشير الى اسم مشيده الأمير فخر الدين. ثم وصلوا الى نهر بيروت فوجدوا مشيدا فوقه جسرا حجريا بستة عقود، و من هناك وصلوا الى بيروت التى وجدوها مدينة

منورة. و من طريف ما يذكر موندرل عنها نبذة عن الأمير فخر الدين المعنى الذى يقول ان مسكنه الرئيسى كان فيها.

و كان يحكمها فى أيام السلطان مراد الرابع، بينما كان هو الأمير الرابع للدروز.

ثم يذكر ان الأمير فخر الدين تمكن بقوته و دهائه من توسيع ممتلكاته فاستولى على الساحل الممتد من بيروت الى عكا فى فلسطين، حتى اضطر السلطان الى إجباره على الرجوع إلى منطقته الجبلية فقط، و عند ذاك تمرد عليه. و يظهر ان الرحالة هو و جماعته تمكنوا من زيارة قصر الامير فخر الدين الواقع فى القسم الشمالى الشرقى من بيروت. و حينما يأتى على ذكر القصر يقول إنه فى حالة خربة، لكنه يثنى على بستان البرتقال المحيطة به. و يعجب كيف ان أميرا شرقيا مثل الامير فخر الدين يستطيع انشاء مثل هذا القصر و هذه البستان الرائعة، ثم يستدرك قوله و يذكر السبب. و هو ان الأمير سبق له ان زار ايطالية و اطلع فيها على اشياء كثيرة استطاع تقليد قسم منها. و قد وجد تماثيل كثيرة منتشرة فى انحاء البستان فاستنتج منها ان الأمير لم يكن من المسلمين المتحمسين لديانتهم.

و حينما غادر موندرل و قافلته بيروت يوم ۱۹ مارت صادف بعد مسيرة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۵۴

ثلث ساعة فقط حرش الصنوبر الذى يقول انه يعود الى الأمير فخر الدين كذلك، و قدر اتساعه بان طوله يزيد على نصف الميل. و هو يثنى على جمال هذا الحرش و منظره الخلاب، ثم يقول انهم وجدوا على مسافة من السهل الذى سارت فيه القافلة من اليسار قرية تعود للدروز تسمى «سوق فوات»

Suekfoat

و لعله يقصد الشويفات الحالية. فأمير هذه القرية هو أحمد حفيد الأمير فخر الدين. و كان أحمد متقدما فى السن محتفظا بتقاليد أسرته.

و فى طريق القافلة الى فلسطين وصلت الى صيدا فاستقبل القافلة جمع من الفرنسيين الموجودين فى صيدا و استضافوا من فيها. و كان القنصل الفرنسى فيها يحمل رتبة قنصل فى بيت المقدس كذلك. و هو مجبر على ما يقول موندرل على زيارة المدينة المقدسة فى عيد الفصح من كل سنة بحجة تفقد الأماكن المقدسة فيها و الاطمئنان على سلامتها و سلامة الرهبان القيّمين عليها من جور الأتراك. لكنه يقول ايضا ان الرهبان المذكورين يشعرون فى الحقيقة بشىء أكثر من الاطمئنان و الأماكن من دون مراقبة القنصل.

و قد كان المستر موندرل و جماعته راغبين فى مرافقة القنصل هذا فى حجه إلى بيت المقدس هذه السنة، فبعثوا يكتبون اليه بالأمر من حلب، ليستطيعوا بحمايته تجنب ما قد يصيبهم من عبث العرب و الأتراك الذى يزداد فى فلسطين و حوالى القدس خاصة، على حد قوله. و قد سرهم كثيرا حينما وصلوا الى عكا بعد ذلك فوجدوا القنصل الفرنسى بانتظارهم، و فى صباح اليوم التالى توجهوا الى القدس، و بعد مسيرة قصيرة فى محاذاة الساحل تركوه متوجهين الى بغيتهم عن طريق الناصرة. فمروا بمنطقة نابلس و بير يعقوب، و بعد ساعتين وصلوا الى قمة شاهدوا من فوقها عن بعد القدس لأول مرة، و بمسيرة ساعة أخرى وصلت القافلة الى أسوار المدينة المقدسة.

غير انهم كان عليهم ان ينتظروا حتى يعلموا الحاكم بوصولهم و يستأذنوا منه بالدخول، لأن الافرنجى كان لا يستطيع الدخول الى المدينة المقدسة من دون هذه المراسيم، و لذلك قصدوا الجانب الغربى من السور حتى وصلوا الى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۵۵

الزاوية الكائنة فوق باب بيت لحم، و هناك وقفت القافلة بانتظار اذن الدخول، و كان المطلوب من الفرنج ما لم يكونوا بصحبة شخصية مهمة ان يترجلوا عند الباب و يلقوا سلاحهم فيدخلوا راجلين. و لما كانت قافلة المستر موندرل فى معية القنصل الفرنسى لم يطلب اليها ان تفعل ذلك عند الدخول، و بعد هذا أخذهم القنصل الى بيته الخاص فى القدس و نزلوا فى ضيافته طوال مدة بقائهم فيها. و بعد استراحة قليلة ذهبوا الى دير اللاتين حيث كان يحتفى بجميع الحجاج الفرنج، فاستقبلهم رئيس الدير بكل حفاوة ثم تناولوا

العشاء فى الدير.

الأماكن المسيحية المقدسة

و لا شك ان جميع ما فى الرحلة هذه عن القدس يدور حول زيارة الأماكن المسيحية المقدسة و وضعها يومذاك. و لما كان يوم الجمعة ۲۶ مارت هو يوم الجمعة الحزينة عند اللاتين يقول موندرل ان القنصل الفرنسى ذهب الى كنيسة الضريح المقدس (كنيسة القيامة) لاداء الزيارة فذهبوا معه برغم ان الجمعة الحزينة عند الانكليز تأتى بعد أسبوع من هذا التاريخ. فوجدوا باب الكنيسة يحرسها عدد من الانكشارية و الضباط الأتراك، الذين يقول عنهم انهم وضعوا هنا ليلاحظوا أن جميع الداخلين قد دفعوا الرسوم المطلوبة و تختلف الرسوم باختلاف الاشخاص و البلاد التى يأتون منها الى الحج، اما الافرنج فقد كانت العادة ان يدفع كل منهم أربعة عشر ريالا الا اذا كانوا من رجال الدين فيؤخذ منهم نصف المبلغ. و بعد ان يدفع الشخص هذا الرسم يكون حرا فى الدخول و الخروج متى شاء خلال موسم العيد كله.

و يذكر موندرل ان الحجاج بعد ان دخلوا الكنيسة كلهم سدت أبوابها فى المساء و بقيت كذلك الى يوم الفصح، فبقوا محجوزين فيها ثلاثة أيام. و قد قضوا وقتهم فى مشاهدة المراسيم التى يقيمها اللاتين فى هذه المناسبة، و زيارة الأماكن المقدسة واحدة بعد أخرى فى الداخل بكل حرية. و مما يقوله عن

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۵۶

الكنيسة انها مقامة على جبل الجمجمة الذى هو عبارة عن قمة فوق جبل موريا . و كان هذا الموقع مخصصا فى قديم الزمان لاعدام المجرمين، و لذلك كان فى معزل عن المدينة خارج السور. و لكنه حينما جعل المذبح الذى صلب فيه السيد المسيح صار هذا الموقع يتمتع بسمعة مشرفة و قدسية ما بعدها من قدسية، و صار المسيحيون يحجون اليه و هم فى أشد حالات الخشوع من جميع أنحاء العالم، تقدمت المدينة اليه و صارت تحيط به من جميع الجهات حتى أصبح فى وسط بيت المقدس. و قد ترك قسم كبير من جبل صهيون خارج السور ليفسح المجال للناس بالمرور الى المذبح. و حينما شيدت الكنيسة فوق التل سويت الأرض فى بعض جهاته خوفا من ان تمس الأماكن المقدسة التى لها علاقة بمأساة السيد المسيح. فبقى المكان الذى يقال انه كان مشدودا فيه، و المكان الذى رفع فيه على الصليب. من دون ان يمس بشىء. و تقدر مساحة هذه البقعة بحوالى عشر الى اثنتى عشرة ياردة مربعة. و هى أعلى من ساحة الكنيسة المحيطة بها بحيث صار الناس يصعدون اليها بدرجات يبلغ عددها احدى و عشرين درجة. اما الضريح المقدس نفسه، الذى كان بادىء ذى بدء مغارة محفورة فى الصخر تحت الأرض، فقد قطعت الصخور من حوله و أزيل الكثير منها حتى أصبح و كأنه كهف فوق سطح الأرض.

و يبلغ طول الكنيسة أقل من مائة خطوة، و عرضها يزيد على الستين خطوة.

و مع ذلك فهى تشتمل بين جدرانها على اثنتى عشرة بقعة مقدسة او ثلاث عشرة، و ليست قدسية هذه البقع بالقدسية الاعتيادية و انما هى قدسية بالغة الأهمية تختص بالسيد المسيح. فهناك أولا المكان الذى أقدم فيه الجنود الرومان على الهزء به، و ثانيا الموقع الذى مزقوا فيه ثيابه. ثم المكان الذى حبس فيه بينما كان الجنود يحفرون الأرض لتثبيت الصليب فيها و يعدون العدة لصلبه.

ثم المكان الذى ثبت فيه جسمه المقدس فى الصليب بالمسامير. و بعد ذلك الموقع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۵۷

الذى أقيم فيه الصليب. و حيث وقف الجنود الذين ثقبوا جنبه. و حيث مسح جسمه بالزيت، على سبيل التكريس قبل دفنه، و حيث أودع الجسم فى الضريح. ثم الموقع الذى ظهرت فيه الملائكة للنساء بعد بعثه، و حيث ظهر هو فيه لمريم المجدلانية. و غير ذلك.

و فى أروقة تمتد حول الكنيسة، و كذلك فى أبنية صغيرة ملحقة بها من الخارج، توجد شقق لاستقبال الرهبان و الحجاج، و تحتفظ كل أمة من الأمم المسيحية القديمة فى هذه الأماكن بجماعة صغيرة من رهبانها. و قد خصص الأتراك لكل جماعة من هؤلاء مكانا معينا لها، فهناك اللاتين، و اليونان، و السوريون، و الأرمن، و الأحباش، و الكرج، و النساطرة، و الأقباط، و المارونيون الخ.

و يشير المستر موندرل بتأثر بالغ الى الخصومة الموجودة بين الفرق المسيحية فى بيت المقدس، و المنازعات الدامية التى تحدث بين رجال الدين المسيحى حتى قرب الضريح المقدس حول إقامة القداس و أقدمية كل فرقة من الفرق فى هذا الشأن. ثم يقول بحسرة بعد ذلك: كيف يمكن بهذه الحالة انقاذ الأماكن المقدسة من أيدى الكفار؟!! و اذا ما تم ذلك ما الذى سيحدث من أنواع الخصومة و النزاع يا ترى؟ و يذكر بعد هذا ان ملك فرنسة لأجل ان يضع حدا لهذه الخصومات و تلك الحالة المزرية كتب الى الصدر الأعظم فى استانبول قبل اثنتى عشرة سنة كتابا يطلب فيه وضع الضريح المقدس فى أيدى اللاتين تنفيذا لشروط الامتيازات المعقودة فى سنة ۱۶۷۳. و لم يتم ذلك الا فى سنة ۱۶۹۰ على ما يقول موندرل، فأصبح من حق اللاتين وحدهم إقامة القداس هناك. و مع ان المسيحيين بأجمعهم يسمح لهم بالزيارة و الصلاة فى الداخل، فليس بوسع أحد منهم إجراء أى شعيرة مقدسة رسميا سوى اللاتين.

ثم يأخذ موندرل بوصف ما يقوم به رجال الدين من واجبات فى هذه الكنيسة، و يبدأ بعد ذلك بوصف المراسيم الدينية التى أجراها اللاتين بمناسبة الموسم، فهو يقول ان المراسيم تبدأ فى مساء الجمعة الحزينة، و يسميها اللاتين «نوكس نينيبروزا» و هى تقام بشىء كثير من الوقار و الجلال يجعله يأتى على

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۵۸

وصفها بالضرورة. فيقول: ما ان خيّم ظلام ذلك اليوم على البلد حتى أخذ الرهبان و الحجاج جميعهم بالاجتماع فى «مصلى الشيح» الكائن فى الجهة الشمالية من الضريح المقدس بالقرب من مساكن اللاتين، لأجل أن يخرجوا بموكب يدور فى الكنيسة. و لكنهم قبل ان يفعلوا ذلك ألقى احد الرهبان خطبة وعظ بالايطالية فى ذلك المصلى، و حينما بدأ بها أطفئت الشموع جميعها فبقى المجتمعون نصف ساعة فى الظلام و هم يستمعون الوعظ. و بعد الانتهاء من ذلك أخذ كل من الحاضرين شمعة بيده، و رفعت الصلبان ليبدأ الموكب.

و كان بين الصلبان صليب كبير جدا يحمل صورة السيد المسيح بالحجم الطبيعى، و قد ثبتت فيه بمسامير كبيرة كسيت رؤوسها بأشواك ملطخة بالدم. و قد حمل هذا الصليب فى مقدمة الموكب و تبعه الجميع لزيارة جميع البقع المقدسة و هم يرتلون التراتيل المناسبة فى كل منها.

و كانت أول بقعة زارها الموكب «عمود الضرب» الذى يحتفظ بقسم كبير منه فى غرفة من غرف المصلى المذكور، و هنا رتّل الترتيل المناسب و القى أحد الرهبان آخر خطبة وعظية بالاسبانية. و توجهوا من هناك بخشوع الى «سجن المسيح» حيث أودع السيد المسيح، على ما يزعمون (هذا ما يقوله موندرل)، حينما كان الجنود الرومان يعدون ما يلزم لصلبه. و هنا رتّلوا على الشاكلة نفسها ترتيلة أخرى و انبرى راهب ثالث فخطب بالفرنسية. و من هناك توجهوا الى البقعة التى مزقت فيها ملابس السيد المسيح فرتلوا ترتيلة دينية فيها فقط من دون خطبة. ثم قصد الموكب «مصلى السخرية» فألقى بعد الترتيلة راهب رابع خطبة وعظ بالفرنسية كذلك.

و ذهبوا بعد هذا الى الموقع الذى صلب فيه، فتركوا أحذيتهم فى أسفل السلالم. و يوجد هنا مذبحان للزيارة، أحدهما البقعة التى يعتقد ان السيد المسيح سمّر جسمه فيها بالصليب، و الأخرى البقعة التى أقيم فيها الصليب نفسه.

فوضعوا الصليب الكبير فى الأولى على الأرض، و بعد الترتيل القى خطبة الوعظ بالاسبانية راهب من الرهبان. ثم انتقلوا الى المذبح المجاور حيث يعتقد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۵۹

ان الصليب قد أقيم فيه و هو يحمل السيد المسيح. و فى هذا المذبح توجد حفرة صغيرة فى الصخرة الطبيعية التى يعتقد انها نفس

الحفرة التى ثبت فيها الصليب يومذاك. و هنا نصبوا الصليب الذى كان يحمل الصورة الدامية، و قرأوا بعض التراتيل، و فى كرسى وضع بين يدى الصليب جلس الأب الحارس و ألقى خطبة وعظ مؤثرة باللغة الايطالية، و على بعد ياردة و نصف من حفرة الصليب كان يلاحظ الشق المشهور فى الصخرة، الذى يقال انه حدث على اثر الزلزال الذى وقع حينما كان يصلب المسيح. و هنا يناقش موندرل صحة وقوع هذا الحادث و ماهية الشق المذكور.

و بعد انتهاء هذه المراسيم تقدم راهبان يمثل أحدهما يوسف الأرثيمى و الآخر يمثل نيكوديم فعمدا الى خلع المسامير من الجسد المصلوب و انزلاه فوضعاه فى قطعة كبيرة من القماش و سار الموكب به الى حيث توجد «صخرة المسح بالزيت»، و هو المكان الذى يعتقد انه نفس المكان الذى جهزت فيه جثة السيد المسيح و أعدت للدفن. و هنا وضعوا الجثة المزعومة و ألقوا عليها عددا من المساحيق الطيبة و الأفاويه، ثم لفوها بالقماش. و بينما كان يتم ذلك كان الجميع يرتلون التراتيل المناسبة، و قام أحد الرهبان بعد ذلك و ألقى خطبة دينية باللغة العربية. و بعد الانتهاء من هذه المراسيم الطويلة كلها حملوا الجثمان الملفوف و وضعوه فى الضريح المقدس ثم أغلقوا الباب عليه الى يوم الفصح.

و يقول موندرل ان كثيرا من الحجاج ذهبوا فى صباح اليوم الثانى ليدمغوا أذرعهم بعلامة بيت المقدس المعروفة، بطريقة الوشم. و هنا يصف كيفية ذلك. اما فى صباح يوم الفصح فقد فتح الضريح المقدس منذ الصباح الباكر.

و قد أقيم القداس بقربه لأنه أبرز مكان فى الكنيسة، حيث جلس الأب الحارس على عرش أقيم له، و هو يرتدى الألبسة الأسقفية و التاج فوق راسه، بحضور الأتراك. و أخذ يوزع خبز القربان المقدس الى جميع من كان مستعدا لقبوله، و لم يرفض ذلك حتى الأطفال فى السابعة أو الثامنة من العمر.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۶۰

زيارة أماكن أخرى

يقول موندرل ان مراسيم الحج بعد ان انتهت صار بوسعهم الخروج لزيارة بعض الأمكنة المشهورة خارج سور البلدة. فبدأوا بالموجود منها فى الجهة الشمالية، و كان أول ما زاروه هناك كهف كبير على مقربة من باب دمشق (من الخارج)، يقال إنه كان مسكنا فى يوم من الأيام لجرميا. و أهم ما لاحظوا فيه المكان الذى كان يكتب فيه جرميا مناحاته و تفجعاته. و مما يورده موندرل هنا قوله ان هذا المكان كان ملجأ للدراويش حينما زاروه، و هو من الأمكنة التى يقدسها المسلمون- الذين يسميهم الأتراك- و اليهود و المسيحيون.

ثم زاروا ما يسمى بأضرحة الأنبياء، لكن موندرل يشكك فى التسمية لان الانبياء لم يدفنوا هنا على ما ترويه المراجع الدينية. و بعد عودتهم من أضرحة الأنبياء مروا بكهف ممتلىء بالماء القذر بالقرب من باب هيرود. و يظن انه المكان الذى حبس فيه الملك صدقيا جرميا.

و فى اثنين الفصح كانت العادة ان يأخذ حاكم بيت المقدس المسلم الحجاج المسيحيين بقيادته الى نهر الأردن لزيارة بعض الأماكن التاريخية. و يقول موندرل ان هذه السفرة شبه إجبارية لأن الپاشا يتقاضى عن كل افرنجى يشترك فيها اثنى عشر ريالا. فتجمعوا كلهم فى باب القديس اسطيفان على ما يقول، و كان عددهم حوالى ألف حاج من الجنسين و من كل الأمم تقريبا.

و قد ذهب موندرل من هناك مع جماعته الى سواحل البحر الميت. و من جملة ما يذكره عن سفرته الثانوية هذه انه وجد بين منتجات هذا المكان

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۶۱

النباتية ثمرة غريبة يسميها العرب «الزقون»، و لعله يقصد الزقوم. و يقول ان نبات هذه الثمرة ينمو بشكل شجيرة ذات أوراق صغيرة، و الثمرة أشبه بجوزة صغيرة غير ناضجة من حيث الشكل و اللون. و يعمد العرب الى سحن حبوب هذه الثمرة سحنا ناعما بالهاون، ثم

يضعون اللب فى ماء شديد الحرارة فيخرج منها نوع من الزيت طاف فوق الماء، و عندئذ يجمعونه للاستفادة منه عند الحاجة لمداواة القروح و الجروح. و يقول موندرل كذلك انه أخذ قنينة من هذا الزيت فوجده دواء كثير الشفاء، ثم يذكر بعد ذلك أن أوراد أريحا لم يستطع العثور عليها فى ذلك الموسم.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۶۲

القدس فى العهد العثمانى

و حينما عظمت شوكة العثمانيين و امتد نفوذهم حتى شمل البلاد العربية معظمها كانت فلسطين من جملة البلاد التى خضعت للدولة العثمانية فى عهد السلطان سليم. و قد وجدنا خلاصة موجزة عن فلسطين، التى لا يخرج تاريخها عن نطاق تاريخ القدس نفسها فى الغالب، فى كتاب الاستاذ أكرم زعيتر عن هذا العهد آثرنا ايرادها هنا إكمالا للبحث:

.. و بعد ما فتح السلطان سليم سورية أقبل على فلسطين و التقى قرب اللجون بجيش سلطان المماليك طومان باى، فهزمه و كرّ على القدس و سائر المدن الفلسطينية فاستولى عليها، ثم زحف على مصر ففتحها و عاد الى الاستانة.

و هكذا دخلت فلسطين فى حوزة الدولة العثمانية، و من أهم مآثرها ذلك السور الذى بناه سليمان القانونى حول القدس (۱۵۴۲). و من أهم الأحداث السياسية فى هذا العهد العثمانى ظهور شخصين فى فلسطين مثّلا على مسرحها دورا مهما، أولهما: (ظاهر العمر) شيخ صفد الذى ضم اليه طبرية و خضعت له نابلس و الناصرة و عكا (۱۷۵۰ م) فحصّنها و جعلها مقرّه على استمرار إدائه التزاماته المالية الى الدولة العثمانية ..

و ثانيهما: (أحمد الجزار) الذى كان مملوكا لعلى بك و جلادا استحق لقب الجزار، فقد هرب من مصر الى سورية و التحق بالجيش السورى الذى استرد صيدا من ظاهر العمر، ثم خلفه على عكا فأجاد تحصينها و انشأ اسطولا صغيرا و بنى جامعه المشهور باسمه فيها. ثم عينه السلطان واليا على دمشق (۱۷۷۰) فشمل نفوذه سورية كلها و لمع اسمه فى ردّ نابليون عن عكا (۱۷۹۹).

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۶۳

و بعد ان احتل نابليون مصر صار لا بد له فى طريقه الى الهند من احتلال القدس و فلسطين. فاحتل العريش، فغزة، فالرملة، ثم حاصر يافا التى كانت تدافع عنها حامية من جنود الجزار .. و راح يحاصر عكا التى كان الجزار يدافع عنها برا و يساعده فى الدفاع عنها بحرا الأسطول البريطانى ..

و بعد ما أباد محمد على المماليك فى مصر طمع فى توسيع ملكه. فجهز الى سورية جيشا بقيادة ابنه ابراهيم باشا ففتح العريش و الرملة و غزة، و نزل ابراهيم باشا الى يافا بحرا. ثم فتحت القدس و نابلس و حوصرت عكا (۱۸۳۱) .. و قد حكم ابراهيم باشا فى فلسطين عشر سنوات مملوءة بالشدة و البطش و فرض الضرائب و التجنيد الالزامى مما أدى الى ثورات فى نابلس و الخليل امتدت الى لبنان و شرق الأردن فاشتغل فى قمعها حتى استعادت الدولة العثمانية القدس و سائر اجزاء فلسطين .. انتهى.

و مما لا بد من ذكره هنا علاوة على ذلك أن استيلاء العثمانيين على القدس جعل الدولة العثمانية عرضة لدس اليهود و تحريكاتهم فى مختلف الاوقات و المناسبات. و قد سهل هذا الدسّ و التغلغل فى شؤون الدولة العثمانية حينما فتحت صدرها لليهود المطرودين من اسبانية سنة ۱۴۹۲، و رحبت بهم فآوتهم فى بلادها و أنزلتهم فى سلانيك التى استقروا فيها حتى يومنا هذا. و كان قسم غير يسير من حركاتهم المريبة يستهدف العودة الى القدس. و أول ما يذكر من هذا القبيل قصة يرويها المستر جفريز فى كتابه (حقيقة فلسطين)، نقلا عن كتاب الصهيونى المعروف نورمان بنتويش (فلسطين اليهود). فهو يقول ان رجلا من أسرة يهودية هاجرت من البرتغال يدعى دوم جوزيف ناسى ترقى به الحال فى الدولة العثمانية حتى أصبح من أكثر الديبلوماسيين العثمانيين حظوة لدى الدوائر العليا فيها. و قد حاول خلال مدة نفوذه هذه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۶۴

أن يؤسس مستعمرة يهودية فى إحدى الجزر اليونانية التابعة للدولة العثمانية، لكنه عدل عن فكرته و أقنع السلطان سليم الثانى فحصل منه على مقاطعة كبيرة من الأرض فى منطقة الجليل بفلسطين، و اذنا باعادة بناء بلدة طبرية من جديد و جعلها كلها خاصة بالسكان اليهود. لكن هذا المشروع لم يكتب له النجاح على ما يظهر. و مثل هذا النفوذ الذى حصل عليه هذا اليهودى عند السلطان سليم يؤيده ما جاء فى كتاب القائد التركى المتقاعد الجنرال جواد رفعت ايتلخان (الخطر المحيط بالاسلام) حيث يقول (الص ۶۵ من الترجمة العربية) ان السلطان سليم دبّر قتل أخوته ابناء سليمان. ليجلس فى مكانه على عرش آل عثمان ليجلس فى مكانه على عرش آل سليمان، و كان ذلك بتدبير من عشيقته اليهودية نوربانو التى كانت من نساء البلاط العثمانى يومذاك. و قد تزوجها بعد ذلك فانجبت له ابنه السلطان مراد الثالث، فبقيت خلال مدة هذين السلطانين صاحبة النفوذ و التسلط من وراء ستار.

ثم يقول جفريز (الص ۳۲): و فى النصف الأول من القرن السابع عشر كان عدد اليهود فى القدس نفسها لا يزيد على ألفى نسمة، ثم هبط هذا العدد الى ألف فقط سنة ۱۷۳۰. اما فى خارج القدس فقد كانت هناك جماعات قليلة منهم فقط و لا سيما فى صفد و طبرية. و بحلول القرن التاسع عشر يحل العهد الذى أخذ يزداد فيه هذا العدد. فقد أجرى نوع من الاحصاء فى ۱۸۵۶ فكان عدد يهود القدس فيه ۵۰۰۰ نسمة فقط، بينما ازداد عدد اليهود فى سائر انحاء فلسطين حتى قدر فى الثمانينات بعشرين ألفا. و حينما قويت حركة الاستيطان اليهودى فى فلسطين بعد ذلك بلغ عددهم ۰۰۰، ۸۵ نسمة قبيل الحرب العالمية الاولى سنة ۱۹۱۴.

و حينما ظهرت الصهيونية فى أواخر القرن التاسع عشر و أخذت أفكار العودة الى أرض الميعاد تتبلور فى أفكار اليهود كتب ثيودور هرزل اليهودى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۶۵

النمساوى كتابه (الدولة اليهودية) بالألمانية فى ۱۸۹۶. و يقول جفريز (الص ۳۶ و ۳۷) ان ذلك حصل على أثر حادثين وقعا فى تلك السنين:

أولهما الاضطهاد الذى أصاب اليهود فى روسية القيصرية بعد مقتل القيصر اسكندر الثانى سنة ۱۸۸۱، و الثانى قضية دريفوس الضابط اليهودى الفرنسى الذى نقل الى غينية على اثر خيانة اتهم بها فضج اليهود بسببها و أرسل هرزل كصحفى من فينة لحضور المحاكمة التى أجريت له فى باريس سنة ۱۸۹۱، و على اثر ذلك أقرّ المؤتمر الصهيونى الأول المعقود فى بازل بسويسرة سنة ۱۸۹۷، رسم الخطة المطلوبة لزيارة الهجرة اليهودية الى فلسطين، و المطالبة بوطن قومى لليهود فيها. و كان السلطان العثمانى يومذاك عبد الحميد الثانى، فتم الاتصال به و استبان بادىء ذى بدء نجاح التشبث بمنح السلطان للمنظمة الصهيونية امتيازا بتملك الأراضى فى فلسطين و استثمارها بواسطة شركة صهيونية خاصة تتألف لهذا الغرض. غير ان المساعى المذكورة سرعان ما فشلت لأن السلطان عبد الحميد رفض الطلب. لا سيما و قد لاحظ خلال المراجعات ان الرأى العام الاسلامى ضد المشروع كان أقوى مما يمكن ان يتجاهله. حتى انه وعد الفلسطينيين باصدار الأوامر اللازمة بمنع الهجرة اليهودية بتاتا الى فلسطين. و يضيف جفريز الى ذلك قوله ان فشل المشروع كان يعزى لحد كبير الى ان السلطان طلب من اليهود مقابل ذلك عشرة ملايين باون، فلم يستطع اليهود تدبيرها له. غير اننا نرى ان هذا الاتهام لفقّه اليهود للحط من شأن السلطان و الدسّ عليه، لأن المبلغ المطلوب لم يكن عزيزا على متمولى اليهود و موسريهم ان يجمعوه. و يؤيد رأينا هذا المساعى الحثيثة التى بذلوها بعد ذلك لخلعه على يد الاتحاديين الذين كان عدد غير يسير من أقطاب جمعيتهم (الاتحاد و الترقى) من يهود الدونمة المعروفين فى سلانيك.

إذ يذكر جفريز (الص ۳۸)، علاوة على ما يذكره بعض الكتاب الأتراك

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۶۶

و غيرهم، ان خلع عبد الحميد عن العرش قوّى أمل الصهيونيين فى الاتحاديين الذين كانوا مصطبغين بالصبغة اليهودية أنفسهم، لان

جمعية الاتحاد و الترقى نفسها كانت تخضع فى الغالب لنفوذ الدونمة اليهود (من أمثال جاويد و طلعت و ما أشبه) .

و اتماما للفائدة نقول ان الجنرال التركى المتقاعد جواد رفعت إيتلخان يذكر فى كتابه (الص ۷۶ و ۷۷) ان هرزل قدم الى الاستانة فى نيسان ۱۸۹۳ و تمكن من المثول بين يدى السلطان عبد الحميد و فى صحبته الحاخام موشى لاوى و فاوضه فى قضية الوطن القومى لليهود فى فلسطين، و فى شراء أملاك السنية العائدة له شخصيا فى القدس، فرفض طلبهما و طردهما شر طردة.

و لذلك أخذ اليهود يشنعون عليه و يلفقون أشياء كثيرة ضده، و يتآمرون مع الاتحاديين من أجل خلعه. فقد ادعوا ان مجيئهم الى الاستانة كان بدعوة منه، و انه كان ظالما جبارا يقضى على رجال تركية و شخصياتها بطرق غامضة و انه تصرف باموال سكة حديد الحجاز، و كلفهم بتجنيد اليهود فى الجيش العثمانى لقاء بعض الامتيازات. و ربما كانت قصة الملايين العشرة من الباونات التى أشار اليها المستر جفريز من قبيل هذه التلفيقات أيضا. و يقول الجنرال جواد ايضا انهم هم الذين حرضوا الأرمن على اغتيال عبد الحميد فنجى منه بأعجوبة، و هم الذين دبروا أما خلعه بالاتفاق مع الجمعية الماسونية التركية و جمعية الاتحاد و الترقى المعروفة. و قد لعب فى جميع هذه الأعمال، و فى النشاط الذى بدر من الاتحاديين فى خلع عبد الحميد، دورا بارزا جماعة من يهود سلانيك الدونمة الذين كان السلطان يمنع انتقالهم الى استنبول. و من أبرز هؤلاء جاويد الذى أصبح وزيرا للمالية بعد الانقلاب العثمانى، و المحامى ميتر سالم، و قره‌صو، و الجنرال الدونمة رمزى باشا، و ضياء يالچى. و من غريب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۶۷

ما يذكر ان قرصو هذا كان من أعضاء هيئة الخلع الثلاثة التى بلغت السلطان عبد الحميد شخصيا بأمر خلعه. و من جملة ما يذكره (الص ۱۳۵) الجنرال ايتلخان «ان ميتر سالم الذى ترعرع فى أحياء اليهود القذرة الموحلة قد انتسب الى النادى اليهودى المسمى (ما كابى)، و بدلالة النادى المذكور انتسب الى الجمعية الماسونية. و ان ميتر سالم المذكور و قره‌صو و جاويد اساتذة الماسونية سحروا عيون الأتراك الثوريين المحبين للترقى بالماسونية، فأخذوهم تحت قيادتهم، و أدخلوا كافة زعماء انقلاب المشروطية و رؤساء جمعية الاتحاد و الترقى فى المحافل الماسونية.»

و حينما تسلّم الاتحاديون الحكم فى الدولة العثمانية سمح لليهود على ما يظهر بشراء الأراضى فى فلسطين و بالسكنى فى القدس. إذ يقول الجنرال ايتلخان: «ان الاتحاديين عند مجيئهم الى الحكم بفضل دسائس اليهود و أموالهم بعد اعلان المشروطية برزت الى الوجود مستعمرات يهودية معمورة و منتظمة جدا فى مدة وجيزة فى فلسطين، و ذلك بفضل تعاون الاتحاد و الترقى و الماسون ..

و يذكر بعد ذلك أن يهود المستعمرات هذه شكّل قسم منهم شبكة جاسوسية فى فلسطين تزود الحلفاء بأخبار الجيوش التركية خلال الحرب العامة الأولى، و كان يرأسها يهودى اسمه آرونسون. و قد عين آرنسون هذا فى وظيفة مرموقة فى القدس عند أول استيلاء الانكليز عليها.

و مما يؤيد صلة الاتحاديين فى أواخر أيام الدولة العثمانية بالحركة الصهيونية و مساعدتها على تهجير اليهود الى فلسطين ما ننقله أدناه عن جريدة القبس الشامية لصاحبها الأستاذ محمد كردعلى، و هو ضبط وقائع احدى جلسات مجلس المبعوثان التركى فى ۱۹۱۱ فى الأستانة:

«.. قدّم جاويد بك (و هو نفس جاويد الدونمة المار ذكره) وزير المالية موازنة عام ۳۲۷ الى مجلس النواب .. و قد خطب فى هذه الموازنة يومين كاملين .. و تعاقب خطباء كثيرون، و هنا وقف اسماعيل حقى بك مبعوث كوملنجة و زعيم حزب الأهالى فألقى خطبة رنانة كان لها دوى شديد ليس فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۶۸

دوائر الاستانة فقط بل فى الاندية الأوربية ايضا. فبعد ان بحث موضوع الموازنة استطرد الى البحث عن الجمعية الصهيونية، و قال انها ترمى الى انشاء مملكة اسرائيل مستقلة فى القدس و قد خطت خطوات واسعة نحو هذه الغاية و استفحل أمرها. و قال ان الخطر يهدد

القدس و أرجاء فلسطين، و ان الحكومة مغضية عن اعمال الجمعية لأن بنوگها تمدها بالمال اللازم. ثم تلى مكتوبات جمة عن غايات الصهيونيين و آمالهم و برهن على انهم خرجوا من طور التفكير الى طور العمل. و ذكر اسماء نفر منهم قال إنهم يديرون الوزارة الحاضرة.

و ختم كلامه محذرا الدولة العثمانية بصورة عامة من هذا الخطر المداهم، و العرب بصورة خاصة لأن فلسطين جزء من البلاد العربية و الاسلامية التى فيها مهد الرسل و الأنبياء.

فرد عليه الصدر الأعظم قائلا ما هذا إلّا و هم من الأوهام و ان الجمعية الصهيونية لا ترمى الى مثل هذه الغاية (كذا) فاشتدت الحملة عليه و أخذ الخطباء يفندون أقواله، و كان من جملة الذين خطبوا فى ذلك الوقت الشهيد شكرى العسلى (الذى شنقه جمال الاتحادى فى ۶ أيار فى الشام) و كان مبعوث دمشق، فتكلم فى خطر الصهيونية و ألاعيبها و حيلها فى سبيل تأسيس وطن قومى يهودى. و مما جاء فى خطابه قوله انى مانعت فى تسجيل (العفولة) عند ما كنت قائمقاما و بيعها إلى اليهود لما لها من أهمية، و طلبت بيعها بحق الشفعة الى العرب، و كتبت الى نظارة الداخلية تقريرا بهذا الأمر. و لكن جميع التقارير التى كانت تصلها ألقيت فى سلة المهملات. فكتبت الى نظارة الحربية بذلك لما لهذه القلعة (قلعة العفولة) من أهمية تاريخية، فأوعزت نظارة الحربية الى قائد منطقة عكا ان يجرى تحقيقا فجاء تقريره مطابقا لما ذهبت اليه، لا سيما و ان هذه القلعة تشرف على مرج ابن عامر. أضف الى ذلك انها واقعة على الخط الحجازى، و لكن على رغم هذا كله فقد سجلت القلعة و ما يحيط بها من أراض لليهود بأمر من والى بيروت، و خلافا للأوامر السلطانية التى تمنع إسكان الأجانب، و خاصة اليهود على جانبى الخط الحجازى الى مسافة تبعد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۶۹

عشرة كيلومترات. و ذكر العسلى بعد ذلك فى خطابه أشياء عن تسليح اليهود بالأسلحة الجيدة، و عن مطامع هذه الحركة الصهيونية. و مما قاله ان لليهود مطامع كبرى، فهم يريدون تأسيس دولة فى فلسطين عاصمتها القدس لتنشر ظلها على ربوع الشام و مصر و العراق. و قد يعتقد بعضهم ان هذا من قبيل الخيالات و لكن اليهود يملكون مصارف عديدة تسهل شراء الأراضى بأثمان باهظة، فاذا استمروا على عملية الشراء هذه بمثل هذه الأثمان فان العرب سينقرضون. و عاد اسماعيل حقى بك مرة ثانية الى المنبر يؤيد قول مبعوث دمشق و يزيد عليه بأنه يملك وثائق أخطر مما أورده المبعوث الدمشقى ..» انتهى

على أن أول المستعمرات التى أنشئت فى فلسطين فى العهد العثمانى كانت المستعمرات التى انشأتها فى سنة ۱۸۷۰ جمعية «محبى صهيون» ، و كانت أهمها مستعمرة «ميكفا اسرائيل» فى جنوب يافا و ما تزال موجودة حتى الآن، (جفريز الص ۳۵). و يذكر جفريز بالاضافة الى ذلك نقلا عن الكاتب الصهيونى شتاين . ان عددا من يهود روسية الذين فروا من اضطهاد القيصرية الى الخارج فى ۱۸۸۱ توجهوا الى فلسطين، و كان يقدر عددهم بثلاثة آلاف، فنزلوا فى يافا خلال مدة اثنى عشر شهرا .. و لا شك ان كل هذا كان بمعرفة الحكومة العثمانية يومذاك، و هو لا يخلو مطلقا من التأثيرات الصهيونية.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۷۰

القدس فى الحرب العالمية الأولى

اشارة

أعلنت الحرب العالمية الأولى و فلسطين لما تزل جزءا مهما من أجزاء الدولة العثمانية المسلمة، لوجود القدس و سائر البقع المقدسة فيها. لكن الاتحاديين الذين ادخلوا الدولة فى الحزب ضد الحلفاء أخذوا يشكون فى إخلاص العرب لهم، و يزيدون فى تعسفهم و تنكيلهم بقادة الرأى فى البلاد العربية و زعمائها. و قد تولى هذا على الأخص جمال باشا (السفاح) الحاكم العثمانى العام فى سورية

التى كانت فلسطين تابعة لها. و كان من جملة من تعرض لهذا التنكيل عدد غير يسير من رجال فلسطين و زعمائها.

و يقول المستر جفريز فى (حقيقة فلسطين) المشار اليه قبلا ان القمع الذى كان يقوم به جمال باشا كان فظيعا. فقد كان يدعو أصحابه المقربين للتفرج على إعدام كل وجبة من رجال العرب تساق الى المشانق. و كان عدد من ضحاياه هؤلاء من أبناء فلسطين. فقد شنق اثنا عشر شابا فى يوم واحد فى القدس.

و كان من جملة من أعدم أحمد عارف الحسينى مفتى غزة و ابنه .. و كذلك أعدم رجل من أسرة النشاشيبى المعروفة فى القدس، و سليم أحمد العبد الهادى عم عونى بك عبد الهادى سكرتير الملك فيصل الذى وقّع معه على معاهدة فرساى، و الذى هو الآن- اى وقت تأليف الكتاب (۱۹۲۸)- فى معسكر الاعتقال فى صرفند الذى دخله بعد الحكم عليه بعد العودة الى بلاده. و كان المرحوم سليم عبد الهادى قد عرف بنية الحكومة التركية تجاهه و لم يهرب خوفا من ان ينتقم جمال من عمه حافظ باشا .. و قد بلغ عدد الذين سيقوا نفيا الى الأناضول و الجوع ثلثمائة وجيه من وجهاء فلسطين كذلك.

اما اليهود فيذكر جفريز عنهم (الص ۸۸) ان الحرب العامة حينما أعلنت كانت لهم فى فلسطين ۵۵ مستوطنة تضم ما يبلغ مجموعة اثنى عشر ألف نسمة، و كان هناك علاوة على هذا سبعة آلاف منهم متكتلين فى المدن، و لا سيما القدس. و قد جاءت هذه الأغلبية الساحقة ليهود فلسطين، الذين لم يكن يزيد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۷۱

مجموعهم على خمسين ألف، الى البلاد خلال الثلاثين سنة الأخيرة فقط ..

و يذكر بعد ذلك ان أسرة آرونسون اليهودية فى القدس كانت تشتغل فى التجسس للحلفاء خلال الحرب فاكتشف أمرها و اضطرت جاسوسة من أبنائها الى الانتحار للتخلص من التعذيب .. و يقول بالنسبة لسائر يهود القدس و فلسطين انهم كانوا يتمتعون خلال الحرب بشىء من الحماية نظرا لوجود جماعات صهيونية ذات نفوذ فى الأستانة و برلين، و فى نيويورك و سائر العواصم المحايدة

و مما يدل على وجود هذا النفوذ فى الأستانة ما يذكره السر رونالد ستورز فى حاشية من حواشى مذكراته، التى سنشير اليها بعد هذا بالتفصيل، (الص ۳۶۴) من ان طلعت باشا وزير الداخلية الاتحادى الدونمة من (يهود سلانيك) فى الأصل أخبر الكونت بيرن ستورف اليهودى حينما كان يفاوضه بصدد تأسيس الوطن القومى لليهود فى فلسطين بأنه يسره ان يفعل ذلك لليهود من من أجل أن يرضيه لكنه حذره من خطر العرب عليهم و قال له ان العرب سوف يقضون على اليهود فى الحال (نقلها ستورز عن مذاكرات بيرن ستورف نفسه).

هكذا كان حال القدس فى أواخر أيام الحكم العثمانى. اما حالها حينما استولى عليها الانكليز، و لا سيما خلال الأيام التى كانت (ما تزال رحى الحرب تدور فيها، فخير من يصفها لنا بالتفصيل السر رونالد ستورز حاكم القدس العسكرى البريطانى فى مذكراته المنشورة بعنوان (توجيهات) .

و تحتوى هذه المذكرات على الكثير مما يختص بالقدس من جميع الوجوه و لا سيما فى تلك الفترة المرتبكة، لأنه بقى فى القدس ما يقرب من تسع سنوات بصفة حاكم عسكرى و حاكم مدنى، حتى نقل الى قبرص فى أواخر ۱۹۲۶.

فيبدأ المستر ستورز فيما يكتبه عن القدس فى ۷ كانون الأول ۱۹۱۷ حينما

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۷۲

كان سكرتيرا شرقيا للمقيمية البريطانية فى القاهرة. و حاكما سياسيا فى معية مارك سايكس، المعروف بطبخ اتفاقية سايكس- بيكو المعروفة فى سجل بريطانية و وعودها العرقوبية مع العرب. و هو يقول انه فتح فى هذا اليوم برقية وردت الى المندوب السامى فى مصر تخبر باستسلام القدس للجيش البريطانى و توقّع دخول الجنرال اللنبى اليها دخولا رسميا فى يوم ۹ كانون الأول. و فى الخامس عشر من الشهر نفسه طلبه المستر كلايتون رئيس الحكام السياسيين فى الحملة البريطانية على فلسطين، ليكون مساعدا له فى القدس نظرا

للاشغال الكثيرة التى اصبح كلايتون يضطلع بها. و قد كتب ستورز الى رئيسه مارك سايكس قبيل انفكاكه يخبره بالأمر و يقول له بالمناسبة ان لورانس ذكر له بان اليهود فى فلسطين يتخذون موقفا معاديا للانكليز بصورة غير علنية، و ان المسلمين يتخذون علنا موقفا معاديا لهم، بينما كان النصارى اللاتين يتخذون موقفا معاكسا لهذا. ثم يضيف انه أخذ يلتقى كثيرا بالصهاينة و صار يبذل جهده فى تشجيع تبادل الرأى الودى بينهم و بين العرب عن طريق جريدة «القبلة» و غيرها. و قد ذكر فى الحاشية (الص ۲۷۳) فى صدد التعليق على موقف اليهود من الانكليز قوله ان أخبارا وردته فى كانون الأول ۱۹۱۴ تفيد بان الجنرال الألمانى فون كريس كريسن شتاين عند ما وصل الى القدس مع عدد كبير من الضباط و قوة من الجيش حيّاهم اليهود الموجودون فيها و نصبوا لهم «قوس ظفر» كتبت عليه آية من آيات التوراة بأحرف عبرية و عربية كبيرة فى باب يافا.

و قد وصل ستورز مع كلايتون مساء يوم ۲۰ كانون الأول ۱۹۱۷، فى جو عاصف مطير، فوجدها فى ظلام دامس يلفها السكون فى كل مكان، و قد خلت شوارعها فصارت تبدو كأن أهلها قد رحلوا عنها. فنزل فى فندق فاست الذى كان يقيم فيه الألمان، و لذلك سمحوا لصاحبه بان يحتفظ بماكنة الكهرباء التابعة له. و كان يديره أناس سوريون يتقاضون من الضباط أجورا مخفضة قدرها (۴۵) قرشا تركيا فى الليلة أو حوالى تسع شلنات. و أول من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۷۳

التقى به ستورز من الانكليز هناك الجنرال بيل بورتون حاكم القدس نفسه، ثم تناولوا عشاءهم مع الكولونيل ليولن مدير الشرطة.

و يأتى ستورز بعد ذلك على وصف المدينة و الضائقة التى كان يعانيها الجميع فيها من قلة الطعام و ندرته. فقد كانت خلال السنوات الثلاث الأخيرة تتبع نظام جراية القحط فى توزيع الأرزاق. ثم انقطع اتصالها يومذاك بالخارج فانقطعت عنها واردات الأماكن المقدسة و توقف جلب الحبوب اليها من مناطق السلط و الكرك و غيرهما فى الأردن بعد ان رحل عنها الأتراك. و زاد الطين بلة فيها وجود فرقتين من الجيش بخلاف الترتيبات المتفق عليها. ثم يصف حال العملة التركية و انخفاض أسعارها و احتكار اليهود لقطعها الصغيرة و تقاضى عمولة قدرها خمسة او ستة بالمائة عليها حسب المعتاد. و الظاهر ان ستورز كان حسن الظن بالصهاينة، لأنه يقول ان مثل هذه القباحة و «القذارة» البادية من يهود القدس لا بد من ان يوقفها الصهاينة عند حدها.

اما الشؤون الصحية فيقول عنها انها كانت جيدة فى المدينة، و لم تسجل الى ذلك التاريخ سوى اصابة واحدة بمرض الزهرى فى القدس.

و لاحظ ستورز فى اليوم التالى- ۲۱ كانون الاول- لأول مرة ان إطلاق النار من المدافع الثقيلة كان ما زال يسمع باستمرار من جهات جبل الزيتون.

و حينما زار حاكم القدس الجنرال بورتون فى مكتبه وجد جبرائيل بك حداد يشتغل كاتبا لأسراره فى الدائرة. و مما يذكره من أخبار ذلك اليوم انه زار الأرمن فى ديرهم و حارتهم الخاصة، و هو يصف حالة الدير و الكنيسة و القبة الوسطى فيهما التى كان يكسوها كاشى كوتاهية. و عند عودته من هناك عرّج على البلدية فزار رئيسها حسين أفندى الحسينى، و قد أعجبه على ما يظهر مما دونه عنه. فهو يقول عنه انه رجل متوسط العمر، مهذب، يتكلم بانكليزية لا غبار عليها لانه كان قد زار انكلترة و أمريكا. و كان انطباعه عنه انه يتصف بضعف محبّب مفعم بالميل الى المساعدة. و قد هدده الأتراك بالاعتقال مرات عديدة و لذلك كان يعيش و حقائبه جاهزة بجنبه بانتظار الرحيل فى أى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۷۴

وقت. و يذكر كذلك انه كان يجهل أحوال المدينة المنورة يومذاك و محاصرة الأمير عبد اللّه و لورانس لها، فأخبره ستورز بواقع الحال. ثم يذكر ستورز ان عدد مسلمى القدس يومذاك كان يناهز الأحد عشر ألف نسمة، و أكثرهم من الشوافع و الاحناف. و كان عدد من الضباط الأتراك قد تركوا أسرهم فى القدس اعتمادا على البريطانيين و سمعتهم الحسنة.

و فی یوم ۲۲ منه زار ستورز مفتی القدس الذی کان یعقد محکمته فی بنایة تطل شبابیکها علی الحرم الشریف. فاستقبله فی غرفة مربعة الشکل عالیة القبة نظیفة الترتیب یحیط بها دیوان یتوسطه مکتب مغطی بالقماش الأخضر. و یقول ستورز ان المفتی کمال افندی، ابن عم حسین افندی رئیس البلدیة، هو مفتی بالوراثة. و یبلغ عمره حوالی ۴۵ سنة، و هو ذو تقاسیم منتظمة رشیقة و لباس أنیق. و قد درس فی الأزهر، و لذلک کان یعرف مصر معرفة جیدة، لکنه لم یطلع علی أیة نسخة من المقطم أو غیرها من الجرائد خلال السنوات الثلاث الأخیرة، و لذلک انفرجت أساریره حینما وعده ستورز بأعداد شهر واحد منها. و قد لاحظ ان المتقاضین أمام المفتی کانوا یحضرون علی انفراد بین حین و آخر فیسمعون منه ما کان یعتبره حکما قضائیا، فیتراجعون بهدوء من دون أن یکون فی ذلک مقاطعة لسیر الحدیث بین الاثنین. و بعد ان قضی ستورز عند المفتی ساعة و نصف ساعة علم منه ان خزانة الوقف و المیتم کان فیها ما یعادل حوالی أربعة آلاف لیرة ترکیة بالعملة الورقیة، و کان علیه أن یدفع منها أجور ما یقرب من سبعین مستخدما و موظفا فی آخر الشهر.

و زار فی الیوم الآخر مجلس الیهود الاشکناز الذی استقبله عشرون منهم بکثیر من الحفارة و الرسمیات فی قاعة الاجتماع. و قد استطاع التفاهم خلال حدیثه الطویل معهم بشیء من العربیة و الانکلیزیة. و هو یقول بکل تبجح انه لفت نظرهم الی أن تاریخ دخول اللنبی الی القدس یصادف الیوم الذی یحل فیه عدد الحنوکة المکابی، و الی ان أخبار الجرب العظمی نفسها وصلت الی القدس فی التاسع من آب، و هو الیوم الذی هدم فیه تاتیوس الرومانی مدینة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۷۵

القدس. ثم یضیف ان القدس کان فیها یومذاک ثلاثون ألف یهودی، ینتمی حوالی ستة عشر الف منهم الی الاشکنازیین (و هو شیء غریب) و أربعة عشر ألف الی قسم السفاردیم. مع عدد من یهود الیمن و بخاری. و یدعی ستورز ان «وعد بلفو» قد أساء الأتراک تفسیره لهم، و مع ذلک فقد أحدث کثیرا من الحماسة و الابتهاج عندهم. و قد أتبنهم علی قضیة احتکار الیهود قطع العملة الصغیرة فی البلد، فانکروا ذلک و ادعوا فی مقابله ان المسلمین یبرمون لهم السمسم و الحنطة بأسعار فاحشة. و حینما اضطر الی ان یتناول براندی «دیشون لیزیون» معهم علی نخب الجیش المنقذ جعل نخبه هو لصحة الطائفة الیهودیة فی القدس و موفقیتها!!

و یقول ستورز انه بعد ان بقی فی القدس الی الثامن و العشرین من کانون الاول ۱۹۱۷ تبلغ فی الیوم الأخیر هذا بتعیینه حاکما عسکریا فی القدس برتبة عقید، خلفا للجنرال بورتون. و کان هذا التعیین أمرا عسکریا لا بد من قبوله علی ما یقول. فتسلم عمله الجدید فی مقر الحاکمیة الذی کان لا یعدو ان یکون صفا من الغرف غیر المریحة فی الطابق الأول من فندق هیوز الکائن مقابل حدائق البلدیة فی طریق یافا. و کان الموظفون فی معیته الکولونیل دیرموغ، و معاونه الکابتن بریستاو، و الکولونیل غارنر، و المیجر بورک، ثم جبرائیل حداد الذی جدد صداقته معه علی ما یقول. و یثنی ستورز علی جبرائیل هذا فیقول عنه انه مسیحی سوری جاء به الجنرال بورتون من الاسکندریة کمشاور محلی، و هو رجل مقتدر بقدر ما هو مخلص و لطیف، و انه لا یستطیع تثمین خدماته القیمة فی أیام الجهل و الریبة تلک.

ثم یذکر کیف ان الجنود البریطانیین قد شقوا طریقهم عنوة، قدما بعد قدم، خلال البرد الفارص فی ذلک الطریق المضنی المخطر الممتد عبر جبال الیهودیة و ودیانها لیجدوا عند تحریر القدس فخرا و مجدا قلما جادت بمثلهما الحرب العظمی علی غیرهم. لکنهم لم یجدوا غیر ذلک تقریبا. لان تلک الأیام کانت أیاما لما یزل یبدو فیها الخوف فی أعین الناس، و جرعة الارتیاح لا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۷۶

نزال متوقفة فی حناجرهم. فقد کانت أسر مسیحیة تنفی الی الأناضول بأکملها فی ظرف ساعة واحدة لمجرد وجود صداقة (حقیقیة أو مشکوک فیها) لها مع الحلفاء. و قد شنق قاض مسلم فی باب یافا .. لکن الأنکی من ذلک ان الأتراک حینما أنزلوا علمهم و رحلوا عن البلاد التی حکموها اربعمائة سنة حملوا معهم السجلات و الأموال و القیود و الأدویة و الآلات الجراحیة، مع الکثیر من الأثاث و

جميع المواد الغذائية، و كل ما يمكن ان تكون له أقل فائدة للمدينة و محرريها (كذا).

المجاعة فى القدس

يقول السر رونالد إن أشد ما كان يؤلمه و يثير قلقه فى أيام القدس الاولى ندرة الأرزاق التى كانت لا تختلف كثيرا عن المجاعة. و كان يؤلمه أشد من كل ذلك ما يمكن ان يقوله الناس فى المدينة المقدسة بان الانكليز قد حرروا القدس ليقضوا عليها جوعا.

و مما يذكره فى تقريره الى القيادة العسكرية فى هذا الشأن ان أول ما يجابه المدينة بعد ان ضمن الجيش البريطانى سلامتها من أى هجوم معاد هو مشكلة الارزاق و صعوبة تيسر المواد الغذائية لأهلها. فقد كانت القدس الى ان أعلنت الحرب تستورد مواردها الغذائية من البلاد المحيطة بها. إذ كانت تعتمد فى حبوبها على مناطق السلط و الكرك و غيرهما فى شرق الأردن من جهة، و على استيراد الطحين من الخارج عن طريق يافا و البحر من جهة أخرى. و منذ ان دخلت تركية الحرب انقطع الاتصال البحرى و بقى الاتصال بالطرق البرية، و لما كانت تلك المناطق لا تزال فى أيدى الأتراك يومذاك فقد انعزلت القدس بالنسبة لموارد الغذاء الاعتيادية .. و من المعتقد ان المدينة لم تعد فيها كميات مناسبة من الحبوب يمكن ان يعتمد عليها، اما القرويون و الفلاحون فلا يمكن ان تحصل الحكومة على شيء منهم .. و على هذا الاساس اقترح ستورز ان يستورد اليها حوالى مائتى طن حبوب من مصر فى الحال.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۷۷

و قد زار السر رونالد ستورز فى هذه الأثناء فجأة الجنرال اللنبى فاتح القدس نفسه، لتفقد الأمور فى المدينة، و أول ما عرضه عليه من المشكلات مشكلة الطعام و الأرزاق. و فى صباح اليوم التالى أخذت تتقاطر على القدس بصورة منتظمة اللوريات العسكرية محملة بالقمح فتنفس الجميع الصعداء.

و لأجل تخفيف الضائقة أيضا سمح للمقيمين من سكان البلدان و المدن الاخرى بالعودة اليها. و كانت تنقلهم الى أماكنهم لوريات القمح العائدة بعد تفريغ حمولتها.

و مما كان يؤثر على وضع المجاعة هذا تأثيرا غير مباشر ارتباك وضع العملة فى القدس و تدهور قيمة العملة التركية منها، ثم اضطرار السلطات العسكرية الى استبدالها بالعملة المصرية يومذاك. و يقول ستورز فى هذا الشأن ان ما كان يضيف الى مناظر القدس الغريبة منظر الجمهور الهائج و الناس الذين يحملون المال الذين لا يستطيعون التصرف به و هم يتدافعون مع الشرطة الخيالة التى كانت تصدهم عن التجمهر فى ابواب البنك العثمانى للحصول على قطع العملة الصغيرة.

و يذكر ستورز ايضا انه كانت هناك عدة منظمات تعمل على الاغاثة من جميع الوجوه للمسيحيين و اليهود بحيث تخفف من الضائقة المستحكمة لدرجة ما، لكن المسلمين لم تكن عندهم مثل هذه المنظمات الخيرية. و لذلك فسرعان ما أسّس لهم مستوصف مجانى للمعالجة و التداوى، و مطابخ للشوربا، استطاع ستورز ان يجمع لها مبالغ كبيرة من المحسنين المصريين.

الجنرال اللنبى

يثنى المستر ستورز ثناء عطرا على القائد العام الفاتح الجنرال اللنبى، على اثر دعوة تلقاها لزيارته فى مقره العام فى بيرسالم، ما بين بساتين الزيتون فى منطقة الرملة. و من الغريب انه يصف الرملة بكونها بلدة صليبية، بينما الرملة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۷۸

فى الحقيقة كانت موجودة منذ أيام الفتوح الاسلامية لأن المقر العام للجيوش الاسلامية كان فيها هناك، على ما يقول لسترانج و الجنرال غلوب، فضلا عن المراجع العربية.

و هو يقول انه ما زار المقر العام هذا حتى ألفى نفسه متعجبا من شخصية اللنبى و هو يردد فى دخيلة نفسه أى قائد هذا الذى حصل

على انتصار لامع حاسم، و هو على اطلاع واسع بكل ما يجب الاطلاع عليه من أحوال الطيور الى احوال الحيوانات الوحشية و الاسماك، و قد قرأ كل شيء حتى استطاع ان يستشهد حرفيا بجمل و مقاطع من أشهر المراجع و أقلها شهرة. ثم ركب معه و هو يمتطى حصانه الضخم «هند نبورغ» ما بين بيارات البرتقال، و تمشّى معه فى اليوم الثانى بالقرب من أسوار القدس فلاحظه يطلب الى شخص كان يحدثه عن نبات من نباتات فلسطين، التى ورد اسمها فى التوراة، ان يخصص له اسم السفر و الآية التى تشير الى ذلك. و كان يستطيع، على ما يقول ستورز، ان يسمى طيور فلسطين و يعرفها و هى محلقة فى الجو فوق جبل الزيتون بعيدا عن أنظار الرجل الاعتيادى!! و قد كان من الصعب مجاراته فى سرعة القراءة، و تزويده بالكتب لها حتى فى أثناء حملة ۱۹۱۸ التى كان يقودها. ثم يخلص من ذلك الى القول بان اناسا كثيرين أصبحوا مرموقين خلال الحرب لكنهم لم يصبحوا شخصيات يشار اليها بالبنان. و كان بوسع اللنبى ان يصبح شخصية ذائعة الصيت حتى لو لم تكن هناك حرب عظمى.

اللورد النبى قائد الجيش البريطانى الذى احتل القدس فى ۹ كانون الاول ۱۹۱۷

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۷۹

و من مزاياه انه كان يقضى على الدسّ و المخاتلة بإلهامه و استقامته. و اذا ما حصل شيء من الخلل فى شؤون الحملة و إدارتها، لم يكن هو الذى يؤاخذ عليه مطلقا. فالذين اشتغلوا مع مثل هذا الرئيس المخلص، الطيب القلب، يذكرون على الدوام بانه لم يتدخل فى شيء الا للتأييد و التشجيع.

و يثنى ستورز كذلك على نظام الحكم العسكرى الذى ساعده كثيرا فى تذليل الصعاب حينذاك، و تزويده بكل ما يمكن للعمل حتى صار عنده على ما يقول اسطول يتألف من أربع عشرة سيارة فورد لأغراض الاغاثة و توزيع الأطعمة، بعد ان لم تكن الحاكمية تملك لا تلفونا و لا سيارة واحدة فى القدس يوم تسلم زمامها هو بيده.

مشكلات ادارية و غير ادارية

يلاحظ مما يدونه ستورز فى مذاكراته ان «إدارة اراضى العدو المحتلة»OETA كانت تجابه مشكلات ادارية جمة فى القدس الى جانب مشكلات الأرزاق و الاعاشة. و كان قسم من هذه المشكلات سببه التعليمات العسكرية التى تصدرها القيادة العامة. فقد كان التنقل بين فلسطين و الخارج، و بين القدس و سائر أنحاء فلسطين، أمرا صعبا لا سيما و ان القدس كان فيها عدد غير يسير من رعايا العدو و الرعايا المحايدين، حتى بين أبناء الطوائف الدينية المختلفة. إذ كان على كل مدنى يرغب فى الدخول الى فلسطين او الخروج منها ان يحصل على رخصة خاصة .. اما فى داخل فلسطين نفسها فقد كانت الرخص ضرورية للمسافرين حتى و إن سافروا مشيا على الاقدام الى القدس أو أية مدينة أو قرية أخرى.

و كان الأتراك قد أخذوا معهم عند الانسحاب من فلسطين أشياء كثيرة من جملتها رؤساء بعض الطوائف المسيحية مثل داميانوس من الأورثودكس، و أورمانيان بطريرك الأرمن، و غيرهما. ثم أخذ القاضى بحجة عقد المحاكم الشرعية، فأحرجوا السلطات المسيحية فى تعيين شخصية مسلمة بدلا عنه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۸۰

و لذلك فقد نسّب ستورز المفتى للقيام بأعمال القاضى أيضا فلم يتوقف العمل.

و قد صادف ان توفى رئيس بلدية القدس السيد حسين الحسينى فى أوائل سنة ۱۹۱۸ و اضطرت الادارة العسكرية الى تعيين رئيس جديد و مجلس بلدى جديد

يضاف الى ذلك ان مدينة القدس لم تكن فيها إنارة، و لهذا لم يكن يرى فى الليل و لا ضوء واحد فيها حينما تشاهد من فوق جبل الزيتون الذى كانت لا تزال تسمع منه أصوات القتال فى معركة أريحا، و أوجه حركاتها. و لذلك كانت المدينة تنام عند غروب

الشمس.

و كان الفلاحون يلاحظون بالأسمال البالية فى كل مكان، كما كانت الشوارع ملأى بالفقراء و الشحاذين، و كانت حالة السجون و من فيها بحالة مزرية تقزز الأنفس.

و قد أضيفت الى هذه المشكلات و غيرها مشكلة اللاجئين الأرمن الذين تجمّع زهاء ألفين منهم على بطريركيتهم فى القدس. و كذلك مشكلة اللاجئين من نصارى السلط الذين تبعوا الجيش البريطانى خوفا من بطش الأتراك بهم لأنهم كانوا قد رحبوا به- لكن الحكومة كان يساعدها فى مجابهة هذه المشكلات الجمعيات الخيرية المسيحية، و منها جمعية «إسعاف سورية و فلسطين»، برآسة الدكتور ماك أينس اسقف القدس الأنكليكانى، التى يثنى عليها ستورز ثناء عطرا. و كان بوسع «ادارة اراضى العدو المحتلة» ان تطلب كذلك، على ما يقول ستورز، مساعدة وحدة (هداسه) الطبية (اليهودية) و الصليب الأحمر الأمريكى.

و كانت سياسة «ادارة أراضى العدو المحتلة» فى تمشية شؤون القدس و غيرها يومذاك المحافظة على الوضع الراهن فى كل شىء، دينيا و دنيويا، برغم الصعوبة التى كانت تجابهها فى تنفيذها. و قد أعلن عن ذلك الجنرال اللنبى عندما احتل القدس أول مرة، الى ان تعرف نتيجة الحرب و بيت فى وضع البلاد بوجه عام.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۸۱

و من أهم ما طبقت فيه سياسة الوضع الراهن هذه فى القدس سدانة كنيسة القيامة و الاشراف عليها. فقد أودع أمر حراستها الى جنود بريطانيين و فرنسيين و طليان، لكنها كانت محرمة عليهم و هم الذين قاتلوا فى سبيل تحريرها من نير الحكم العثمانى. و كان يمثل هذا الحكم فى داخل الكنيسة- من دون أى تعسف هنا على الأقل كما يقول ستورز، سادن مسلم يتولى عمله بالوراثة. و هو شخصية و قورة فى عمامته و قفطانه كان جده الأعلى قد تعين فى هذا المنصب على عهد الملك الكامل، على أثر المعاهدة التى عقدها فى ۱۲۲۹ مع الامبراطور الصليبى فردريك الثانى. و يقول ستورز انه تلقى ضغطا غير قليل من مختلف الطوائف المسيحية يومذاك بتبديل الوضع لأن بقاء أقدس مكان عند المسيحيين فى يد هذا السادن المسلم يعتبر تحديا يجب ان لا يتحمله أى حاكم مسيحى فى القدس. لكنه يقول ان عددا قليلا من الذين فاتحوه فى الأمر كانوا قد زاروا القبر المقدس فى الكنيسة أو دخلوا أية كنيسة أخرى، و لم يفكر أحد منهم بأى وضع مسيحى كان يمكن ان يستبدل الوضع الراهن، و من هو الذى كان يمكن ان تقبل به الطوائف المسيحية كلها. فلم يكن من الممكن ان تسمح الطائفة الأورثودكسية بتولى شخص من الكاثوليك الروم، كما لم يكن الروم الكاثوليك ليحتملوا أى شخص من الأورثودكس أو الانكليكان- حتى اذا كانت الكنيسة الانكليكانية تملك الحق للتدخل. و لم يكن بوسع جميع الطوائف ان تتسامح فى تعيين شخص من البروتستان، فيما لو وافق أحدهم على تولى هذا المنصب. يضاف الى ذلك أن الشيخ المسلم كان يقوم بعمله خير قيام، بالمحافظة على الوضع الراهن و الأمن العام بقدر ما يستطيع، و الاستعانة بالشرطة عند الحاجة. و يقول ستورز انه يمكن ان يذهب الى أبعد من هذا فيذكر ان الشيخ كان الموظف الوحيد، بين العسكريين و المدنيين و رجال الدين، من المندوب السامى الى المستخدم البسيط فى البلدية، الذى لم يسمع عنه أى تذمر من الناس بشتى طبقاتهم خلال السنوات التسع التى قضاها فى حاكمية القدس الشريف. لكن هذه الاعتبارات جميعها لم تكن تجديه نفعا ضد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۸۲

التحريكات المشار اليها لو لم يستطع ستورز نفسه التمسك به بمقتضى المحافظة على الوضع الراهن التى لا يمكن ان يناقش فيها أحد. و مع ان الجيش البريطانى هو الذى كان يحتل القدس فقد كان حلفاؤهم الفرنسيون يصرون على تحدى الوضع الراهن، و يطالبون بمراعاة ما كان يعرف عن كونهم حماة المسيحية اللاتينية فى بلاد الامبراطورية للعثمانية، و اعتبار المسيو بيكو و بعثته الفرنسية فى القدس فى وضع مرموق خاص يشرف فيه على اجراء الطقوس الدينية و مراسيمها على الأخص. و قد استمرت بطريركية اللاتين الى ما بعد وضع انتداب البلاد المقدسة بعهدة بريطانية و هى تخاطب الحكومة الفلسطينية عن طريق القنصل الفرنسى العام. و استمرت تعمل

على هذا الاساس حتى سنة ۱۹۲۱ حين أبطل الفاتيكان نفسه هذا الوضع الخاص.

و قد ساعد هذا الحكومة الفلسطينية تمسكها بسياسة المحافظة على الوضع الراهن على عدم إفساح المجال فى القدس برفع أعلام مختلفة أو عزف سلامات خاصة لمختلف الدول و الجهات. ذلك لأن الجنرال اللنبى كان قد قرر منذ البداية أن لا يرفع فى البلاد كلها سوى العلم البريطانى وحده فوق محل إقامة القائد العام.

و يعترف ستورز (الص ۳۰۱) بان الادارة العسكرية، برغم جميع الجهود المبذولة فى المحافظة على الوضع الراهن، قد خالفت هذه السياسة بصورة صريحة فى الشؤون المختصة بالصهيونية. فهو يقول ان فلسطين كانت من البلاد التابعة الى الامبراطورية العثمانية المسلمة (و ان نصفها كان لا يزال فى ۱۹۱۸ تابعا لها كذلك)، و الأغلبية العظمى من سكانها كانوا من العرب.

و بالنسبة لسياسة المحافظة على الوضع الراهن كان من حقنا (بموجب ما تلقيناه من تعليمات) ان ندخل فى روع الذين يرغبون فى إجراء إصلاحات عاجلة بأننا هنا مجرد «حكومة عسكرية» و لسنا «اداريين مدنيين». و لذلك كانت طريقتنا المنطقية فى العمل ان ندير البلاد كما لو كانت بمثابة مصر أو أية بلاد أخرى فيها أقليات مهمة. فنجعل الانكليزية لغة رسمية، و نهيء ترجمات عربية و مترجمين الى العربية، و نعامل المقيمين فى البلاد من اليهود و الأوربيين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۸۳

و الأرمن و غيرهم كما يعاملون فى بلاد أخرى.

لكن موقف «إدارة اراضى العدو المحتلة» كان أبعد ما يكون عن هذه المفهومة فى أول بيان أصدره الجنرال اللنبى، و جميع ما أصدرته أنا. فقد صدر باللغة العبرية، الى جانب الانكليزية و العربية. و كانت اعلانات الدوائر و الاعلانات العامة تصدر منذ البداية باللغات الثلاث، و كذلك الوصولات الرسمية و وصولات البلدية. و قد تعين بين موظفينا ضباط يهود و كتاب يهود و مترجمون، فانتقدت «ادارة أراضى العدو المحتلة» على هذه التصرفات فى داخل فلسطين و خارجها.

على ان ستورز يحاول تبرير هذا التقصد الصريح فى قيام حكومته البريطانية بفرض اليهود على فلسطين منذ البداية، فيقول ان الادارة لا تلام فى عملها هذا لأن بريطانية العظمى كانت قد أعلنت «وعد بلفور» فلقيت الفكرة الواردة فيه تأييدا جماعيا تقريبا!!! و هذا من شأنه ان يعطى السلطة المحتلة الحق فى افتراض ان الحكومة التى ستشكل فى فلسطين أخيرا ستكون مجبرة على الاعتراف بحق الصهيونيين فى فلسطين، برغم ان عصبة الأمم لم تكن قد ولدت يومذاك و ان الانتداب لم يكن يدور فى خلد الناس فى تلك الأحوال.

و مما حدث على عهد ستورز فى القدس انه سعى الى تشكيل جمعية خاصة لأعمار القدس و تجميلها تبناها هو بصفته الحاكم العسكرى، فكانت برآسته و عضوية رئيس البلدية، و المفتى، و مدير الآثار القديمة الانكليزى، و بعض الحاخامين الكبار، و رؤساء الطوائف المسيحية المختلفة، و رؤساء الطائفة اليهودية، و رئيس الوكالة الصهيونية، مع عدد من الشخصيات البريطانية و العربية و اليهودية و الأمريكية البارزة فى البلد. و من الغريب ان لغة هذه الجمعية عند الاجتماع و ضبط المحاضر جعلت الفرنسية، لكنه يقول ان ذلك كثيرا ما كان يغض النظر عنه فتتم المفاهمة بالعربية و التركية و العبرية و حتى بالأرمنية. كما يقول ان هذه العناصر المتنافرة قد وحدها فى الجمعية حب الجميع للمدينة المقدسة التى كان يسعى الجميع لتحسين أحوالها. و كان مما

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۸۴

فعلته الجمعية أنها سعت فى جمع تبرعات من جميع الملل فى الداخل و الخارج، فتم الحصول على مبالغ غير يسيرة من مصر و انكلترة و أمريكا و غيرها.

و يذكر ستورز فى هذه المناسبة ان قبة الصخرة قد تضررت ضررا بليغا خلال الشتاء القاسى الذى مر بالمدينة المقدسة سنة ۱۹۱۷- ۱۹۱۸، و لا سيما جبهتها الشمالية الغربية، و أخذ قاشانيها البديع تتساقط بلاطاته واحدة بعد أخرى فتباع فى أسواق البلد. و قد كان من حسن الحظ ان استطاع ستورز ان يستقدم لهذا الغرض المستر أرنست ديشموند من مهندسى الأوقاف المصرية، فقدم تقريرا مفصلا

بالترميمات و التعميرات المهمة. و لأجل ان يمكن تنفيذ ما جاء بتوصياته تم الاتفاق على ان يقوم مفتى القدس باصدار بيان خاص يناشد فيه العالم الاسلامى بالتبرع بالمبالغ المطلوبة لذلك. و قد تضمن البيان ذكرا لمقدار المبالغ التى قدرها المستر رشموند بثمانين ألف باون استرلينى.

و قد اكتشف ريشموند هذا خلال كشفه على القبة الأفران التى بنيت فوق «اسطبلات سليمان الحكيم» فى منطقة الهيكل لصنع الكاشانى و الآجر عند تشييد قبة الصخرة. و على هذا الأساس استدعى من الشام رجل أرمنى (داود أوهانيسيان) مختص و خبير آخر من كوتاهية فى الأناضول لصنع القاشانى محليا فى تلك الأفران القديمة، بدلا من جلبه من أوربة كما كان يحصل فى الخمسين السنة الأخيرة. و مما يشير اليه ستورز فى هذا الشأن ان وضع القبة كان مخطرا حتى قبل سنة ۱۹۱۸، و لم يستطع المهندس الألمانى الذى بعثه قيصر ألمانية لنفس الغرض قبل أربع سنوات ان يعمل شيئا سوى ان يقترح إكساء الجهة الشمالية الغربية المتضررة ببلاطات من حديد الصب تستورد من ألمانية.

و مما يدل على الروح الصليبية التى كان يحملها الانكليز حينما دخل اللنبى الى القدس خلال الحرب العالمية الأولى ما يذكره ستورز فى (الص ۳۱۵) فى تسمية اسماء الشوارع الجديدة فى القدس، أو الشوارع التى لم تكن لها أسماء على ما يدعون. فقد سميت بالأسماء الآتية: شارع سنت فرانسيس، طريق سنت بول، شارع غودفرى دى بويون (من ملوك الصليبيين)، طريق

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۸۵

نحميا، زقاق تانكريد (من الصليبيين)، ساحة اللنبى، طريق سليمان، طريق الملكة مليساند (من الصليبيين)، و شوارع الأنبياء. و لأجل ترضية المسلمين بعض الترضية سمى شارع من الشوارع باسم صلاح الدين كذلك.

و مما يدل على ممالأة الوضع لليهود ان الجمعية التى كان يرعاها ستورز أسست مدرسة خاصة للموسيقى فى القدس فكان ثلاثة أرباع اساتذتها منذ البداية، تسعون بالمئة من طلابها، من اليهود. و بعد ان تشكلت و نظمت سلمت الى اليهود ليتصرفوا بها.

و يذكر ستورز (الص ۳۲۳) انه تسلم حاكمية فلسطين كلها وكالة بعد نقل الجنرال مونى منها، فى ۱۸ كانون الأول ۱۹۱۸. و يقول بالمناسبة انه زار جميع مناطق فلسطين الادارية الاثنتى عشرة فانقص عددها الى ست فقط. ثم يشير الى ان هذا العدد أنقص الى ثلاثة بعد قرار تكليف بريطانية بالانتداب على فلسطين. و فى ۱۹۲۲ قسمت فلسطين الى حاكميتين: الحاكمية الجنوبية و تشتمل على القدس و أريحا و بيت لحم و الرملة و يافا و الخليل و غزة و بئر السبع، و الحاكمية الشمالية و تشتمل على حيفا و بلاد السامريين (نابلس) اللورد بلفور صاحب الوعد المعروف باسمه و الجليل. و فى ۱۹۲۶ أعيد تقسيم المنطقة الجنوبية الى منطقتين هما: منطقة القدس و ما جاورها، و تضم الأخرى الأقسام المذكورة من قبل.

وعد بلفور

اشارة

لقد قيل الكثير، و كتب الكثير، عن هذا الوعد المشؤوم و الظلم الصارخ الذى يندر صدور نظيره فى التاريخ. و ليس هناك مجال فى بحثنا هذا للتعمق فيه،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۸۶

حيث يصعب حصر ما كتب عنه فى المراجع الغربية و غيرها، و ليس هناك ما يدعو الى ذلك لأنه أصبح معروفا لدى الخاص و العام، بل يكفى ان نشير الى ان هذا الوعد كان من أساليب الأمبريالية الماكرة فى هذا العصر، التى لا تحسب حسابا لانسانية أو دين أو انصاف أو أى معنى من المعانى السامية التى يعتز بها البشر. و لذلك سوف نقتصر هنا على ايراد نقاط موجزة تكفى لتوجيه البحث.

لقد أشرنا فيما سبق الى ان الصهيونية العالمية قررت العمل على استملاك فلسطين بكل وسيلة، و شرعت فى تنفيذ قرارها بمفاوضة السلطان عبد الحميد فى الأمر لكنها قوبلت برفض بات منه. فأخذت تكيد له و تدس عليه فى بلاده نفسها. ثم راحت تسعى جاهدة بواسطة أذنابها لادخال الدولة العثمانية فى حرب لم تكن لها فيها ناقة و لا جمل لتقضى عليها، و هى التى كانت تسمى الدولة العثمانية «الرجل المريض» يومذاك. و عندئذ تجد فرصتها مع المنتصرين للتأثير عليهم و حصول ما تريده منهم. و حينما لاح أمل انتصار بريطانية و حلفائها فى الحرب أخذت بالتأثير على وزراء بريطانية و ساستها، من امثال لويد جورج رئيس الوزراء و بلفور وزير الخارجية و الجنرال سمطى و هربرت صموئيل الصهيونى حتى كان لها ما أرادت و استحصلت الوعد المذكور على صورة كتاب موجه رسميا من بلفور وزير الخارجية فى ۲ تشرين الثانى ۱۹۱۷ الى اللورد روتشيلد اليهودى.

و يفهم من التفصيلات التى يوردها جفريز فى (حقيقة فلسطين) ان صيغة كتاب بلفور، و الجمل و المصطلحات الواردة فيه، قد هيأها وايزمن و جماعته الصهاينة أنفسهم بالاتفاق مع المستر بلفور بالذات، و ان الصهاينة قد بذلوا جهودا مضنية مع امريكا و سائر الدول فى سبيل ان تكون فلسطين بعد انتهاء الحرب و اقتسام الغنائم و الأسلاب من حصة بريطانية، حتى يمكنها تنفيذ ما تتعهد به لهم، فكان لهم ما أرادوا (الفصل العاشر الص ۱۵۶). و يقول المطلعون ان الدوافع السياسية لاصدار هذا التصريح يمكن تلخيصها برغبة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۸۷

بريطانية فى استمالة العناصر الصهيونية القوية فى المانية و النمسا خاصة، و فى سائر انحاء العالم عامة، و استجلاب عطف يهود إمريكا فى وقت لم تكن الولايات المتحدة قد قررت فيه خوض الحرب الى جانب الحلفاء. و قد يكون أهم من هذا ما ارتآه أنصار التصريح من أنه يؤدى الى جعل فلسطين المتاخمة لقنال السويس منطقة نفوذ بريطانية تحمى مركزها فى مصر و تضمن الاتصال البرى بالشرق، و تقيم سدا بين موقعها فى قناة السويس و موقع فرنسة المقبل فى سورية ثم ان وعد بلفور يمهد السبيل أمام بريطانية للمطالبة بان تكون فلسطين من حصتها حتى تتمكن من تنفيذ وعد بلفور لليهود (اكرم زعيتر الص ۴۵).

و يلاحظ مما ورد فى الكثير من المراجع الغربية، و لا سيما فى كتابى جفريز و المسز ستيوارت أرسكين ان بريطانية لم يكن من حقها ان تصدر مثل هذا الوعد بالنظر لما تنطوى عليه النقاط التالية:

اجتماع امام قبة الصخرة للاحتجاج على وعد بلفور

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۸۸

۱- ان صيغة الوعد الواردة فى الكتاب صيغة غامضة يسود فيها التناقض كما هى الحال فى كثير من الوثائق التى تصدرها الحكومة البريطانية على الداوم.

و لا شك ان هذا الغموض و هذا التناقض كانا مقصودين حتى يمكن للحكومات البريطانية المتعاقبة تنفيذ ما تريده من ورائهما.

۲- ان الوعد المذكور لم يكن التزاما دوليا له قيمته القانونية، و انما كان عبارة عن كتاب عطف موجه الى شخص ما.

۳- ان بريطانية العظمى لم تكن عند صدور التصريح قد استولت على فلسطين بعد، و لم تكن فلسطين تابعة لبريطانية. و لذلك فقد كان وضعها فى هذا الشأن أشبه بمن يهب ما لا يملك، و يبت فى مصير بلد لا سيادة له عليه.

ان اللورد روتشيلد الذى وجه اليه كتاب التصريح كان شخصا من وجهاء اليهود، و لكنه لم تكن له صفة دولية معترف بها، و لم يكن يمثل حتى يهود بريطانيا تمثيلا صادقا.

۵- ان عبارة «الوطن القومى» عبارة مبهمة لا معنى لها فى القانون الدولى و انما هى اصطلاح اخترعته ألاعيب الصهاينة و من شابههم من مهوّدى الانكليز يضاف الى ذلك ان الديانة اليهودية هى ديانة يتفرق ابناؤها فى مختلف بقاع العالم و لا يكونون أمة ذات قومية عرقية خاصة. و ان معظم يهود أوربة لم تكن لهم علاقة بفلسطين مطلقا، و لا يستطيعون حتى التكلم بالعبرية، لانهم كلهم يمتون الى قبائل الخزر التى اعتنقت اليهودية فى القرن الثامن الميلادى.

۶- لم يلتفت التصريح مطلقا الى سكان البلاد الاصليين، و هم العرب و تجاهل حتى ذكر اسمهم، بينما كانوا أهل البلاد و الأغلبية الساحقة فقد كان عدد اليهود فى ايام الحرب لا يزيد كثيرا على الخمسين ألف فى حين كان العرب يبلغ عددهم ما يقرب من سبعمائة ألف نسمة. و مع كل هذا تعمد التصريح إغفال ذكر السياسة لغير اليهود و اشار فقط الى الحقوق المدنية و الدينية و تعلق الكاتبة الانكليزية مود رويدن بهذه المناسبة فى كتاب لها بعنوان (مشكلة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۸۹

فلسطين) قائلة: و يتعلق هذا التصريح بفلسطين، اى ببلد عربى وعدنا سكانه بحريتهم و فزنا بمساعدتهم مقابل هذا الوعد. و لكن رغبات هذا الشعب لم يلتفت اليها و لا مرّة واحدة. و يتعلق التصريح بفلسطين البلد الذى كان تسعون بالمائة من سكانه عربا، لكن كلمة «عربى» لا تأتى على الاطلاق فى هذه الوثيقة العجيبة. و يتعلق التصريح بشعب فلسطين التى سكنها ألفا و ثلثمائة سنة، و مع ذلك فان الاعتراف بوجوده يشار اليه مرة بعد اخرى بعبارة «الاوساط غير اليهودية» .. و لم يكن للحكومة الأنكليزية الحق بقطع هذا الوعد، فقد كان فاسدا منذ البداية .. و لا يحق لعصبة الأمم ان تمنح بريطانيا انتدابا على فلسطين، فكيف بانتداب يشترط فيه وعد بلفور؟ و قد يظهر هذا غريبا للذين يؤمنون بقوة السياسة، و لكن من الحق القول ان للامم الضعيفة حقوقا خاصة بها، لا تقل عن حقوق الأمم القوية فى أهميتها .. (الص ۱۰۳ من الترجمة).

۷- ان الحكومة البريطانية كانت، قبل ان تصدر وعد بلفور بسنتين، قد اتفقت مع العرب بمعاهدة تمنح البلاد العربية المنسلخة عن الدولة العثمانية استقلالها فتكون دولة عربية شاملة، فجاء الوعد المزيف مناقضا لهذا الاتفاق.

فلا يخفى ان العرب اعلنوا الحرب على الأتراك و هم أخوانهم فى الدين للحصول على استقلال البلاد العربية التى تنص عليها هذه المعاهدة، ثم ساروا بقيادة فيصل بن الحسين الى ان دخلوا الشام قبل النبى، بعد ان ساعدوه مساعدة جلى لا ينكرها احد، و يعتر بها حتى لويد جورج و اللنبى و لورانس. إذ تذكر الكاتبة الانكليزية مود رويدن (الص ۷۸ و ۷۹ من الترجمة العربية) قولها: و فى هذا الوقت ظهرت أهمية التعاون العربى أكثر من أى وقت مضى، و عمل فيصل باخلاص تام بجانب اللنبى. و يقول لورنس : أن الجيش العربى تطور من جماعات موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۹۰

بدوية الى فرق عسكرية منظمة كاملة العدة، و أسر خمسة و ثلاثين الف تركى و قتل عددا أكبر من هذا، ثم استولى على مائة و خمسين مدفعا و على مائة ألف ميل مربع من الأراضى العثمانية. و كانت هذه خدمة جلى لنا، و وجدنا انا مدينون للعرب بمكافأة تماثلها.

ثم تعقب المس رويدن ذلك بقولها: و هناك دليل آخر على أهمية المساعدة العربية للجيش الانكليزى، و هى شهادة الجنرال اللنبى نفسه التى أتى على ذكرها لويد جورج فى مؤتمر السلم عام ۱۹۱۹ إذ قال: لم تكن القضية السورية قضية سورية و انما كانت قضية انكلترا نفسها. فمع ان انكلترة جندت ما يقارب تسعمائة الف الى مليون جندى ضد تركية فقد كانت مساعدة العرب اساسية لها، و هذه نقطة استطاع الجنرال اللنبى ان يتكلم عنها، حيث قال:

ان مساعدة العرب كانت فعالة لا تقدر بثمن. و يتابع المستر لويد جورج قوله ان الملك حسين كان قد حشد كل قواه لتأييد انكلترة فى ساحة القتال، و هذا مما ساعدنا عمليا على الفوز فى النهاية .. ثم تقول رويدن فى الاخير: و ليس هناك شك فى ان الفضل فى نجاح حملة الجنرال اللنبى لا يعود فقط الى القوى الانكليزية، و لا الى نبوغ الجندى العظيم، بل الى العرب الذين حاربوا فى صفوفه.

صك الانتداب

و على كل فان المنطق و الحجج الدامغة لا يمكن لها ان تقر شيئا من الناحية العملية تجاه سياسة القوة و الفتح التى تذرعت بها دول الحلفاء المنتصرة فى الحرب العظمى. فقد كان رجالها الاستعماريون الخاضعون للنفوذ الصهيونى، و المتشبعون بالروح الصليبية

الأصيلة، راغبين فى تسليم فلسطين لقمة سائغة لليهود. فابتدعوا مهزلة الانتداب، و سلمت فلسطين الى بريطانيا باعتبارها موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۹۱

الدولة المنتدبة عليها. و أدخلت النقاط الواردة فى صك الانتداب نفسه، و كان وضع مسودة هذه الوثيقة ايضا على أيدى الصهاينة الأثيمة. فقد أخذ رأيهم فى الموضوع و كلفوا بوضع الشكل المقترح لصك الانتداب قبل اقراره. حيث أنه يكاد يكون صورة طبق الأصل لمشروع الجمعية الصهيونية الذى عرضته على مؤتمر الصلح شباط ۱۹۱۹. و يفهم مما جاء فى مذكرات وايزمن ان بنيامين كوهين الأمر التى هو الذى عهد اليه بالاشتراك مع سكرتير اللورد كرزن وزير خارجية بريطانيا بتنظيم مسودة صك الانتداب و الموافقة على نصوصه.

و فيما يأتى ندرج النقاط التى المهمة تختص بفلسطين فى صك الانتداب:

۱- تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد (فلسطين) فى احوال سياسية و اقتصادية و ادارية تضمن انشاء الوطن القومى اليهودى فيها، كما جاء فى ديباجة الصك، و عن ترقية مؤسسات الحكم الذاتى.

۲- يعترف بوكالة يهودية صالحة كهيئة عمومية لأسداء المشورة و المعونة الى ادارة فلسطين فى الشؤون الاقتصادية و الاجتماعية و غير ذلك من الأمور التى قد تؤثر فى انشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين و مصالح السكان اليهود فى فلسطين و لتساعد و تشترك فى ترقية البلاد .. و يعترف بالجمعية الصهيونية كوكالة ملائمة ما دامت الدولة المنتدبة ترى ان تأليفها و دستورها يجعلانها صالحة.

۳- على ادارة فلسطين .. ان تسهل هجرة اليهود فى أحوال ملائمة، و ان تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية حشد اليهود فى الأراضى بما فيها أراضى الحكومة و الأراضى الموات غير المطلوبة للمصالح العامة.

۴- على ادارة فلسطين ان تتولى مسؤولية سن قانون للجنسية، و يجب ان يشتمل ذلك على نصوص من شأنها ان تسهل لليهود الذين يتخذون فلسطين مقاما دائما لهم اكتساب الجنسية الفلسطينية.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۹۲

اما تعليقنا على هذا فهو ان «صك الانتداب» قد جاء عبارة عن «صك عبودية» منحته الدول المنتصرة الغاشمة الى بريطانيا حتى تمهد فيه لتسليم فلسطين الى الصهاينة. و قد برهنت الحوادث الى حد اليوم على قولنا هذا. و هو فى كثير من نقاطه يخالف ميثاق عصبة الأمم، إذ تجعل المادة ۲۲ منه رغبة السكان الأصليين فى البلاد المنتدب عليها هى التى تعين الدولة المنتدبة فى الدرجة الأولى. لكن العرب أصحاب فلسطين لم يؤخذ رأيهم فى تعيين بريطانيا دولة منتدبة على بلادهم، و انما كان هذا التعيين تلبية لرغبة الجمعية الصهيونية.

و تستند فكرة «الوطن القومى» و ديباجة الصك على شيء و همى مصطنع يقال له «صلة اليهود التاريخية» بفلسطين، و تجعل هذه الفكرة من أهم الأسباب الداعية لأنشاء الوطن القومى. و لا شك ان ما مر ذكره من خلاصة تاريخية يكذب هذه الاسطورة.

و يؤيد رأينا هذا كثير من كتاب الغرب أنفسهم، الذين نورد فيما يأتى شيئا من آرائهم فى هذا الشأن، فقد ذكر المستر اليهو غرانت يقول: ان الحقوق اليهودية فى فلسطين قد سقطت بين سنتى ۱۳۶ و ۱۹۲۰ للميلاد، و بكلمة ثانية منذ ابتداء التاريخ المسيحى على التقريب. و لذلك فان ادعاءآت اليهود بالبلاد ترجع إذن الى ما قبل التاريخ المسيحى، و لكنها عادتنا فى ان ننسى العربى المسيحى و نفترى على العربى المسلم .

و تقول الكاتبة الانكليزية مود رويدن فى (مشكلة فلسطين): و نحن كأمة نشأت على الانجيل نجد الحقيقة بان فلسطين يمكن ان توصف بكونها «عبرية صريحة» صدمة لنا. و مع اننا جميعا نعلم ان الرومان دمروا القدس عام ۱۳۵ م و ان اليهود انتشروا فى العالم، فاننا لا نزال نعلق فى مخيلاتنا فلسطين باليهود

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۹۳

و باليهود فقط .. و تقول رويدن فى مناسبة أخرى: نحن لا نعرف، كما أنه لا يمكن لأحد ان يعرف من كان هناك أولا. انما نحن نعرف ان الرجوع الى الوراء الفا و ثلاث مئة عام لنبحث فى التاريخ و نرجع البشرية الحائرة الى الأرض التى احتلتها ضرب من المستحيل، نحن الانكليز لا ننتظر ان نسكن المانيا او ندعى بذلك لمجرد كون اجدادنا الانكلوسكسون عاشوا هناك اياما، و لا نسمح للويلشن ان يمتلكوا انكلترة بناء على انهم كانوا هنا قبلنا، انها لفكرة مضحكة، ان مكوث امة الفا و ثلثمائة سنة فى ارض من الاراضى يخول لها الحق الكامل بامتلاكها امتلاكا لا يحتمل الجدل و النزاع، و لم يحدث هذا مع الاسف الا فى فلسطين (الص ۸۶ و ۹۸ من الترجمة العربية).

و يقول المستر لورانس غريز و ولد الكاتب الأمريكى فى كتابه الذى ترجم بعنوان (إدفع دولارا تقتل عربيا)- الص ۱۸ من الترجمة العربية- و من هذه الخلاصة الموجزة يدرك القارىء ان دعوى الصهيونيين بأن يكون ذلك القطر وطنا قوميا لهم انما تستند الى عهد شفهى خرافى أعطاه يهوه لموسى.

و الواقع ان البروفسور أولبرايت أحد كبار الثقات العالميين فى تاريخ فلسطين القديم يذكر بوضوح لا يحتمل اللبس على انه ليس فى فلسطين أية آثار يهودية ترجع الى ما قبل العهد الرومانى الانطونى .. ثم يقول (الص ۲۸) فى مناسبة أخرى: «و الحقيقة الواضحة تحتم علينا القول بأن سيادة العبرانيين القصيرة على فلسطين لا تمنحهم من الحقوق فيها غير جزء مما تمنحه لسيادة العرب و الفرس و الرومان على الديار المقدسة من حقوق. بل انها لا تمنحهم حقوقا تتساوى و حقوق الصليبيين الأوربيين أنفسهم. و الى ذلك فقد كان ثمة طبعا حقيقة إضافية، و هى ان فلسطين كانت آهلة بالعرب العصريين الذين ترجع ملكيتهم للأرض الى القرن السادس عشر!. و الواقع ان التنكر الفجائى للحقوق الطبيعية و اخراج الشعب الذى يملك الأرض و يحرثها من دياره ليس الا من عمل الساسة المتعودين على التصرف بما يملكه الآخرون، و اليهود الذين اكتسبوا تفكيرهم و طبيعتهم من الاحياء القذرة التى أقاموها لأنفسهم فى أوربة الشرقية»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۹۴

تنفيذ الانتداب

ان الغريب فى الأمر ان الحكومة البريطانية اعتبرت كل ما مر شيئا حاصلا منذ أول احتلالها للبلاد، و قبل ان تصدر وعد بلفور، أو قبل ان يفكر أحد فى الانتداب و الصك المدبر لتنفيذه. و أخذت تمهد الطريق لتسليم فلسطين الى الصهاينة عند أول فتحها للقدس و قبل ان يتم الاستيلاء على فلسطين جميعها، كما يستفاد مما أوردناه قبل هذا من مذكرات السر رونالد ستورز.

و قد جاءت لهذا الغرض بما يسمى «اللجنة الصهيونية» لتشارك الحكومة البريطانية فى المهمة الأثيمة، و عين الموظفون الصهاينة فى المراكز المهمة.

و صارت هذه اللجنة التى استقرت فى القدس تتدخل فى الصغيرة و الكبيرة و تعتبر نفسها صاحبة البلاد، و المسؤولة عن ادارتها. حتى انها كانت تصدر كتبا خشنة ملأى بالصلف و التحدى حتى الى الموظفين الانكليز، فاصطدمت بها مرات عديدة. و يلاحظ ذلك على الأخص فى عهد السر لويس بولز الحاكم الادارى العام على فلسطين جميعها، الذى تجرأ فكتب مذكرة شديدة اللهجة فى هذا الشأن الى مرجعه فى لندن، يعدد فيها تجاوزات اللجنة الصهيونية و تصرفاتها الشائنة .

و يقول جفريز ان مصير هذه المذكرة غير معروف لكنها على وجه التأكيد كانت سببا قويا من الأسباب التى دعت لويد جورج الى التعجيل فى الغاء الادارة العسكرية فى فلسطين، وحدت بوايز الى ان يطالب بتعيين أناس من الانكليز فى فلسطين يبدون اهتماما أكثر بمهمة تحقيق «الوطن القومى لليهود».

و قد تباطأت الحكومة البريطانية فى تبليغ العرب بوعد بلفور، و لعلها لم تدر كيف تفعل ذلك أو لم تجد موجبا لذلك، لكن حاكم فلسطين العام السر بولز ارتأى ان يذيعه عليهم بعد مدة سنة و نصف. و ان يخبرهم بعزم الحكومة البريطانية على قبول الانتداب على

فلسطين الذى يندمج فيه وعد بلفور نفسه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۹۵

فكان رد الفعل عنيفا بطبيعة الحال، لأن فلسطين هبت بأسرها تستنكر ذلك و تحتج عليه، و تألفت فى القدس و غيرها من البلاد «الجمعيات الاسلامية المسيحية» للعمل على مقاومته، و سارت بعد ذلك المظاهرات، و عقدت المؤتمرات فى كل مكان.

لكن أهم ما حدث وقوع اضطرابات فى القدس بمناسبة حلول موسم النبى موسى و الاحتفال به (۴- ۸ نيسان ۱۹۲۰). فقد انقلب الموسم الى مظاهرة عنيفة أدت الى مهاجمة اليهود و الاصطدام بهم، و بالشرطة، و وقوع عدد من القتلى و الجرحى بين الطرفين. و يشير ستورز الى ذلك اشارة عابرة فى مذاكراته (الص ۳۳۰) يذكر فيها تصاعد الشعور المناوىء للصهيونية بين العرب فى القدس، و يعزو ذلك الى ان الدم يدور ساخنا فى فلسطين خلال الربيع و لا ينسى هنا ان يضع اللوم على «المحرضين» و فى مقدمتهم «.. شخص يدعى الحاج أمين الحسينى الأخ الأصغر للمفتى كامل افندى.» ثم يضيف فى حاشية الصفحة (۳۴۱) قوله ان الحاج أمين خلف أخاه فى الافتاء، و كان فى ۱۹۴۲ مذيع محطات المحور العربية ضد الحلفاء!!

مفتى فلسطين الحاج امين الحسينى

و يذكر ستورز بعد ذلك ان الحاج أمين حرض المحتفلين بالموسم على العنف و اختفى عن الانظار، و حينما تعقبته الشرطة البريطانية و أخذت تفتش عنه، كبست دار أخيه المفتى و فتشته من دون ان تستشير (تستشير ستورز).

فاغتاظ المفتى و اهتاج و راجع «ادارة أراضى العدو المحتلة» محتجا اليها بأنه قد أهين و مسّ شرفه بذلك، ثم أرجع اليها و سام السى أيم جىCMG

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۹۶

الذى كان قد منح له قبل قليل. على ان هذه الاهانة الكبيرة للانكليز قد تم التجاوز عنها، و بدلا من ان يشطب اسمه من قائمة أصحاب الوسام أعيد اليه مع الاعتذار عما وقع.

و حينما تألفت لجنة عسكرية للتحقيق فى الأسباب المؤدية الى وقوع الحادث كتبت تقريرا تعز و فيه وقوع الاضطرابات الى «يأس العرب من تحقيق الوعود التى قطعت لهم فى أثناء الحرب بالاعتراف باستقلالهم، و اعتقادهم ان تصريح بلفور يتضمن عدوانا على حقوقهم فى تقرير مصيرهم، و خشيتهم ان يؤدى انشاء الوطن القومى اليهودى الى تضخم الهجرة اليهودية تضخما يسفر عن استعبادهم اقتصاديا و سياسيا من قبل اليهود. و ما أدت اليه تصرفات اللجنة الصهيونية فى فلسطين من استفزاز، و ما سببه تتويج الملك فيصل فى دمشق على سورية المتحدة بما فيها فلسطين من حماسة».

لكن هذا التقرير لم يكن له أى تأثير فى النهاية. فقد ألغيت الادارة العسكرية فى فلسطين، و تقرر إقامة ادارة مدنية فيها. و قد عين فى اليوم الأول من تموز ۱۹۲۰ السر هربرت صموئيل أول مندوب سام لفلسطين، و هو يهودى من أقطاب الصهيونية المعروفين فى بريطانية. و لا شك انه جىء به لتنفيذ صك الانتداب قبل صدوره، و العمل على تحقيق «الوطن القومى» لليهود بالسرعة الممكنة. و قد صرح الدكتور وايزمن، على ما يذكر جفريز (الص ۳۱۷) فى هذا الشأن بقوله: «لقد كنت انا المسؤول فى الدرجة الأولى عن تعيين السر هربرت صموئيل فى فلسطين. فالسر هربرت صديقنا، و بطلب منا قبل ان يتولى هذا المنصب الصعب، فوضعناه فى منصبه. انه صموئيلنا».

و مما يذكره جفريز كذلك فى عدة مناسبات ان هربرت صموئيل كان من جملة الذين عملوا على إقناع الحكومة البريطانية باصدار وعد بلفور منذ البداية، و تبنى ما جاء فيه.

و ما ان وصل السر هابرت الى القدس حتى شرع فى وضع البلاد فى حالات سياسية و اقتصادية و ادارية تؤدى الى قيام الوطن القومى اليهودى. فعين أحد غلاة الصهيونية- بنتويش- نائبا عاما

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۹۷

يقوم باعداد القوانين و الانظمة، و كذلك عين مدير التجارة العام و مدير المهاجرة و السفر من اليهود، و أقيم على رأس كل دائرة موظف انكليزى أو يهودى، و كذلك حكام المقاطعات، و اعتبرت اللغة العبرية لغة رسمية الى جانب العربية و الانكليزية. و ترك لليهود ان يستقلوا بادارة معارفهم و مدارسهم فتشرف عليها و تديرها اللجنة التنفيذية الصهيونية، على حين جعلت المعارف العربية بيد انكليزى و مساعدين انكليز ادارة. و إشرفا، و تفتيشا، و توجيها.

و كتبت على الطوابع و النقود «أرض اسرائيل» بالعبرية ترجمة لكلمة «فلسطين» بالعربية. و فى عهد صموئيل هذا بدت عمليات انتقال الأراضى من أيدى العرب الى أيدى اليهود، و أقطعوا أكثر أراضى الدولة لهم .. حتى بلغ ما أعطته الحكومة لليهود من أملاك الدولة (۱۷۵) ألف دونم .. و أقفلت المصرف الزراعى، و حجزت أراضى الفلاحين و مواشيهم تسديدا للقروض.

و دفعت الضرائب فأخذ البعض يعرضون أراضيهم للبيع لدفع تلك الصرائب او للتخلص من الديون لسد الرمق .

و الأهم من ذلك كله ان أبواب الهجرة قد فتحت على مصراعيها لليهود.

فمنحت شهادات الدخول الى البلاد بالآلاف. و يذكر المستر جفريز (الص ۳۷۳) فى هذا الشأن ان السر هربرت صموئيل قد اعترف بصراحة ان هدف الحكومة هو الاستمرار على إدخال اليهود إلى فلسطين حتى يتجمع منهم فى النهاية عدد يكفى لانشاء دولة يهودية فيها، و هو ما تم بالفعل كما لا يخفى.

كما يشير السر رونالد ستورز (الص ۳۵۸) الى ان الرئيس اليهودى الدكتور وايزمن حينما سئل فى مؤتمر الصلح فى باريس عما يريد بعبارة «الوطن القومى اليهودى» أجاب انه يقصد بذلك ان تتهيأ فى فلسطين فى النهاية ظروف تصبح فيها بلادا يهودية كما أصبحت أمريكا أمريكية و انكلترة انكليزية .

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۹۸

رئآسة البلدية

يذكر ستورز فى مذاكراته (الص ۳۳۳) ان الاضطرابات التى وقعت فى ربيع ۱۹۲۰ فى القدس بمناسبة موسى النبى موسى أثارت قضية رئآسة البلدية فيها. فان موسى كاظم پاشا الحسينى الذى كان رئيسا للبلدية يومذاك كان عليه ان يمثل الطوائف الثلاث من دون تحيز، لكنه كان عليه بصفته رئيسا لأسرة من الأسر الكبيرة فى البلاد ان يترأس المعارضة للانتداب و يتكلم باسمها. و قد لقيته فى يوم من الأيام (بعد الظهر) يقود حشدا من الناس فى التظاهر ضد الدوائر الصهيونية، فرجوت منه ان يعود الى بيته معهم لئلا تنشأ

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۱۹۹

اضطرابات بهذا السبب. ثم أنذرته فى مساء اليوم نفسه بأن يختار بين السياسة و رئآسة البلدية. و فى أثناء الاضطرابات أصبح شموسا فى بداية الأمر. و اتخذ موقف التحدى بعد ذلك، فأخبرت الادارة العسكرية باقتراحى فى إقالته و تعيين شخص آخر فى محله- فقوبلت باقتراح يفيد بتعيين رئيس بلدية انكليزى فى مكانه، و بذلك يقل عدد المناصب التى يطمح فى إشغالها أحد الفلسطينيين. و قد كان من السهل على أن أفنّد هذا الطلب بدلا من أن أفتش فى مثل هذا الجو المتوتر على بديل للرئيس الحالى.

لكننى طلبت راغب بك النشاشيبى، و هو رجل قدير من أعضاء مجلس المبعوثان العثمانى السابق، و عرضت عليه رئآسة البلدية ثم رجوته بأن يؤيد قبول هذا المنصب خطيا فى الحال. و قد سررت إذ فعلت هذا، لأنى بعد عشرين دقيقة ألمحت الى موسى كاظم باشا (و انا آسف لأنه كان قد قدم خدمات لبلده و برهن فى بعض المناسبات على انه «جنتلمن» عربى مؤدب) بأن الوقت قد أصبح يتطلب التبديل. فأجابنى الباشا «ان سعادتك حر فيما تعمل، لكننى أشير عليك بان تنتظر لأننى متأكد بعدم وجود أحد من العرب يجرأ على أخذ مكانى». فعرضت عليه فى الحال موافقة راغب بك ليطلع عليها. و حينما قرأها نهض من مكانه، فشكرنى على تأييدى السابق له،

و أكد لى استمرار الصداقة بيننا ثم صافحنى و خرج من مكتبى يمشى الهوينا بانتصاب.

و كان المجلس البلدى يومذاك يتألف من ستة أعضاء: اثنين من المسلمين أحدهما رئيس البلدية، و اثنين من المسيحيين أحدهما أورثودكسى و الثانى من اللاتين، و اثنين من اليهود. لكنى استحدثت بالاضافة الى هذا منصبى نائب لرئيس البلدية يشغل أحدهما رجل مسيحى و الآخر يهودى، حتى يشغلا بالتناوب منصب الرئآسة عند تغيب الرئيس.

و يتطرق ستورز فى مناسبة أخرى (الص ۴۰۱) الى وصف مجتمع القدس و المسلمين فيه، و الى هذين الشخصين منهم بالذات (الحسينى و النشاشيبى)،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۰۰

فيقول: و قليل من الزوار من يدرك ان فلسطين بوجه عام و القدس على الأخص يجب ان تدرس و تفهم عن طريق الوقوف على أحوال طوائفها الثلاث- طائفة المسلمين، و المسيحيين، و اليهود، و أشخاص أفرادها أيضا .. و لا شك ان أكبر الطوائف و أشدها أهمية فى فلسطين هى طائفة المسلمين. فهى بخلاف الطائفتين الأخريين لم تكن منقسمة الى مذاهب وشيع، و انما كانت تنقسم فقط الى حزبين كبيرين هما: حزب الحسينيين و حزب النشاشيبيين.

اما أسرة الخالدى التى تتحدر من صلب قائد محمد خالد بن الوليد رأسا، و تعد أقدم من كلا الأسرتين الأخريين، فهى على قدر أقل من النفوذ مع أنها لا- تزال قادرة على ان تؤثر فى سير الانتخابات البلدية. و كلما ابتعد المرء عن القدس يقل اعتراف الأسر الكبيرة الأخرى، مثل أسرة آل عبد الهادى فى نابلس أو أسرة بيضون فى عكا، بنفوذ هاتين الأسرتين. لكن الحقيقة أن جميعهم كانوا يقفون فى صف واحد و يشتغلون مع هذه أو تلك. أما تجاه الصهيونية فيمكن ان يقال بان آل الحسينى يمثلون الناحية الدينية و القومية العربية المتطرفة، بينما يمثل آل النشاشيبى الجانب الحكومى. و الأسرة الحسينية من بين الأسرتين هى المدينة الى السلطات البريطانية أكثر من الأخرى، لأن هذه السلطات قد أبقت كامل الحسينى فى منصبه (الافتاء)، و رشحت موسى كاظم لرآسة بلدية القدس، ثم أنعمت على كل منهما بوسام، و كانت مسؤولة رأسا عن تعيين الحاج أمين خلفا لأخيه. و قد كنت فى أيام «ادارة الأراضى المحتلة» على اتصال ودى وثيق بكامل أفندى، الذى كان رجلا معقولا، يحب المساعدة، حتى أفسدته السياسة.

اما رئيس البلدية موسى كاظم پاشا فقد كان يتصف بجميع وقار الحاكم العثمانى التقليدى، و بعض صفاته الحسنة. و لقد أعيد التوازن بين الأسرتين لدرجة ما خلال اثنتى عشرة سنة حينما تسم رئآسة البلدية راغب بك النشاشيبى أقدر رجل عربى فى فلسطين على الاطلاق. فقد كان يتصف بالحنكة و الدهاء و بسرعة الادراك و العمل، و بعدم الاعتقاد بالقضاء و القدر كما هو الحال مع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۰۱

أبناء ديانته .. ثم يستمر ستورز فى الثناء على النشاشيبى و يقول انه أعيد انتخابه (بعد رحيل ستورز عن القدس) ۱۹۲۶ مرة واحدة، لكنه لم يستطع البقاء فى المنصب بعد ذلك، لأن خصمه الحاج أمين الحسينى مفتى القدس و «رئيس المجلس الاسلامى الأعلى» الذى شكله السر هربرت صموئيل كان يشتغل ضده، و يؤثر على الفلاحين و المتأثرين بالسياسة تأثيرا مباشرا بعمامته المهيبة التى يكون لها وقع مؤثر حينما تقرن بقبة الصخرة الفخمة، مع أنه أقل من النشاشيبى فى شخصيته و قدرته، و فى رغبته فى التعاون مع الحكومة.

حائط المبكى

ان حائط المبكى هو الجدار الغربى للحرم الشريف، و فى ما وراء هذا الحائط من جهة ساحة الحرم غرفة يعتقد المسلمون انها المكان الذى ربط فيه البراق (فرس النبى) ليلة الاسراء فاصبح الحائط يعرف لديهم بالبراق.

و يزعم اليهود ان هذا الحائط يشكل جزءا من الحائط الخارجى الغربى لهيكل اليهود القديم، و لذلك اعتادوا زيارته لاقامة الصلاة فيه و البكاء على مجدهم الغابر الذى ضيعوه بأيديهم.

و قد اتخذت الصهيونية هذا الحائط وسيلة لتنفيذ أغراضها الاستعمارية و السياسية، و صارت تستند على قدسيته المزعومة فى المطالبة بفلسطين. و كان أول احتكاك وقع فى هذا الشأن، على ما يذكر ستورز (الص ۳۳۲)، حينما باشرت دائرة الاوقاف فى القدس باجراء ترميمات فى السقف الذى ينتهى به الحائط، و فى أسفل السطح بعدة أمتار. فاستنكر اليهود ذلك حينما سقط شىء من مواد البناء على اليهود الذين كانوا يؤدون صلاتهم فى أسفل الحائط على ما يدعون. و قد بدأ الاحتكاك حينما وجهت اللجنة الصهيونية الى ستورز كتابا شديد اللهجة تعترض فيه على هذه الترميمات.

و حينما كلف ستورز خبيرا معماريا من الانكليز و كشف على الترميم الذى كان يجرى، بحضور بعض اليهود المسؤولين، وجد ان ذلك الترميم كان

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۰۲

لا بد من ان يتم للمحافظة على البناء. غير انه تم الاتفاق على ان يجرى ذلك فى غير أوقات الصلاة، و ان لا ينزل الترميم الى ما تحت ثلاثة أمتار من السقف.

و مما يتطرق اليه ستورز فى هذا الشأن أيضا (الص ۳۴۶) قوله ان الدكتور وايزمن حاول تحقيق مشروع لو نجح فيه لهلّل له الصهاينة فى أرجاء العالم كله.

فان حائط المبكى من الناحية الجغرافية هو الجدار الغربى للحرم الشريف. اما من الناحية البنائية و المعمارية فانه الجدار الغربى لمنطقة الهيكل، و يتألف من تسع سافات مبنية بأحجار جسيمة غير مكسوة كانت قد وضعت فى مكانها فى عهد هيرود، و ربما كان بعضها قد وضع فى عهد زيرو بابل و سليمان النبى. و من أربع سافات فوقها من البناء الرومانى البيزنطى، الذى يكمله أحد عشر من البناء الاسلامى العربى و التركى. و الجدار من الناحية القانونية و الشرعية هو جزء من سطح الحرم، و بهذه الصبغة هو ملك صرف للطائفة الاسلامية.

اما تاريخيا فهو أقدس حائط فى العالم، و اما روحيا فهو روح اسرائيل و قلبها النابض. و تمتد بجانب الحائط من الغرب شطيطة مبلطة بعمق ست ياردات تكوّن هى، و بعض الأكواخ الحجرية و الممرات التى ينخفض مستواها انخفاضا قليلا، قسم القدس من وقف أبى مدين الذى كان قد أوقف منذ أيام نور الدين- من رجال صلاح الدين- على الزوار المغاربة فى الأصل الذين أصبحوا مقيمين فى القدس فى يومنا هذا. و يحتفظ بالمستندات التى تثبت الملكية غير المنازع فيها شيخ المغاربة متولى وقف «قبر أبى مدين» القريب من الموقع.

و المستندات مسجلة فى سجلات محكمة المسلمين الشرعية فى القدس.

لكن حائط المبكى هو المكان المقدس الوحيد الذى بقى لليهود من مجدهم الغابر، و تمتد عادة الصلاة بقربه الى القرون الوسطى على الأقل. و لهذا الحائط القديم تتجه قلوب اليهود فى العالم أجمع، و لا سيما فى مساء كل سبت، و فى أيام عيد الفصح اليهودى، و رأس السنة اليهودية، و فى يوم الكفارة (الكپور) و فى التاسع من شهر آب- أى يوم خراب الهيكلين الأول و الثالث اليهوديين ..

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۰۳

و يورد ستورز فى الحاشية ما كتبه هرزل مؤسس الصهيونية فى مذاكراته ليوم ۳۱ تشرين الأول ۱۸۹۸ حينما كان فى القدس فلم يتحسس كثيرا بحائط المبكى.

فهو يقول: ذهبنا الى حائط المبكى، و من الصعب على المرء ان يشعر بعاطفة عميقة هناك. لأن المكان يمتلىء بالتسول القبيح التاعس المحفوف بالمخاطر.

أو هكذا كان مساء يوم أمس و فى صباح هذا اليوم، حينما كنا هناك.

حائط المبكى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۰۴

و يتابع ستورز قوله: فهذه هى التقاليد و الاستمرارية التى يمكن أن يقال إن اليهود قد كونوا بواسطتها حقا مطلقا معترفا به فى حرية الوصول الى الحائط للتعبد فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل خلال السنة كلها. و مع ان المسلمين يجزمون أحيانا بالقول بأنهم من الناحية القانونية يمكنهم أن يقيموا جدارا يحول دون وصول الناس الى هذا الحائط، فليس هناك حكومة منتدبة يمكنها ان تسمح بمثل هذا التجاوز الواضح على «الوضع الراهن». و نجد من الناحية الأخرى ان حق اليهود فى هذا الشأن لا يزيد على كونه حق طريق و وقوف من دون ان يتضمن حقا صريحا أو ضمنيا فى تملك الحائط و لا التبليط المحاذى له. و قد اقترح الدكتور و ايزمن وجوب استملاك هذا المكان الغالى لعبادة اليهود، لا عن طريق الشراء لأن الوقف الاسلامى لا يباع و انما عن الطريق القانونى الذى كثيرا ما يتبع فى استبدال أرض بأخرى. و قد عرض على الحكومة مبلغ (۷۵) ألف پاون استرلينى لتلافى مصاريف إعادة إسكان شاغلى المكان الحاليين، كما كان مستعدا لدفع مبالغ أخرى. و تلقيت تعليمات خاصة بدراسة الاقتراح و تقديم تقرير عنه. و يقول ستورز: هذا و اننى شخصيا لا أعتقد بوجود قدسية فى وقف أبى مدين و لا بغيره من الأوقاف، و قد كنت على استعداد للاشراف بحرص على أى مبنى يمكن ان يبنى هناك فى المستقبل، حيث كان من غير المنتظر ان يعمد اليهود الى الحط من قدر الأرض التى يقع فيها أقدس مكان عندهم أو العبث بها. كما كان من الممكن ان يخصص المبلغ المرقوم لتعليم المسلمين. و لذلك أيدت الاقتراح لدى كلايتون و مونى، اللذين أيداه بدورهما أيضا. على ان حداد بك كان يرى ان الأمل فى قبول الاقتراح كان ضعيفا على كل حال لا سيما اذا كان الصهاينة هم الذين سيتقدمون به بأنفسهم، و لذلك وافقت على ان أتولى بنفسى أمر فتح باب المفاوضات بشأنه. فتسلمت بعد ذلك عريضة احتجاج قدمتها جماعة من رجال العرب البارزين، و وجدت فى نهاية ايلول ۱۹۱۸ ان الوضع ازدادت حراجته بحيث اضطررت باستشارة سريعة من حداد بك الى أن أوصى باهمال المشروع

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۰۵

برمته. و لا شك انه كان محقا فى رأيه. فحتى اذا كان المفتى نفسه راغبا فى الموافقة عليه كان عليه ان يواجه حساسية جمهوره المتدفقة (الى جانب ازدياد تخوفهم من الصهيونية) تجاه أبسط حركة تدخل تبدو حتى بالنسبة للأرض التابعة الخارجية جدران الحرم الشريف .. و فى حاشية الصفحة نفسها (۳۴۷) يذكر ستورز أن التنقيبات التى كان باركو قد أجراها فى المنطقة خلال سنة ۱۹۱۰- ۱۹۱۱ قد أدّت الى تفجر الاستياء العام فى أنحاء تركية كلها.

و إتماما للبحث و الفائدة نورد هنا ما تطور اليه أمر حائط المبكى بعد ذلك حتى انفجر انفجارا مدويا فى سنة ۱۹۲۹، فأدى الى أن تقوم الحكومة البريطانية فى لندن بتأليف لجنة برلمانية برآسة قاض من القضاة للتحقيق فى الأمر، و كانت تسمى «لجنة شو». فقد تمادى الصهاينة فى صلفهم و تحديهم للمسلمين فى القدس بالنسبة لهذه البقعة فجلبوا فى مساء يوم ۲۳ أيلول ۱۹۲۸ أدوات جديدة الى المبكى، و أقاموا ستارا يفصل بين الرجال و النساء، فأثار هذا التصرف المسلمين و جعلهم يعتقدون ان الغاية الأخيرة هى استملاك المسجد الأقصى تدريجيا بزعم أنه الهيكل ابتداء من الجدار. و قد ألفوا جمعية «حراسة المسجد الاقصى» و عقدوا عدة اجتماعات عامة فى المسجد آلوا فيها على أنفسهم الدفاع عن البراق و المسجد الأقصى، و صدرت الأوامر الرسمية الى اليهود بنزع الستار فلم يفعلوا لكن الشرطة تولت رفعه بنفسها فهاج هائجهم (يوم عيد الصيام) ثم هتفوا «الحائط حائطنا».

لكن المسلمين خرجوا فى اليوم التالى (۱۶ آب)، الذى كان يوم المولد النبوى، بعد صلاة الجمعة من الحرم فى تظاهرة صاخبة نحو البراق. و هناك قلبوا منضده تعود للشماس اليهودى، و أحرقوا الاسترحامات التى اعتاد اليهود وضعها فى ثقوب الحائط، فزاد هذا فى اشتداد التوتر. و حدث أن طعن عربى فى ۱۷ آب يهوديا دخل حديقته طعنة أودت بحياته فكانت فاتحة اشتباكات و اضطرابات، حتى كان يوم الجمعة التالى فى ۲۳ من آب حين غادرت الجموع الهائجة ساحة الحرم و قامت بهجوم على اليهود امتد الى ضواحى المدينة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۰۶

و عم الهياج و التظاهرات فلسطين كلها. فوقع هجوم على اليهود بالخليل فى اليوم التالى أسفر عن مقتل أكثر من ستين يهوديا عدا الجرحى الكثيرين. و هجم المتظاهرون على ثكنة الشرطة فى نابلس فسقط الجرحى، ثم امتدت الاضطرابات الى بيسان، و حيفا، و يافا، حيث اقتحم اليهود و على رأسهم شرطى يهودى رسمى بيت إمام مسجد فقتلوه هو و جميع أفراد عائلته، و بقروا بطنه و حطموا رؤوس زوجته و طفلته و ابن أخيه. كما هاجم اليهود مقام عكاشة فى القدس فأتلفوا و دنسوا قبور الصحابة الكائنة فيه. و قد بلغت الاضطرابات ذروتها فى يوم ۲۹ آب حين وقع الهجوم فى صفد على اليهود، و هناك وقع نحو خمسين يهوديا بين قتيل و جريح.

و قدرت السلطات الرسمية عدد الاصابات فى نهاية الاضطراب بنحو ۱۳۵ قتيلا و ۳۴۰ جريحا من اليهود، و ۱۱۶ قتيلا و ۲۴۰ جريحا من العرب الذين كانت معظم اصاباتهم بأيدى الشرطة و القوات العسكرية. و قرر العرب مقاطعة اليهود، لكن السلطات نكلت بكل من كان يحرض على المقاطعة او يشرف على تنفيذها ..

و مما ذكرته اللجنة فى تقريرها عن الحادث «أن السبب الأساسى الذى لولاه لما وقعت الاضطرابات، هو شعور العرب بالعداء و البغضاء نحو اليهود شعورا نشأ عن خيبة أمانيهم الوطنية و السياسية و خوفهم على مستقبلهم الاقتصادى فان الشعور السائد اليوم بين العرب يستند الى خوفهم المزدوج من أنهم سيحرمون و سائل معيشتهم و يسيطر عليهم اليهود سياسيا يوما ما، بسبب الهجرة اليهودية و شراء الأراضى. و أصبح العرب لا يرون فى المهاجر اليهودى خطرا على معيشتهم فقط، بل يرون فيه ذلك الذى قد يسيطر على البلاد فى المستقبل أيضا.

و قد أوصت اللجنة بتعيين هيئة دولية من عصبة الأمم للفصل بالحقوق المتعلقة بحائط المبكى، فتألفت الهيئة المذكورة و حضرت الى فلسطين فاعترفت فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۰۷

تقريرها بملكية المسلمين للحائط باعتباره جزءا من الحرم الشريف، و بملكية الرصيف أمامه.

هذا و قد أصدرت المحاكم البريطانية فى فلسطين حكمها على عشرين عربيا الاعدام، و لم ينفذ هذا الحكم الا بثلاثة فقط، و هم: فؤاد حجازى، و عطا يرء، و محمد جمجوم. كما حكم على ثمانمائة عربى بالسجن لمدد مختلفة، اليهود فلم يحكم الا على واحد منهم بالاعدام و هو الشرطى حانكير قاتل الأسرة العربية فى يافا، لكن هذا الحكم استبدل بالسجن عشر سنوات قضى بعضها فيه ثم أطلق سراحه. يضاف الى ذلك ان الحكومة المتهودة فرضت على بعض المدن العربية غرامات باهظة لم تستطع استحصالها الا بأساليبها التعسفية المعروفة.

و قبل ان ننهى البحث عن «حائط المبكى» نستشهد هنا برأى الكاتب الأمريكى لورانس غريز و ولد، صاحب كتاب (ادفع دولارا تقتل عربيا) حيث يقول عن حق اليهود فى حائط المبكى: و يزعم الصهاينة ان ما يدعى «حائط المبكى» هو بقية من هيكل سليمان، و هو زعم باطل لأن الحائط غرانيتى و هيكل سليمان انما بناه الفينيقيون له من خشب الأرز. و يكاد يكون من الثابت اليوم عند العلماء ان ذلك الجدار هو جزء من الهيكل الذى بناه فى حوالى سنة ۲۰ ق. م هيرودس الكبير الأيدومى الذى اعتنق اليهودية لأغراض سياسية. و هكذا فان المسجد الأقصى، و قبة الصخرة، و قبة السلسلة، هى وحدها بين آثار فلسطين التى ترقى الى ما قبل الاحتلال الصليبى للبلاد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۰۸

بلفور فى القدس من أساليب الصهيونية الماكرة فى الدعاية و التضليل، و توريط الأشخاص الذين تسخرهم لأغراضها الجهنمية، استغلال فرصة افتتاح الجامعة العبرية فى القدس خلال شهر مارت ۱۹۲۵ فى جبل سكوبس. و كانت هذه الجامعة قد أقيمت فوق أراض تعود لأصحابها العرب فانتزعت منهم بموجب «قانون نزع الملكية» و أعطيت الى اليهود. فقد شاء الصهاينة أن تكون هذه الحفلة برعاية اللورد بلفور، صاحب الوعد المشؤوم، إمعانا فى التشفى بالعرب و اعترافا بفضله على «الوطن القومى» اليهودى.

و قد كتب المستر جفريز فى هذا الشأن (۵۹۶) يقول: ان اللورد بلفور توجه الى القدس فى مارت ۱۹۲۵ ليفتتح الجامعة العبرية. و لو تمّ افتتاح هذه الجامعة فى ظروف أخرى لحضر الحفلة أناس من مختلف طبقات السكان فى فلسطين. و لم تقصّر الجامعة العبرية حتى فى وضعها الحالى فى القيام برسالتها الجامعية الحقة، فقد ارتفع أكثر من صوت يهودى فيها ضد المبادىء غير الأخلاقية، و أساليب التعجرف و الغطرسة التى تتبعها الصهيونية السياسية فى فلسطين.

لكن افتتاحها الذى تم فى ۱۹۲۵ لم يكن سوى عرض للمناورات السياسية المفضوحة، التى يدل عليها مجىء اللورد بلفور. فان حضوره فى حفلة الافتتاح يعتبر إهانة متقصدة للعرب، لأنه لم يطلب اليه ان يرعاها نظرا لما يتصف به من مواهب و قابليات شخصية خاصة و انما طلب اليه ذلك لاكمال التمثيلية التى عهد اليه بالدور الرئيسى فيها فوق مسرح هذه البلاد المظلومة. و قد كانت الحفلة غير موفقة من نواح كثيرة على ما يفهم من الوصف الذى يورده جفريز، و قوبل بلفور فى خارجها بكثير من الصدود و البرود. فقد تلقاه العرب باعلان الاضراب العام فى القدس، و بادروا الى اغلاق دكاكينهم و مخازنهم و ملء الشوارع و الأزقة بالأعلام السود. و كان من المقرّر ان يلقى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۰۹

اللورد بلفور فى عشية يوم الافتتاح، الذى كان يوم أحد، خطبة وعظ خلال القداس الذى يقام فى كنيسة سنت جورج لتبديد الاعتقاد الخاطىء الذى تسرب الى نفوس العرب المسيحيين بانه رجل يهودى فى الحقيقة و الواقع .. غير ان هذا لم يحصل البتة، لأن جوقة المرتلين فى تلك الكنيسة هدد أفرادها بالامتناع عن الاشتراك فى القداس اذا ما سمح له بالاشتراك فيه. فاضطر المطران الى إلغاء الترتيب المذكور تجنبا للفوضى و الاضطراب.

على ان التأنيب الرئيسى للضيف الثقيل كان سد أبواب قبة الصخرة و جامع عمر فى وجهه. فقد رفض مفتى القدس و السلطات الدينية الأخرى السماح له فى الدخول الذى يسمح به فى العادة لجميع الزوار من دون تفريق. فغضب لذلك السر رونالد ستورز حاكم القدس غضبا ما بعده من مزيد و قال لهم بأنهم يتحدون بهذا العمل شخصية مرموقة. و ليس هناك شىء مسجل يدل على ما أجاب به العرب فى هذا الشأن، لكن المعروف عن شعور العرب فى فلسطين بان اللورد بلفور يمكن ان يكون كل شىء الا كونه شخصية مرموقة عندهم، بصرف النظر عما كانت عليه منزلته فى أوربة. غير انه عوّض عن هذه الاهانة باستقباله استقبالا حافلا فى تل أبيب، حيث شهد تمثيل رواية شمشون و دليلة.

اما لماذا ابدى اللورد بلفور رغبة فى ان يزور المسجد العربى، و هو المعروف بكونه لم يعترف بوجود عرب فى فلسطين، فان ذلك يعتبر لغزا من الألغاز.

و قد استمر على موقفه هذا منهم حتى فى فلسطين. فبعد ان انتهى من تناول الغداء فى دعوة من الدعوات التى حضر فيها عدد من الشخصيات البريطانية كضيوف معه تمشى الى الشباك و أخذ يشاهد المارة فى الشارع، ثم سأل «من هم اولئك الذين يلبسون القفاطين؟». لقد كان الذين يلبسون القفاطين هم العرب بطبيعة الحال كما كان بلفور يعرف جيدا، لكنه أخذ يظهر اهتمامه بالأزياء حينما قيل له من هم أولئك الناس!!

لكنه حينما غادر المنطقة البريطانية و توجه لزيارة دمشق، كاد ان يصاب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۱۰

بكارثة فيها. فان الفرنسيين لم يتخذوا تدابير أمن مشددة لحراسته، كما اتخذت له فى فلسطين حيث كان يحرس كما يحرس السجين الحكومى، و لذلك تجمعت الغوغاء من العرب حول الفندق الذى نزل فيه. و امتلأت المدينة بالهياج و الاضطراب و أغلقت المخازن و الأسواق، و صار الناس يهتفون «فلسطين عربية» و جموعهم تتوجه نحو الفندق الذى أغلقت أبوابه فى وجههم. و حينما تجرأ اللورد بلفور و خرج الى الشرفة مع بعض مرافقيه، أخذ يسأل عن سبب هذا الهياج المجهول عنده و يلاحظ بتعجب و استغراب صفوف

الشرطة الخيالة و هى تصد المتظاهرين حول فندقه. و بانت بعد ذلك السيارات المصفحة، لكن الجموع المتظاهرين أخذت تقاوم، و تشتبك بالأيدى مع رجال الشرطة و الجيش الذين التجأوا لاستعمال قواعد البنادق و أغلفة السيوف و السياط، و زاد الطين بلة ظهور الطيارات فى الجو و انقضاضها لالقاء قنابل الدخان على الناس.

و قد وقف الجنرال سراى، المندوب السامى الفرنسى، نفسه لحماية اللورد فى باب الفندق الرئيسى، حتى أمكن تهريبه من باب جانبية و انقاذه من الجموع الهائجة. ثم أخذ على عجل الى بيروت، و منها الى ظهر الباخرة «سفنكس» مباشرة. و لا بد من ان اللورد بلفور قد عنّ له ان يتساءل قائلا «هل هذا كله بسبب تصريحى عن الوطن القومى لليهود؟». و بقى محجوزا على ظهر الباخرة الراسية فى الميناء ثلاثة أيام، حتى أقلعت قافلته الى انكلتره.

اما السر رونالد ستورز فلا يذكر كل هذا فى مذكراته. و انما يكتفى بوصف موجز (الص ۴۳۶) يقول فيه ان استعدادات فخمة اتخذت فى ربيع ۱۹۲۵ لافتتاح الجامعة العبرية فى القدس من قبل اللورد بلفور، و ان هذه كانت مناسبة يرغب فيها اليهود و يستهجنها العرب و تخشاها الشرطة. ثم يقول: و ليس من الممكن أن يصدق، على ما يظهر، بأن شخصية مرموقة لطيفة مثل هذه الشخصية يمكن ان يكون عدوا ممقوتا مثل هذا المقت عند العرب و لذلك كان الخوف من ان تساء معاملته لهذا السبب يساورنى فى الليل و النهار، و لم يكن هو و لا من كان فى حاشيته يعلم عظم المجازفة التى تكتنف حضوره الى القدس و لا الجهد الذى نبذله فى سبيل المحافظة عليه.

و قد كانت فرصة طيبة له فى الحقيقة ان يطلع على مقدار الكره الذى كان يكنه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۱۱

له العرب لو تسى له قراءة عشرات البرقيات المهنية له التى كانت تنتظره فى سراى الحكومة لو لم يعمد سكرتيره (و لعله كان يهوديا) الى إخفائها عنه و إتلافها كلها فى النهاية .. ثم يشير ستورز الى الحفاوة التى لقيها بلفور فى تل أبيب، و يذكر انه لم يجد من المناسب أخذه لزيارة قبة الصخرة خوفا من ان يمنعه العرب عن ذلك، من دون الاشارة بشىء الى ما جاء فى رواية جفريز السابقة فى هذا الشأن .

الكفاح العربى

اشارة

و على هذا المنوال بدأ الحكم الانكليزى فى فلسطين، و قد أخذت الأيام تبرهن كلما تصرمت على ان الحكومة البريطانية المنتدبة قد جعلت من نفسها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۱۲

آلة مسخرة فى أيدى الصهيونية العالمية لتحقيق الحلم اليهودى فى اغتصاب فلسطين من أصحابها الشرعيين و انشاء حكومة صهيونية فيها تكون عاصمتها القدس.

و قد تنبه العرب منذ البداية الى ما كان يبيّت لهم من خطط شيطانية و أحابيل تستهدف ابتزاز بلادهم بالتدريج و تشريدهم الى خارجها. فراحوا يكافحون بكل ما عندهم من قوة، فى الميدانين السياسى و الثورى المسلح.

فعقد المؤتمر الفلسطينى الأول فى القدس سنة ۱۹۱۹، فقرر رفض وعد بلفور و الهجرة اليهودية و الانتداب البريطانى، ثم حدد مطالب العرب بالوحدة مع سورية باعتبار فلسطين جزءا لا يتجزأ منها، و تسميتها «سورية الجنوبية».

ثم عقد فى القدس مؤتمر آخر فى حزيران ۱۹۲۱، فأكد فيه العرب أمانيهم الوطنية و شجب وعد بلفور، و تمسكهم بالوحدة مع سورية، مع المطالبة بتشكيل حكومة وطنية فى فلسطين .

و قد انتخب هذا المؤتمر وفدا يسافر الى بريطانية ليعرض مطاليب الفلسطينيين على حكومتها. و فى لندن اتصل بالأوساط الانكليزية المختلفة، و كان من تأثيره فيها ان بادر مجلس اللوردات فى ۲۰ حزيران ۱۹۲۲ الى اصدار قرار يرفض فيه صك الانتداب على فلسطين لأنه يناقض ما قطعته بريطانية من و عود للعرب فى ۱۹۱۵، و لا يتفق مع رغبات أهالى فلسطين أنفسهم. لكن هذا القرار لم يكن له تأثير عملى على سياسة الحكومة البريطانية، لأن مجلس العموم أقر سياسة الحكومة فى هذا الشأن. ثم اضطر وزير المستعمرات يومذاك (تشرشل) الى ان يصدر فى أول تموز ۱۹۲۲ ما سمى بالكتاب الابيض.

و قد حاول هذا الكتاب تفسير وعد بلفور تفسيرا يطمن العرب فيه، لكنه خيب آمالهم. و يقول جفريز فى هذا الشأن (الص ۴۹۲) ان الوفد أجبر وزير

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۱۳

المستعمرات على ان يضمّن الكتاب الأبيض أعذار الحكومة عن حنثها بالوعود المقطوعة لهم. و كان هذا القسم من الوثيقة بمثابة اعتراف خطى موقع من الحكومة البريطانية بعدم النزاهة، و مع ان قليلا من الناس قرأوا هذا الاعتراف يومذاك أو اهتموا به فانه على كل حال سيبقى بيّنة واضحة لمحكمة التاريخ، و لجيل من الناس اكثر شعورا بالصالح العام .. و اعترفت الحكومة بصراحة كذلك بانها لا يمكنها ان تخلق فلسطينا لليهود وحدهم.

و حينما عاد الوفد الى فلسطين عقد فى نابلس المؤتمر الفلسطينى الخامس الذى قرر عدم الموافقة على اقتراح الحكومة بتشكيل مجلس تشريعى مختلط فى القدس، و مقاطعة الانتخابات التى أعلنت عنها الحكومة لهذا الغرض (شباط ۱۹۲۳). ثم قوطع بعد ذلك أمر تشكيل مجلس استشارى فى البلاد، و رفض تأليف وكالة عربية على غرار الوكالة اليهودية.

اما مقاومة عرب فلسطين المسلحة فيمكن ان يقال ان حياتهم ما بين ۱۹۲۲ و ۱۹۳۹، كانت سلسلة ثورات و اضطرابات يتخللها انتخاب لجان و هيئات بريطانية للتحرى عن الأسباب. فقد جاء فى كتاب (الشرق الأوسط) الذى أصدره المعهد الملكى للشؤون الدولية فى انكلترة سنة ۱۹۵۱ ان فترة السبع عشرة سنة المنحصرة ما بين ۱۹۲۲ و نشوب الحرب فى ۱۹۳۹ حدثت فيها اضطرابات فى ۱۹۲۹، و ۱۹۳۳، و ۱۹۳۶، و بلغت هذه الاضطرابات ذروتها بنشوب ثورة كبيرة فى ۱۹۳۸. و كانت كلها بسبب عداء العرب للهجرة اليهودية .. و كان قادة الثورة على اتصال وثيق بمفتى القدس و اللجنة العربية العليا الموجودين فى المنفى خارج فلسطين. و قد لا يزيد عدد الثوار على (۱۵۰۰) شخص، لكنهم كانوا يتمتعون بالتأييد السلبى و الايجابى لأغلبية موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۱۴

العرب فى البلاد. و لو لا الخصومات العربية الموجودة بين الأحزاب العربية فى داخل فلسطين لامتد أمد الثورة الى أطول مما امتد اليه، و لكلف قمعها مبالغ أكثر. فما حل مايس ۱۹۳۹ حتى أخذت الثورة بالتصدع من الداخل، و صارت العمليات العسكرية البريطانية تلاقى نجاحا أكثر .. و قد بلغ عدد الاصابات على ما جاء فى إحدى الحواشى مجموعا قدره ۳۷۱۷، انتهى.

هذا و قد أوردنا شيئا عن اضطرابات سنة ۱۹۲۲ و ۱۹۲۹ قبلا، اما اضطرابات ۱۹۳۳ و حوادثها الدامية فقد كان من اسبابها المباشرة اندفاع السر آرثر و اكهوب المندوب السامى البريطانى فى سياسته التهويدية و لا سيما فى تمليك الاراضى و توسيع نطاق الهجرة الصهيونية الى فلسطين، إذ قفز رقم المهاجرين اليهود من ۹۵۰۰ مهاجر فى سنة ۱۹۳۲ الى زهاء ۳۳ ألفا فى ۱۹۳۳ و الملاحظ من هذا ان كفاح العرب أخذ يتوجه نحو الانكليز بصراحة و ليس نحو اليهود وحدهم. و قد بدأت الاضطرابات فى القدس باضراب العرب و قيامهم بمظاهرة عامة يتقدمها أعضاء اللجنة التنفيذية فى يوم الجمعة ۱۳ تشرين الأول. و حدثت فى يوم ۲۷ منه مظاهرة صاخبة أخرى فى يافا، و اطلقت الشرطة البريطانية النار عليها فوقع فيها ثلاثون شهيدا و أكثر من مائتى جريح.

ثم قامت مظاهرة ثالثة فى جميع انحاء فلسطين يوم عيد الفطر الذى وقع بعد شهرين.

و يفهم مما كتبه جفريز (الص ۶۵۵- ۶۶۵) ان ثورة ۱۹۳۶ قد بدأت باضراب عام قام به العرب على عهد المندوب السامى البريطانى و اكهوب ايضا، حيث انه كان يشجع هجرة اليهود و يسهل أمرها، فهو يقول ان ما يسمى بالثورة الخامسة قد وقع فى نيسان، و السبب فى

ذلك هو من جديد، السبب الذى ادى الى وقوع الاضطرابات الأولى و الثانية و الثالثة و الرابعة قبلها، بالاضافة الى ملل الأمة و يأسها من تحقيق أمنياتها .. و قد بدأت فى يوم ۲۱ نيسان بقرار أصدره ممثلو الأحزاب العربية كلهم، حينما اجتمعوا لتعيين مجلس وطنى يمثل الجميع، فسمى باللجنة العربية العليا. و كان يرأسه مفتى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۱۵

القدس الحاج أمين الحسينى، و يدخل فى ضمن أعضائه عونى عبد الهادى، و راغب النشاشيبى رئيس بلدية القدس، و مدير البنك العربى، و عضوان من المسيحيين هما يعقوب افندى فرج و الفريد افندى روك. و قد طالبت اللجنة العليا رسميا بايقاف الهجرة، و منع بيع الأراضى للصهاينة، و تأسيس حكومة وطنية مسؤولة تجاه مجلس نيابى منتخب انتخابا دمقراطيا .. و مما يذكره فى هذه المناسبة ان ارقام الهجرة ارتفعت من ۹۵۰۰ مهاجر فى ۱۹۳۲ الى ۳۳ ألف فى ۱۹۳۳ و الى ۴۳ ألف فى ۱۹۳۴، و الى ۶۲ ألف فى ۱۹۳۵، عدا ألوف المهاجرين غير الشرعيين بالتهريب و ما أشبه. و على الرغم مما ذكره الخبير البريطانى سمبسون بأن الأراضى الموجودة فى أيدى العرب غير كافية صورة لاحدى موجات الهجرة اليهودية الى فلسطين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۱۶

لهم فان السلطات البريطانية ظلت تشجع انتقال الأراضى الى أيدى اليهود حتى بلغ ما انتقل اليهم منذ أصدر سمبسون توصيته بوقف العملية أكثر من ۶۶۷ ألف دونم.

و قد تطور الاضراب العام فى هذه المرة الى «عصيان مدنى» على غرار ما وقع فى الهند كما يقول جفريز، فتوقفت الحياة فى البلاد تقريبا. و توسعت حوادث العنف و تدمير الممتلكات الصهيونية و الأراضى فى طول البلاد و عرضها. ثم استحالت الاضطرابات بالتدريج الى حرب صغيرة، هوجمت فيها القطارات و مخافر الشرطة، و ازدادت أعمال القناصة، كما تكونت العصابات فى الجبال. و يشير جفريز أيضا الى ان مذكرتين قدمتا الى حكومة فلسطين البريطانية فى القدس، احداهما من كبار الموظفين العرب و الأخرى من سائر موظفى العرب، يقولون فيها: ان الشعب المظلوم قد فقد ثقته بالوعود الرسمية التى قطعت له بسبب اذعان الحكومة البريطانية للضغط الصهيونى، و ان ما يجرى فى فلسطين هو تعبير عن اليأس، فكان اضرابه و ثورته. و ان قتل الشعور بالقوة غير ممكن، و سيظل هذا الشعور قائما و سيبقى مصدرا للاضطراب و القلق حتى تزول العوامل التى ولدته، و ان ايقاف الهجرة هو الحل الوحيد الشريف للخروج من المأزق .. و لم تهدأ الثورة و يكف الشعب عن الاضراب حتى وسّط الانكليز ملوك العرب الذين وجهوا الى العرب فى فلسطين نداء بالأخلاد الى السكينة لأن «الصديقة» بريطانية قد أعلنت رغبتها لتحقيق «العدل».

و يقول الأستاذ اكرم زعيتر فى (القضية الفلسطينية الص ۱۰۵) ان السلطات زعمت تخفيفا لخسائرها ان عدد القتلى من قواتها بلغ (۴۵) قتيلا و (۲۶۰) جريحا، و ان قتلى اليهود كانوا (۸۰) و جرحاهم نحو (۳۰۰).

اما المصادر العربية فتقدر عدد الشهداء بألف شهيد، و يقدر عدد الذين زجوا فى السجون و المعتقلات بثلاثة آلاف عربى .. و قد امتازت هذه الثورة عن سابقاتها بكونها كانت موجهة ضد الانتداب البريطانى أولا و بكونها عنيفة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۱۷

شديدة، و باستمرارها و شمولها لجميع طبقات الأمة، و باشتراك العرب غير الفلسطينيين فيها اشتراكا فعليا عن طريق التطوع و امداد المجاهدين بالسلاح و العتاد، و اشتراك حكوماتهم بالتدخل السياسى حتى اصبحت القضية الفلسطينية قضية عربية عامة من الناحية العربية.

اما ثورة ۱۹۳۸ فقد كانت شبيهة بثورة ۱۹۳۶، لكنها كانت بمقياس أوسع. و كان السبب المؤدى لها ما جاء فى تقرير «لجنة پيل» التى قدمت الى البلاد للتحقيق فى اسباب ثورة ۱۹۳۶. فمع ان هذه اللجنة قد اعترفت فى تقريرها بأن أسباب الثورة هى رغبة العرب فى نيل الاستقلال و كرههم لانشاء الوطن القومى اليهودى و تخوفهم منه، و هما السببان اللذان أدّيا الى وقوع اضطرابات ۱۹۲۰ و ۱۹۲۲ و

۱۹۲۹ و ۱۹۳۳، و فزع العرب من تمادى اليهود فى تملك الأراضى، فانها قد خلقت فكرة التقسيم لأول مرة و اقترحتها فى التقرير. و كان اقتراح التقسيم مبنيا على اعتقادهم بان الانتداب قد ثبت فشله فى فلسطين على ما يذكر جفريز (الص ۶۶۱). و يروى جفريز تفصيلات هذا التقرير و ظروفه (الص ۶۶۴- ۶۶۷) و تبنى الحكومة البريطانية لفكرة التقسيم الواردة فيه، و مناقشة البرلمان لوزير المستعمرات اليهودى أورمز بى‌غور عنها، و هى تفصيلات مضحكة مبكية فى نفس الوقت لما فيها من تناقض تتصف به السياسة البريطانية على الدوام و خنوع دائم للنفوذ الصهيونى و خططه الماكرة. و من جملة ما يذكره جفريز على الأخص (الص ۶۶۶) ان الرئيس الصهيونى وايزمن قد زود بنسخة من تقرير لجنة پيل هذا قبل طبعه و نشره ليبدى رأيه فيه.

و لا شك أن نشر التقرير قد أدى الى تصاعد الهياج بين عرب فلسطين و البلاد العربية الأخرى، و لا سيما بعد أن عرضه وزير الخارجية المستر ايدن على عصبة الأمم فى ۱۴- ۱۰- ۳۷ و دافع فيها عن فكرة التقسيم الواردة فى التقرير. ففى ۲۶ من الشهر نفسه أطلقت النار على المستر اندروز حاكم الجليل فقتل هو و حارسه. و عند ذاك ثار ثائر السلطات البريطانية فاغتنمت الفرصة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۱۸

للبطش بالعرب و زعمائهم. و يقول المستر جفريز (الص ۶۷۳) ان هذا الحادث كان واحدا من سلسلة طويلة لا نهاية لها من الحوادث. التى تحدث فى كل بلد من بلاد العالم فى حقب التاريخ أجمع، فقد اتخذت الحكومة فرصة لها لا لتقبض على مرتكب الجريمة و تقتص منه بل لتحارب الأمة التى تقف فى وجهها كلها، و تضرب المبدأ الذى تتمسك به. فقد حلت جميع اللجان الوطنية فى فلسطين، و حرم مفتى القدس الأكبر، و رئيس اللجنة العربية العليا من مناصبه كافة ثم صدرت الأوامر باعتقال الأعضاء الآخرين. و كان السبب المزعوم لهذا الصنيع ان الزعماء العرب هم المسؤولون معنويا عن هذه الحوادث، و ان نشاطهم و أفعالهم كانت تعرقل صيانة الأمن العام. و أعقب هذا بعد اسبوعين صدور أمر آخر منع فيه أربعة من الزعماء العرب كانوا فى الخارج من العودة الى بلادهم. و كان من بين المعتقلين او المنفيين اناس معلومون من مثل جمال الحسينى، و الفريد روك، و عونى عبد الهادى. فقد استطاع جمال الحسينى التخلص من الاعتقال وفر هاربا الى سورية، حيث لحق به بعد قليل قريبه مفتى القدس الذى اختبأ فى جامع عمر أول الأمر، و فرّ بعد ذلك الى جهة الساحل، و من هناك وصل الى بيروت. و كان الاثنان الآخران فى جنيف، و قد حرم عونى عبد الهادى حتى من التأشير على جواز سفره الى انكلترة ..

ثم يقول جفريز: و كانت النتيجة الوحيدة لضربة الادارة الانكليزية هذه أنها برهنت للملأ على بطلان الادعاء القديم بان «الأفندية» الرؤساء اذا ما أزيحوا عن الطريق سرعان ما تتحطم المعارضة التى تقف فى وجه الوطن القومى اليهودى، و ان الفلاحين العرب سيرفعون ايديهم للصهيونيين الذين يجلبون لهم الازدهار و الموفقية و ما أشبه. فقد كان الواقع بالعكس، لأن الثورة بدلا من ان تتبدد على ما كان ينتظر تقوّت و شملت فلسطين كلها و أصبحت ثورة عارمة بكل معنى الكلمة. حيث ان الناس الوحيدين الذين كان يمكنهم على الأقل ان يحاولوا ضبطها قد اعتقلوا أو زجوا فى غياهب السجون.

و يذكر جفريز كذلك: و لتبرير الفشل الذى منيت به حركة أول

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۱۹

(أوكتوبر) الحكومية عزيت تطورات الثورة هذه كلها الى مفتى القدس و جماعته الذين كانوا يعملون آمنين فى سورية و لبنان بحماية الفرنسيين. و قد كانت أشياء كثيرة تعزى الى المفتى على الدوام منذ كان فى القدس، و كان يسمى روح الثورة.

و من وقائع هذه الثورة التى يذكرها الاستاذ زعيتر ما يذكرها بقوله:

و فى أثناء وجود لجنة التقسيم احتلت العصابات مدينة القدس القديمة، و نشطت فى مختلف الساحات، فاستبدلت الحكومة البريطانية الجنرال هيننغ بالجنرال و يفل فى منصب القائد العام .. و أخفقت جميع التدابير الزجرية فى تخفيف حدة الثورة. ففى ۲۰ من اغسطس احتل الثائرون مدينة الخليل، و فى ۲۴ دخل أحد الثوار سراى الحاكم البريطانى فى جنين المستر موفات و اطلق النار عليه فأرداه قتيلا

ثم خرج ناجيا بنفسه. و فى ۹ أيلول احتل الثوار مدينة بئر السبع و اطلقوا المساجين و استولوا على مركز البوليس فيها و احرقوها، و توالت النجدات العسكرية حتى استطاعت السلطات بعد جهود احتلال القدس القديمة ثانية.

و فى ۵ اوكتوبر احتل الثوار مدينة طبرية و غزوا أحياءها اليهودية فقتل و جرح عشرات من اليهود، عدا ما حرق و دمر من البيوت و المنشآت الرسمية.

و قد أحصت السلطات الرسمية حوادث العنف مدة الثورة فقدرتها بنحو عشرة آلاف، منها نحو الف و خمسمائة ضد الجيش و البوليس، و قدرت الاصابات من الانكليز فى سنتى ۱۹۳۸ و ۱۹۳۹ بثلاثمائة و خمسين قتيلا و نحو ستماية جريح. اما العرب فعدد شهدائهم فى هذه الفترة ليس اقل من الفين.

و جاءت الى القدس خلال الثورة «لجنة و ودهيد» التى كان من المقرر ان تحدد حدود التقسيم الذى اقترحته لجنة پيل، فقامت بعملها برغم مقاطعة العرب لها. ثم قدمت تقريرا ذكرت فيه الكثير من مساوىء فكرة التقسيم، لكنها اقترحت اقتراحات أخرى ممالئة لليهود ايضا. غير ان أحد أعضائها، و هو المستر ريد، أرفق بالتقرير مذكرة تحفظية جاء فيها: ان اعلان سياسة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۲۰

التقسيم قد حوّل الاضطرابات فى فلسطين الى ثورة عربية قومية أسهم فيها العرب المقيمون فى بعض الأقطار العربية .. ثم قال: لقد أوفى الانتداب بوعد أعطى تحت ضغط ناجم عن الحرب، اما اقتراح تقسيم البلاد فهو أمر آخر بالمرة، أى انه انقلاب لا يجوز ان يجريه الأوصياء من دون موافقة شعب فلسطين الذى ليس هو بالساذج المفتقر الى الوصى و لا هو بالعاجز عن اتخاذ قرار بهذا الشأن ..

و بتأثير حدة الثورة، و بناء على ما جاء فى تقرير هذه اللجنة من مشاكل، تراجعت الحكومة البريطانية عن فكرة التقسيم فانتصرت الثورة. و دعت الى عقد مؤتمر لممثلى الدول العربية و عرب فلسطين، ثم نظمت ما سمته بالكتاب الأبيض لسنة ۱۹۳۶ فجعلت منطوياته أساسا لمفاوضات المؤتمر. و مما تضمنه الكتاب الابيض قول الحكومة البريطانية ان حكومة جلالته ترغب فى ان ترى قيام دولة فلسطينية مستقلة يشترك فيها العرب و اليهود بممارسة الحكم فيها و لكن لا بد من أن يسبق ذلك نشوء علاقات طيبة بين العرب و اليهود. و عليه لا بد من فترة انتقال تحتفظ خلالها حكومة جلالته بالمسؤولية النهائية بصفتها السلطة المنتدبة، و لا بد من فترة يزداد فيها نصيب الأهالى من الاضطلاع بالحكم الذاتى. و تبذل الحكومة فى أثنائها جهدها لتنمية العلاقات الطيبة بين العرب و اليهود. فلم يوافق على تفصيلات المشروع لا العرب و لا اليهود، لكن الحكومة البريطانية تمسكت به و عرضته على عصبة الأمم لاقراره. و بينما هى تنظر فيه أعلنت الحرب العامة الثانية و توقف عمل العصبة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۲۱

مفتى القدس

ليس هناك شخصية عربية تعرضت للنقد و التحامل الشديد فى صحف المغرب، و أصبحت هدفا دائما للهجمات التى ظلت تشنها عليها أقلام خاصة فى أنحاء العالم أجمع، خلال مدة تمتد من أوائل العشرينات فى هذا القرن الى سنى ما بعد الحرب العالمية الثانية، مثل شخصية مفتى القدس الحاج أمين الحسينى. و لا شك ان سبب هذا كله هو ان المفتى كان من أوائل المتصدين للقضية الفلسطينية من المتبنين لحركة المقاومة فى وجه الصهيونية، اما الاختلاف الواقع بينه و بين الزعماء الآخرين فمبعثه الاجتهاد و لكل من ساسة فلسطين العرب رأيه و طريقة معالجته الأمر.

و لأجل ان تخرج الصورة التى نحاول رسمها عن القدس فى العصر الحديث و هى صورة كاملة رأينا من المناسب ان نورد هنا نموذجا لما كتب عن المفتى فى الصحف البريطانية و الكتب التى طبعت فى البلاد الانكليزية. فقد كتب عنه الصحفى اليهودى جون كيمشى، محرر ال «جويش أوبزرفر » صفحات خاصة فى كتاب أخرجه سنة ۱۹۵۳ بعنوان (الأعمدة الساقطة السبعة) على أثر تشكيل دولة

اسرائيل و فشل الجيوش العربية السبعة فى الحيلولة دون تكوينها. فهو يقول:

«.. و قد لا- يكون هناك رأى عام عربى على شاكلة الرأى العام الموجود فى نيويورك أو لندن. و لكن أخذ نوع من الرأى العام العربى المخطر يتكون بالتأثير البارع الذى كانت تمارسه شخصية مفتى القدس الشريفة، الحاج أمين. فقد كان هرب المفتى من فرنسة و التجائه الى الملك فاروق فى مصر موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۲۲

فاجعة لليهود و البريطانيين العرب على سواء، حينما أخذت تشتد أزمة الهجرة اليهودية الى فلسطين فى صيف ۱۹۴۶.

فبعد ان تخلص من الاعتقال للمرة الرابعة، أخذ محمد أمين الحسينى مكانه المرموق فى العالم العربى مرة أخرى و أصبح فى المجالس العربية العليا الشخصية الأولى التى تغطى على الحكام و الرؤساء ممن كان يدبر الشؤون العربية و يوجهها بشىء أكثر من الاعتدال عند غياب المفتى و تفرغه لخدمة النازيين.»

«و قد ولد الحاج أمين قبل إحدى و خمسين سنة فى القدس، لكن طبيعته المتقلبة، و لحيته الضاربة الى الحمرة فى لونها، مع مظهرة الثعلبى، تجعله يبدو أصغر مما هو بكثير. و قد أطلق عليه ضباط الاستخبارات البريطانية خلال الحرب اسم «بارباروسا»، لكن خصل الشيب أخذت تطغى الآن على لحيته الحمراء و اتخذت قامته الرشيقة شكلا على جانب أكبر من الروحانية و المظهر الكهنوتى.

و كان شباب المفتى يسير فى النمط الكلاسيكى الذى يسير فيه شباب كل مشاغب. فقد درس فى مدرسة من المدارس التركية، و قضى سنة غير مستقرة فى جامعة الأزهر فى القاهرة التى تركها من دون أن ينتظر من أجل الحصول على درجة الشيخية منها- ثم حج الى بيت اللّه الحرام، و قضى فترة قصيرة فى الجيش التركى خلال الحرب العالمية الأولى، و تعين لوقت ما موظفا فى الكمرك و معلما بعد ذلك. و عند ذاك يبدأ مسلكه فى الافتاء.

«و كانت إحدى المحاكم البريطانية قد حكمت عليه فى ۱۹۲۰ بالسجن لمدة عشر سنوات بتهمة التحريض على الاضطرابات التى حصلت ضد اليهود فى تلك السنة. ففر الى شرقى الاردن و التجأ الى الأمير عبد اللّه. و كان هذا أول تملص من الانكليز يتوفق فيه، حيث أنه أصبح عادة له فيما بعد. ثم قدر للمفتى بأن يحظى فى السنة التالية بطالع حسن ظل يعرف به طوال حياته السياسية فقد كان المندوب السامى اليهودى فى فلسطين السر هربرت صموئيل ينشد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۲۳

الحصول على حسن نية العرب تجاهه باتباع سياسة تنطوى على الكثير من الترضية و رحابة الصدر. و فى غمرة من هذا الاتجاه عفى عن الوطنى الثائر أمين الحسينى. و لم يكتف بهذا فقط، بل قرر المضى فى حركة أخرى من حركات حسن النية، فقد بذل نفوذه فى سبيل ان ينتخب الحاج أمين الحسينى مفتيا للقدس على الرغم من المشورة التى قدمتها له الأسر العربية المعتدلة بخلاف ذلك.

«و ما ان ثبّت أقدامه فى منصبه الجديد حتى أخذ يدرك- و هو فيه طبيعة- رسالته التى كرّس جهوده لها باخلاص قلما يوجد له مثيل فى التأريخ المتأخر.

و كانت رسالته تنطوى على تحقيق أطماعه هو نفسه، من دون ان يسمح لشىء بان يقف فى طريقها. و قد أعقب تعيينه للافتاء عمل آخر من أعمال الترضية التى كان يمارسها المندوب السامى اليهودى، فقد عين مفتى القدس رئيسا للمجلس الاسلامى الأعلى فيها أيضا. فأصبحت بيده قوة لا يستهان بها، حيث انه بات يتحكم فى جميع الأموال العائدة للمؤسسات الدينية و فى المحاكم الشرعية و المقابر، و المساجد. و بكلمة موجزة أصبح الحاج أمين ديكتاتور الحياة الدينية و التعليمية و الاجتماعية لجميع المسلمين فى فلسطين. فنمت أطماع هذا المفتى و توسعت. غير انه كانت هناك أسر عربية قوية لم تزل فى فلسطين تشغل مناصب مهمة فى البلد و تحول دون أطماعه. و لذلك قرر تصفيتها و القضاء عليها.

السر هربرت صموئيل اول مندوب انتدبته بريطانيا لادارة فلسطين و هو صهيونى صميم ساعد حكمه على قيام دولة اسرائيل فى النهاية.

«و قد فتح ظهور هتلر و تسنمه مقام السلطة فى العالم أفقا جديدا فى هذا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۲۴

الشأن. إذ سرعان ما اتصل المفتى بالألمان، و أوفد الطلاب للدراسة فى ألمانية فتلقى مساعدة لقاء ذلك. و هكذا كان المسرح مهيئا لثورة ۱۹۳۶ التى كان المفتى يدبر كل شىء فيها. و كان قد جنّد المرتزقة لكنه وجد فى القرى العربية، و لدى العرب الاعتياديين، تعاطفا معه أكثر من التأييد العملى. فقد قدرت اللجنة الملكية ان عدد القائمين بالثورة لم يكن يزيد على (۱۵۰۰) ثائر نظامى.

و اكتشف المفتى وجود معارضة نامية لسياسته بين العرب المعتدلين، و لذلك حرّض رجاله على هؤلاء المعارضين الذين كانوا يتهمونه باساءة التصرف فى المبلغ الذى يزيد على المليونى پاون مما يعود الى أموال الأوقاف المسلمة بعهدته.

فاغتيل رجال العرب البارزين و غير البارزين، و عدد من النساء. و عند ذلك صدرت مذكرة بتوقيف المفتى هذا، فاحتمى بقبة الصخرة الكائنة فى القدس القديمة، و أخذ يدير الحركات من حرمها و يحاكم العرب الذين لم يطيعوه.

و قد ترك عدد من العرب البارزين فلسطين الى مصر هربا من انتقام المفتى.

«و حينما انطفأ لهيب الثورة فى الأخير تزيا المفتى بزى امرأة عربية، و هرب من المسجد فالتجأ الى لبنان. و لم يعتقله الفرنسيون حينما أعلنت الحرب لكنه فر هاربا من مراقبتهم الشديدة و وصل الى بغداد. فصوّتت الحكومة العراقية على تخصيص (۰۰۰، ۱۸) پاون له، مع مبلغ شهرين قدره ألف باون يدفع له من المخصصات السرية. و قد ظهر فى برلين فى أواخر أيام الحرب مع هتلر و هملر، ثم ساعد بعد ذلك فى تنظيم مسلمى الألبان و اليوغوسلاف و انتمائهم إلى جماعات الصاعقة التى كانت تحارب تيتو. و كذلك ساعد فى تأسيس مدرسة تخريب للعرب الموجودين فى آثينة، و فى تلقين المظليين العرب عن مهمتهم فى فلسطين و العراق.

«و كان التأثير العاجل لعودة مفتى القدس الى الشرق الأوسط فى ۱۹۴۶ إثارة أعصاب معظم الزعماء العرب. و عادت الى الظهور كذلك ذكريات أساليبه الفعالة فى اقناع او تحطيم الذين كانوا على خلاف معه. و يبدو أنه كان قد توفق فى الحصول على أتباع غير قليلين فى العراق، و فلسطين، و سورية.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۲۵

فانضم العرب المعتدلون- خوفا من العزلة- الى التهديد و الصراخ بما يجب ان يفعلوه اذا لم يبادر البريطانيون الى ايقاف السيل المتدفق لهجرة اليهود غير الشرقية. و كان ذلك، كما لوحظ، فى الوقت الذى وصل اليه النفوذ الروسى فى الشرق الأوسط الى قمته. فقد هدد الناطقون باسم المفتى من عرب فلسطين بأنهم سيتجهون الى روسية و يستمدون العون منها اذا امتنعت بريطانية عن ايقاف الهجرة اليهودية عند حدها.

«فساعد هذا كله على تشجيع حكومة العمال فى لندن على اتباع مشورة العرب و حكومة فلسطين و وزارة الخارجية، فصودق على ترحيل المهاجرين غير الشرعيين الى قبرص و ابقائهم فيها مدة سنتين. و كانت تقارير وزارة الخارجية عن تغلغل النفوذ الروسى فى الشرق الأوسط، و تصاعد السخط العربى، و مناورات المفتى، كافية لاقناع مجلس الوزراء بذلك و اخماد أى نبضة وجدان يمكن ان تنبض فى غرفة الاجتماع فى داونينغ ستريت ..»

اما الغربيون المنصفون فيجلّون مفتى القدس و يضعون الحق فى جانبه.

فيقول جفريز (الص ۶۷۴) مثلا- «ان هناك قليلا- من الشك على ما يظهر بان المفتى رجل ذو مزاج تآمرى، و ربما كان له ضلع فى المقاومة المسلحة التى حصلت فى فلسطين. و لكن النقطة التى يجدر ذكرها بالنسبة للمفتى هى: ان أى موقف بالضبط؟، و أى عمل كان يمكن ان ينتظر منه ان يفعله بعد أن أصبح من الواضح جدا ان السنوات المتتالية من المطاليب السلمية و الاحتجاجات لم تنجح فى الفوز بالنظر فى التهم التى كان يقدمها هو و غيره من الزعماء العرب ضد الانتداب و صانعيه، فضلا عن رد هذه الاتهامات؟ فاذا كان قد التجأ الى الدس و التحريض بالفعل بعد سنين من الاحتجاجات و العرائض التى لم ينظر فيها، و اذا كانت مناقشاته المدعمة بالحجج و البراهين لم تحظ حتى بالالتفات اليها، فمن هو الذى يحكم عليه إذن؟ لا شك ان الذين سيحكمون عليه يجب ان لا يكونوا

ممن كانوا يشغلون مناصب عالية فى الحكومات و الهيئات التى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۲۶

كانت تتآمر على بلاده خلال عشرين سنة و من ورائها الصهاينة المتحفزون.

و قد كان معظم الزعماء العرب الآخرون منشغلين بالفعل فى هذه الاستغاثات السلمية التى لم تقليل الا بعدم الالتفات. و كانت حياتهم السياسية قد تقضت بالذهاب و الاياب ما بين القدس و لندن و جنيف».

فى الحرب العالمية الثانية

اشارة

أعلنت الحرب العالمية الثانية و ثورة ۱۹۳۸ ما تزال قائمة فى فلسطين. لكنها سرعان ما توقفت لأسباب كثيرة أهمها نقص السلاح و نفاد العتاد، و ضخامة التضحيات التى بذلها العرب. و كانت الحكومة البريطانية لا تزال مصرة على تنفيذ سياسة الكتاب الأبيض، فراحت تتخذ التدابير المطلوبة لذلك و على الأخص بالنسبة لمشكلة تسرب الأراضى الى اليهود و إيقاف الهجرة، و تأسيس شكل من أشكال الحكم الذاتى. و اصبح موقف العرب فى أثناء الحرب أقرب الى المهادنة منه الى التمرد لأنهم كانوا يأملون ان يتم تنفيذ الكتاب الأبيض.

لكن اليهود ثارت ثائرتهم على مندرجات الكتاب الأبيض و أخذوا يقاومونه بكل ما لديهم من قوة و نفوذ. و من أجل هذا سلكوا ثلاثة طرق:- ۱- التجأوا الى الولايات المتحدة ليستعينوا بالصهيونيين الأقوياء فيها و ليحملوا حكومتها على التدخل فى الأمر.- ۲- أخذوا يسلحون أنفسهم بكل وسيلة و يقوون مؤسساتهم العسكرية السرية.- ۳- نشطوا فى أعمالهم الارهابية ضد الانكليز و أخذوا يطعنون الدولة البريطانية من الخلف فى الحين الذى كانت تنشغل فيه فى أمور الحرب الطاحنة و شؤونها الخطيرة.

و على هذا الأساس عقد الصهاينة الأمريكان مؤتمرا خاصا فى فندق بلتيمود فى نيويورك خلال مايس ۱۹۴۲ و قرروا فيه:) اولا رفض الكتاب الأبيض

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۲۷

ثانيا إطلاق الهجرة الى فلسطين. ثالثا انشاء جيش يهودى يحارب تحت رايته الخاصة و الاعتراف به. رابعا قيام دولة يهودية فى فلسطين بأسرع ما يمكن.

فاعترفت الوكالة اليهودية بمقررات بلتيمور هذه و أيدتها الأحزاب الصهيونية كلها، فاصبحت برنامجا للعمل عند الجميع. و ظلت الجهات الصهيونية جمعاء تشتغل و تدس، و ترمى بثقلها كله للتأثير على الدوائر الأمريكية المتنفذة حتى تسنى لها الاستيلاء على الرئيس ترومان و من يحيط به من رجال الكونغرس، و الحزبين الجمهورى و الديمقراطى، و نفذوا بواسطتهم ما أرادوا. فقد نقض الكتاب الأبيض، و فتح باب الهجرة، و تتابعت المناورات السياسية و التأثيرات غير المنصفة فى هيئة الأمم المتحدة التى تشكلت بعد انتهاء الحرب و انتصار الحلفاء فيها، فأدى ذلك كله الى استصدار قرار من هذه الهيئة الدولية بتقسيم فلسطين و تأسيس دولة اسرائيل المزعومة فى جزء مهم من فلسطين

اما الأعمال الارهابية التى قام بها اليهود فقد توسع نطاقها و اشتدت و طأتها على الانكليز، و بقيت كذلك حتى أعلن التقسيم. و كانت تقوم بها المنظمات السرية اليهودية: الهاغانا و هى منظمة الحرس المسلح لحماية المستعمرات اليهودية و أرغون زفاى لومى لأرض اسرائيل التى تهدف الى الاستيلاء على فلسطين و شرق الأردن بقوة السلاح، و شتيرن و هى عصابة للاغتيال تختص بنهب الأموال و السلاح و الغاية عندها تبرر الواسطة.

و قد اغتاظت السلطات البريطانية لهذه الأعمال الاجرامية الى آخر حدّ، و لا سيما حينما نسفت الدوائر الحكومية التى كانت تشغل جناحا من اجنحة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۲۸

فندق الملك داود فى تموز ۱۹۴۶. فعزت السلطات العسكرية هذا العمل الى اليهود علنا، و ألقت اللوم على الطائفة اليهودية كلها فى بيان أصدره القائد العام للقوات البريطانية فى فلسطين الجنرال باركر، فقد قال فيه «ان الطائفة اليهودية فى فلسطين لا يمكنها ان تتملص من مسؤولية السلسلة الطويلة من الانتهاكات التى بلغت الذروة فى نسف قسم كبير من دوائر الحكومة فى بناية فندق الملك داود و ضياع عدد غير قليل من أرواح الناس ».

و كتب عدد كبير من كتاب الغرب عن هذه الأعمال، فشجبها معظمهم و أدانها المنصفون من بينهم، و من بين هؤلاء اناس من اليهود يناوئون الصهيونية و يناهضونها، فقد كتب الكاتب الامريكى اليهودى الفريد ليلنتال المعادى للصهيونية يقول فى كتابه (ثمن اسرائيل): و فيما كانت الصهيونية ماضية فى غيها، و بينما كان اليهود يتعامون عن هذه الأعمال الارهابية، ارتفع صوت يهودى واحد يندد بها، و كان له دوى الصاعقة .. لقد تحرك أخيرا ضمير حى من الضمائر اليهودية الصحيحة هو ضمير الدكتور يهودا ماغنس رئيس الجامعة العبرية فى القدس. و المعروف عن الدكتور ماغنس انه لم يؤيد أبدا فكرة فرض سيطرة يهودية على فلسطين، بل كان يسعى الى ايجاد حل عادل لهذه المشكلة ..

فقد وقف خطيبا فى الذكرى الواحدة و الثلاثين على إنشاء الجامعة و قال: «ان الصهيونية تحاول ان تضع الشعب اليهودى كله تحت نفوذها بالقوة و العنف ..

ان الحظ لم يسعدنى بعد لأن أسمع من أفواه معارضى الصهيونية رأيهم الصريح بأولئك الأشخاص الذين نصبوا أنفسهم مدافعين عنهم .. إنهم قتلة .. انهم عصابة من الرجال و النساء. و جميع أمريكا يشاركون هؤلاء فى الجرم .. لأن واجبنا يقضى علينا بان لا نظل مكتوفى الأيدى، و نحن اذا ما قرعنا ناقوس الخطر فذلك لأننا حريصون على المحافظة على تقاليدنا الدينية الصحيحة ..»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۲۹

هذا و قد سافر الدكتور ماغنس بعد مدة قصيرة من إلقاء خطابه هذا الى الولايات المتحدة، و قرر ان لا يعود الى القدس، المدينة التى أحبها من صميم فؤاده.

و يذكر ليلنتال بعد ذلك: «و ان كان الدكتور ماغنس قد مات فان أقواله الصريحة الصادقة ستعيش الى الأبد. فهو الذى قال: لقد كنا نعتقد ان الصهيونية ستعمل على تخفيف الحملة ضد السامية فى العالم، و لكننا رأينا العكس تماما» ..

كان العلامة اينشتاين يرى رأى الدكتور ماغنس فى الصهيونية التى حاولت مرارا ان تستفيد من سمعته و منزلته العالمية لترويج أغراضها، و ارادت ترشيحه لرئآسة الجمهورية بعد موت وايزمن، و لكنه رفض. و يقول الفرد ليلنتال فى هذا الشأن: «و لكن مجرد دراسة بسيطة لنزعة انشتاين و عاطفته تجاه اسرائيل تظهر لنا بوضوح ان العلامة الكبير لا ينتمى لاسرائيل كما ادعت الصحف اليهودية، و انما كان اهتمامه منصبا منذ البداية فى انعاش الجامعة العبرية فى القدس. و قد حدث ابان الصراع العنيف بين وايزمن و براندیس (القاضى اليهودى الامريكى) ان وقف انشتاين الى جانب براندیس و أيد موقفه فى مناهضة الحركة الصهيونية و أهدافها المتطرفة .. و عندما مثل انشتاين امام لجنة التحقيق الأمريكية البريطانية عام ۱۹۴۶ أجاب على سؤال وجهه اليه أحد الأعضاء عما اذا كان من الضرورى انشاء دولة يهودية لحل قضية اللاجئين اليهود فقال: ان فكرة انشاء دولة لا تلاقى هوى فى نفسى، إذ أنى لا أفهم الحاجة الى قيام هذه الدولة .. و أقول انها وليدة فكرة نبتت فى رؤوس فريق من اليهود أصحاب العقول الضيقة .. و لذا اعتقد انه من الخطأ التفكير بانشاء مثل هذه الدولة، و قد كنت و ما زلت ضدها».

و هناك أناس كثيرون من اليهود غير هؤلاء شجبوا الارهاب شجبا عنيفا و اخصهم جماعة «مجلس اليهودية الامريكى» ، و فى

مقدمتهم رئيس

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۳۰

المجلس المستر كليرنس كولمان، و المستر ليسينغ روزنوالد، و الحاخام أيلمر بيرغر المدير الادارى لهذا المجلس و غيرهم . و هذا المجلس يناهض الصهيونية و يعاديها بصورة صريحة.

تخلى بريطانية عن فلسطين

كانت الجهود التى بذلتها الصهيونية العالمية فى امريكا قد أثمرت و نجحت تمام النجاح فى حمل الحكومات الأمريكية المتعاقبة، و دوائرها السياسية على التدخل فى قضية فلسطين فى جانب الصهيونية. و قد أخذت هذه الجهات تضغط على انكلترة بشتى الوسائل حتى توافق على زيادة الهجرة اليهودية و الحنث بنصوص الكتاب الأبيض التى تبنتها الحكومة البريطانية و عزمت على تنفيذها.

و كان لموقف ترومان الرئيسى الأمريكى المتصهين تأثير مربك فى هذا الشأن، كانت تصريحاته و تدخلاته تعرقل ما كان المستر بيفن وزير خارجية حكومة العمال البريطانية قد عزم عليه فى حل المشكل.

و بعد مداولات و مناورات كثيرة ألقى المستر بيفن فى ۲۶ شباط ۱۹۴۷ خطابا فى مجلس العموم البريطانى أشار فيه الى ان القضية الفلسطينية معقدة جد التعقيد بسبب ما فى نظام الانتداب من وعود متناقضة، لأنه يسمح لليهود بغزو فلسطين و الهجرة اليها بينما يحتّم عدم الاضرار بسكانها الآخرين، و أشار الى ما كان لتصريحات ترومان و موقف حكومته من أثر فى تعقيد القضية ثم قال:

غير ان بريطانية لا تستطيع ان تفرض حلا نهائيا الا بالقوة لأنها منتدبة انتدابا، و لذلك أصبح واجبها دفع الأمر الى هيئة الأمم المتحدة لتقرر الحل الذى تراه مناسبا.

و فى هذا المآل يقول ليلنتال (ثمن اسرائيل الص ۴۶): و ما أطل عام موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۳۱

۱۹۴۷ حتى كانت الحالة فى فلسطين قد بلغت ذروتها من حيث التأزم، و كانت تستدعى تدخلا دوليا عاجلا لحلها .. فان الصهيونيين كانوا يصرون بعناد على ان يكون اليهود الأكثرية ليتمكنوا من انشاء حكومة يهودية .. و فى غمرة الفوضى الشاملة قررت بريطانية نفض يدها من فلسطين. خاصة بعد ان فشلت جميع المحاولات و المشاريع التى عرضتها حلا للمشكل .. و كان آخر الحلول ذلك الحل المعروف بمشروع بيفن الرامى إلى إنشاء نظام «كانتونات» بفلسطين من العرب و اليهود لمدة خمس سنوات، و السماح لمائة الف لاجىء بالدخول الى البلاد.

ترومان و وايزمن فى وقفة تحابب و صفاء

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۳۲

و قد أعلنت الوكالة اليهودية آنذاك أنها لن تتعاون بعد الآن مع السلطة المنتدبة ضد أعمال الارهابيين اليهود. و حيال ذلك رأت بريطانية أن لا مخرج لها من هذه الورطة، الا بعرض القضية على هيئة الأمم المتحدة .. و عند عرض القضية على بساط البحث فى مجلس العموم البريطانى حاول بيفن بعبارات غامضة ان يبرر فشل حكومته فى حل القضية الفلسطينية متهما الساسة الأمريكيين بتعقيد المشكلة. و قد تجاوز حدود التقاليد الديبلوماسية عندما غمز من طرف خفى مسؤولية البيت الأبيض حيث قال:

«.. و خرجت فى اليوم الأول من انعقاد مؤتمر السلم فى باريس و انا مطمئن الى اننا تمكنا من تذليل العقبات .. و فى منتصف ليل اليوم التالى تلقيت مخابرة هاتفية من رئيس الحكومة البريطانى يعلمنى ان الرئيس الأمريكى ينوى، إصدار قرار آخر بصدد المائة الف مهاجر .. و كان مجلس السلم لا يزال منعقدا و لذلك رجوت بيرنز ناظر خارجية إمريكا ان يتدخل لدى الرئيس ترومان كى يؤجل صدور ذلك القرار. و كان جواب ناظر الخارجية الأمريكية انه اذا لم يعلن ترومان موافقته على ادخال المائة الف يهودى فان مزاحمه فى الانتخابات ديوى سيسبقه الى اعلان موافقته و تأييده لادخال هذا العدد من المهاجرين فيكسب بذلك أصوات يهود أمريكا فى

انتخابات الرآسة» ...!!

لجنة التحقيق الانكليزية الاميركية

و كتب جيمس ريستون فى صحيفة نيويورك تايمس فى نفس الموضوع يقول:

«ان عددا كبيرا من مستشارى الرئيس ترومان عارضوا صدور مثل هذا القرار نظرا لتوقع عقد هدنة بين بريطانية و الصهيونيين .. بل ان (أتلى) رئيس الحكومة البريطانية اتصل بنفسه بالرئيس ترومان و طلب منه تأجيل اصدار ذلك القرار لكن ترومان لم يعر جميع هذه المحاولات أدنى اهتمام ..»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۳۳

ثم يقول ليلنتال بعد ذلك: و يجدر بالذكر هنا ان وزارتى الخارجية و الحربية الأمريكيتين حذرتا البيت الأبيض و الكونغرس من اتباع تلك السياسة الخاطئة.

و كانتا محقتين فى تحذيرهما، لأن مثل تلك السياسة قد تودى بنفوذ امريكا فى بقعة ستراتيجية هامة من العالم. و لكن الساسة الأمريكيين لم يأبهوا كثيرا لتلك الحقيقة وضحوا بها من أجل سياسة حزبية تحقق مآربهم الشخصية ..

و هذا ما حصل بالفعل. فقد كانت القضية الفلسطينية فى أحرج أزماتها ..

عند ما بلغت حملة الانتخابات ذروتها بين الحزبين المتنافسين .. فأدرك كل منهما ان حزبه لن يظفر بأصوات الناخبين اليهود فى أمريكا الا اذا تعهد بتأييد إقامة دولة اسرائيل فى أرض فلسطين .. و لعلها المرة الأولى فى التاريخ ان تكسب معركة حاسمة بوسائل الدعاية، و كان الفضل فيها للصهاينة أنفسهم الذين علقوا مصير مستقبلهم على نتيجة تلك المعركة الانتخابية ..

تقسيم فلسطين

و تنفيذا لعزم بريطانيا على نفض يدها من فلسطين، بعد ان مهدت لانشاء الوطن القومى اليهودى فيها خلال ۲۸ عاما، قدمت بريطانية مذكرة الى الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة تطلب فيها عرض القضية الفلسطينية برمتها فى دورة خاصة.

و قد كتب الفريد ليلنتال (الص ۵۳) فصلا خاصا فى هذا الموضوع عنونه بعنوان «التقسيم غير المقدس» يقول فيه: و فى ۲۸ نيسان ۱۹۴۷ عقدت الجمعية العمومية جلسة خاصة فى نيويورك لبحث قضية فلسطين، و قد اقتصرت ابحاث هذه الجلسة على عرض مختصر القضية من مختلف وجوهها .. و قد تقرر تأليف لجنة للتحقيق فى القضية الفلسطينية، على ان ترفع تقريرها الى اللجنة فى مدة أقصاها شهر أيلول ۱۹۴۷ .. فتألفت اللجنة من ۱۱ دولة صغرى هى:

اوسترالية، و كندا، و تشيكوسلوفاكية، و غواتيمالا، و الهند، و ايران، و هولانده، و پيرو، و السويد، و أوراغواى، و يوغوسلافية، كما عين القاضى السويدى أميل ساند ستروم رئيسا لها.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۳۴

و يتابع المستر ليلنتال سرد القضية فيقول: و منذ الساعة الأولى التى أعلنت فيها أسماء أعضاء اللجنة بدأت محاولات الصهيونية فى الضغط و التأثير على الأعضاء، و راحت المنظمات و المؤسسات اليهودية تبذل الجهود و المساعى خلال اجتماعات الجمعية العمومية لكسب التأييد و المساعدة للقضية الصهيونية.

و قد وصلت اللجنة الى القدس فى ۱۷ حزيران ۱۹۴۷ فأضربت فلسطين و بعض البلاد العربية يوم وصولها. و يذكر المستر ليلنتال بهذه المناسبة قوله:

و فى مثل هذا الجو العاصف المحموم باشرت لجنة التحقيق دراستها للقضية فى أرض فلسطين نفسها. و فى ۳۱ آب وضعت تقريرها النهائى و رفعته الى اللجنة الثانية للجمعية العمومية. و لكن ماذا تضمن التقرير؟ فبعد ان عقدت اللجنة حوالى ستة عشر اجتماعا عاما و

۳۶ اجتماعا خاصا فی لیک سکیس، و القدس و جنیف، و استمعت الی عشرات البیانات الشفهیة و مثلها من البیانات و الوثائق الخطیة من الحکومات و من المنظمات السیاسیة و الهیئات الدینیة، لم تکن الحلول التی أوصت بها فی تقریرها جماعیة.

فقد اقترحت أکثریة الاعضاء تقسیم فلسطین، و اقترحت الاقلیة المؤلفة من الهند، و ایران، و یوغوسلافیة، إقامة دولة واحدة علی نظام فیدرالی، بینما لم تؤید اوستراليا کلا الفریقین ..

اما بالنسبة للقدس فقد وضع اقتراح الاکثریة منطقتها تحت نظام الوصایة الدولیة، علی ان یعین مجلس الوصایة التابع لهیئة الأمم حاکما عاما للقدس لا یکون عربیا و لا یهودیا. بینما ینص اقتراح الأقلیة علی تأسیس حکومتین مستقلتین استقلالا ذاتیا تتألف منهما دولة اتحادیة مستقلة عاصمتها القدس نفسها. و قد أوضح موقف بریطانیة من الاقتراحین مندوبها آرثر کریتش جونس، علی ما یذکر لیلنتال، و قال ان دولته لا تقر فرض أی مشروع جدید تضعه هیئة الأمم ما لم ینل موافقة الطرفین العرب و الیهود .. و هکذا ألقت بریطانیة مسؤولیة کبری علی عاتق أعضاء هیئة الأمم .. و قام محمد ظفر اللّه خان وزیر خارجیة الباکستان و مندوبها فی هیئة الأمم یدافع بحماسة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۳۵

و حرارة عن وجهة النظر العربیة و معارضتها للتقسیم. فأکد ان من حق عرب فلسطین البالغ عددهم ملیونا و (۳۰) ألف عربی ان یختاروا نظام الحکم الذی یریدون، و ان هذا الحق قد ضمنته شرعة الأمم المتحدة .. و بعد ان تولت لجنة خاصة تدقیق الاقتراحین أقرت مشروع التقسیم، حینما أیدته ۱۳ دولة و امتنعت ۱۷ دولة عن التصویت. و یذکر المستر لیلنتال بهذه المناسبة (الص ۶۴) ان الجدیر بالملاحظة انه فی جمیع دورات الاقتراح وقفت الولایات المتحدة الی جانب روسیة السوفیاتیة .. و علی الرغم من هذا الانسجام المریب بین الدولتین، لم ینل مشروع التقسیم سوی أکثریة ضئیلة عند ما عرض امام الجمعیة العمومیة، إذ بلغ عدد المخالفین للمشروع و الممتنعین عن التصویت دار الوکالة الیهودیة فی القدس و قد نسفها العرب یوم ۱۱/ ۳/ ۱۹۴۸

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۳۶

۳۲ صوتا، و من بینهم مندوبو ثلاث دول کبری هی فرنسة و بریطانیة و الهند الذین تعمدوا التغیب عن الاجتماع.

و قبل ان تباشر الجمعیة العمومیة فی التصویت علی التقسیم استمعت الی الخطباء من مؤیدین و معارضین .. و کالعادة وقف مندوبا جنوب إمریکا غرانادوس و فابرفات یدافعان عن وجهة نظر الوکالة الیهودیة بکل حماسة و اخلاص، بینما لم یظهر مندوبو روسیة السوفیاتیة و الولایات المتحدة و جمیع المدافعین عن المشروع أی اندفاع أو تحمس لتأییده بل أعلنوا أسفهم لاضطرارهم الی اللجوء الی مشروع التقسیم کحل أخیر للقضیة الفلسطینیة ..

اما خطاب ظفر اللّه خان فقد کان بلیغا مؤثرا، إذ قال موجها حدیثه الی الدول الغربیة: «لا تنسوا انکم ستحتاجون فی المستقبل الی حلفاء و أصدقاء فی الشرق الأوسط، و لهذا أرجو ان لا تخسروا ما لکم من رأس مال فی تلک البلاد ..» ثم أضاف یسأل الدول الغربیة و خاصة الولایات المتحدة»: ما الغایة من إنشاء دولة یهودیة؟ أ هی من باب الدافع الانسانی؟ اذا کان ذلک، فلماذا أقفلتم أبواب حدودکم فی وجه الیهودی الذی لا ملجأ له؟ و لماذا تصرون إذن علی اسکانهم فی فلسطین، بل و مساعدتهم علی إقامة دولة لهم .. حتی یصبح ذلک الیهودی الذی کان بالأمس بلا مأوی یحکم العربی الفلسطینی ..؟» و أخیرا أنهی وزیر الخارجیة الباکستانی خطابه بالتهکم علی الحجج و الأسباب التی بررت بها الدول الکبری إقرار مشروع التقسیم.

مناورات صهیونیة لإقرار التقسیم

جاء فیما کتبه لیلنتال عن التقسیم قوله (الص ۶۷): و ننتقل الآن الی المناورات التی رافقت التصویت علی المشروع. فقد کان الاقتراع النهائی قد حدد موعده فی یوم ۲۶ تشرین الثانی، علی ان تسبقه جلسة للاستماع الی المناقشات الأخیرة، لکن الوفود فوجئت و بدون

سابق انذار بنبأ الغاء جلسة المناقشة و تأجيل موعد الاقتراع .. و قد جاء التأجيل بعد ان تأكد الصهيونيون

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۳۷

انهم بحاجة الى مزيد من الأصوات لتأمين الأكثرية المطلوبة .. و هكذا اغتنم قادة الصهيونية و الوكالة اليهودية هذه الفرصة لبذل أقصى ما فى وسعهم من مساع و اتصالات فى أروقة الأمم المتحدة ..

و يفهم مما يذكره ليلنتال (الص ۶۷) ان إغراء الصهيونيين لم يحدث تأثيرا لدى مندوبى بعض الدول مثل مندوب ليبيريا، و هايتى، و اليونان، و سيام، و مندوب الفلبين الجنرال كارلوس رومولو، الذى طعن الصهيونية طعنة نجلاء عند ما هاجم التقسيم بعنف و قال: «ان من حق كل شعب ان يقرر مصيره السياسى، و ان يحافظ على أراضيه و كيانه من أى اعتداء، و ان مشكلة مشردى يهود أوربة لا علاقة لهم البتة بانشاء دولة يهودية مستقلة فى فلسطين».

لكن الصهاينة استعانوا بأقطاب الحكومة الأمريكية و رجالها و على رأسهم الرئيس ترومان نفسه فضغطوا على الحكومات و انتزعوا منها أصواتها، الا الحكومة اليونانية.

و حينما أزف وقت التصويت فى يوم ۲۸ تشرين الأول، جرت مناورات أخرى فتأجلت الجلسة لمدة ۲۴ ساعة أخرى، حتى اذا ما حل صباح ۲۹ تشرين الثانى طرح قرار التقسيم على التصويت بعد بضع مناورات برلمانية فأقر بأكثرية ۳۴ صوتا ضد ۱۲ صوتا، و امتناع عشرة عن التصويت مع تغيب مندوب واحد. و قد علقت جريدة نيويورك تايمس فى مقال افتتاحى لها على القرار بقولها ان إقامة دولة سياسية على أسس و معتقدات دينية فقط لأمر ليس فيه من الحكمة شىء. و كذلك اعترفت صحف أخرى بان نتيجة هذا القرار قد يهدد السلام و الأمن فى العالم. و يعلق ليلنتال على نتيجة هذا القرار بقوله:

و منذ تلك اللحظة دق الأسفين الأول بين الغرب و العالم العربى الاسلامى .. ثم يضيف الى هذا قوله (الص ۷۹): «و قد كان مشروع تقسيم فلسطين القضية الأولى و الوحيدة التى جمعت بين الولايات المتحدة و الاتحاد السوفياتى فى صف واحد، و جعلت بينهما نوعا من الانسجام منذ أنشئت هيئة الأمم»، و يقول ليلنتال: «و يجدر بنا الاعتراف هنا ان الحكومة الأمريكية قد برهنت بوقوفها

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۳۸

مع السياسة الروسية فى صف واحد على جهلها التام بالأساليب السوفياتية ..

دعونا نتساءل لماذا كان الكرملين يسمح بل يشجع هجرة اليهود اللاجئين الى اسرائيل من الدول الشرقية الواقعة تحت نفوذه؟ لما ذا كان الكرملين يسمح بتجمع (۳۰) ألف مهاجر يهودى فى موانىء البحر الأسود استعدادا لتسفيرهم الى فلسطين؟ اذا كان هذا العمل لا يخدم الأغراض السوفياتية و يتفق و خططهم المرسومة نحو الشرق الأوسط ..»؟

و يجدر بنا هنا ان نورد ما ذكره مترجم كتاب ليلنتال المذكور الى العربية فى مقدمة الكتاب المترجم حول تأثير اليهود الصهاينة و مناوراتهم الجهنمية.

و هو يذكر ما يأتى نقلا عن المرحوم الأمير عادل أرسلان الذى كان عضوا فى الوفد السورى الذى حضر جلسة التصويت على التقسيم. فهو يقول:

«و كان المفروض ان تبلغ هذه الأصوات ثلثى أعضاء الهيئة، فقد كان ممثلو الدول العربية مطمئنين الى تأييد ثمانى عشرة دولة من الأمم المتحدة بحيث يستحيل ان يحظى مشروع التقسيم بأغلبية الثلثين المطلوبة. و كان الصهاينة و من ورائهم إمريكا يدركون هذا الأمر و يعرفون أن لا مناص لهم من زحزحة بعض مؤيدى العرب عن موقفهم و حملهم بشتى الطرق و الوسائل للتصويت على مشروع التقسيم. و بالفعل تمكنوا بمناوراتهم و اتصالاتهم الواسعة و وسائلهم المغرية من حمل مندوبى هايتى، و ليبريا، و سيام، للتصويب على المشروع بعد ان كان هؤلاء قد صرحوا أنهم سيقفون عند التصويت الى جانب الدول العربية لوجاهة قضيتهم و عدالتها. و قد فوجىء المندوبون العرب. فى جلسة الاقتراع التاريخية عند ما وقف مندوب هايتى و قال و الدمع فى عينيه انه ما زال شخصيا عند رأيه الخاص

فی معارضته مشروع التقسیم لکنه بصفته ممثلا لحکومة هایتی لا یسعه الا ان ینزل عند أوامرها بالموافقة علی المشروع.

و تفصیل هذا التغییر المفاجیء هو ان موسی شاریت قصد قبل جلسة الاقتراع الی الفندق الذی کان ینزل فیه مندوب هایتی، و اتفق انه فی تلک اللحظة کان یستقبل أحد العرب الفلسطینیین السید عونی الدجانی الذی جاء یشکره علی

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۳۹

موقفه من قضیة فلسطین، و دخل شاریت دون أن یأبه للسید الدجانی فقد ظنه سکرتیرا لمندوب هایتی. ثم بدأ الکلام عارضا مبلغ اربعین ألف دولار علی المندوب لقاء تأییده للمشروع. فرفض مندوب هایتی العرض بأباء، و أغلظ القول لشاریت الذی انسحب و هو یردد: سوف تندم و سنری ان حکومتک ستؤید التقسیم، و هذا ما حدث بالفعل ...

و لا شک ان الدوائر الصهیونیة کانت تبذل بسخاء فی إمریکا و غیرها، من أجل ترویج مصالحها و إرشاء أکبر الشخصیات و أهمها عند الحاجة. فیقول لیلنتال (الص ۱۲۵) «ان المکافآت المالیة التی کان ینثرها زعماء الصهیونیة کان لها أکبر أثر و أشد دافع للساسة الأمریکان فی مضاعفة جهودهم من أجل الصهیونیة و أغراضها. ففی عهد الرئیس ترومان کان بارکلی نائب الرئیس و غیره من المسؤولین فی الحکومة و أعضاء الکونغرس یتسابقون علی إلقاء الخطب و المحاضرات لتأیید الحرکة الصهیونیة لقاء أجور باهظة .. فان بارکلی کان مثلا یتقاضی (۱۵۰۰) دولار عن کل خطبة یلقیها .. و هکذا کانت الصهیونیة تشتری بالمال تأیید الساسة النافذین سواء فی البیت الأبیض أو فی دوائر واشنطن الرسمیة. و بهذه الوسیلة استطاع زعماؤها و أنصارها مع ما لدیهم من نفوذ و دهاء ان یمسکوا الحبل من طرفیه و ینتهجوا سیاسة مزدوجة لارشاء الحزبین القویین: الدیمقراطی و الجمهوری ..»

دیر یاسین و أخواتها

یقول المستر لورانس غریز و ولد فی (ادفع دولارا تقتل عربیا) «إن هیئة الأمم المتحدة عینت بالاتفاق مع بریطانیة العظمی یوم ۱۵ مایس موعدا لانتهاء الانتداب البریطانی و إقامة دولة اسرائیل المستقلة علی اساس من التقسیم الجغرافی العجیب الذی اقترحته لجنة الأمم المتحدة .. فاستغلت هذا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۴۰

العصابات الیهودیة و أخذت تعد العدة للاستفادة منه الی اقصی حد ممکن حینما تجلو بریطانیة و تصبح فلسطین بلا حکومة .. و لم یکن هذا بشیء جدید علی الارهابیین الیهود، علی ما یقول غریز و ولد، لأنهم کانوا خارجین علی العدالة منذ ۱۹۴۴ و کان عندهم سلاح بل لقد کانت عندهم مصفحات، و خبرة کبیرة فی صناعة القتل. و فی اواخر ۱۹۴۸ وضعوا خطة للعمل ..

و کانت لعصابتی شتیرن و الأرغون آراؤهما فی هذا الشأن. فاعتزمتا ترویع العرب، من طریق شن حملات علی القری الزراعیة العربیة و اکراههم علی التخلی عنها الی الیهود. و الواقع ان هذه الخطة، التی عرفت فی الأوساط غیر الرسمیة باسم «عملیة الذعر»، درست أحسن درس و نفذت بأشد حماسة.

فلم ینتصف شهر مایس حتی کان نصف ملیون عربی ممن نجوا من المذابح المتعاقبة یفرون بأنفسهم .. لأنه کان علی الیهود ان یذبحوا سکان بضع قری لیس غیر، ثم تتولی محطة اذاعتهم الباقی. و تفصیل ذلک ان الرادیو الیهودی کان یتباهی بتدمیر القری العربیة و ذبح سکانها ذبحا جماعیا ثم یحذر العرب قائلا:

ان علیهم ان یدرکوا حین یرون دبابات اسرائیل و جندها فی الطریق الیهم ان المصیر نفسه ینتظر قریتهم.

.. و کانت قریة دیر یاسین التابعة للقدس أول نصر أحرزته عصابة الأرغون ففی الصباح الباکر من ۹ نیسان ۱۹۴۸ حین کان المزارعون العرب و أفراد أسرهم ینصبون خیامهم فی سوق القریة، اقتحمت دبابتان من طراز شیرمان طرق دیر یاسین الضیقة و سحقتا فلاحین متعبین. و کان یصحب الدبابتین قوة من الیهود یبلغ عددها (۵۰۰) رجل مزودین بمدافع التومی و الأسلحة الأوتوماتیکیة. و لقد

صرحت القلة القليلة الباقية على قيد الحياة من ابناء دير ياسين- و معظمها من النساء اللواتى سلبن كل ما عندهن و مزقت أثوابهن تمزيقا، و اللواتى استعرضهن اليهود فى شوارع تل أبيب فى سيارات كبيرة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۴۱

قبل ان يسلموهن بالرغم منهن الى الصليب الأحمر الدولى- أقول لقد صرحت هذه القلة القليلة ان الدبابتين اقتحمتا سوق القرية و اطلقتا النار على الأهلين المحتشدين فى الساحة.

و بعد أن أطلقت الدبابتان نيرانهما تعقب الجنود الاسرائيليون أهل القرية الفارين بأنفسهم و قتلوهم فى غير ما استبقاء بينما كانوا يهربون و يختبئون و فى دير ياسين تكررت مشاهدات أريحا القديمة التى وصفها الكتاب المقدس بقوله «و قتلوا كل من فى المدينة من رجل و امرأة، و من طفل و شيخ، و حتى البقر و الغنم و الحمير». و كانت بعض الفظائع التى تلت تتطلب شيئا من الخيال.

فقد جمع الغزاة خمسا و عشرين امرأة حاملا- و وضعوهن فى صف طويل و اطلقوا عليهن النيران. ثم انهم بقروا بطونهن بالمدى أو بالحراب، و أخرجوا الأجنة منها نصف إخراج. و قطع الأطفال إربا إربا أمام أعين آبائهم الذين ما زالوا على قيد الحياة. و خصى الصبية الصغار قبل ان يقتلوا. و انتزعت الحلى و الخواتم من أجساد القتلى. و تبرت أصابع الضحايا الذين وجد المعتدون عسرا فى انتزاع خواتمهم ..»

الشهيد عبد القادر الحسينى قائد منظمة (الجهاد المقدس) استشهد فى معركة القسطل فى ۸/ ۴/ ۱۹۴۸.

و يقول غريز و ولد كذلك: «و طلب جاك دو رينيه مندوب الصليب الأحمر الدولى الاذن من الوكالة اليهودية فى الدخول الى دير ياسين. و لكن الوكالة لم تسمح بذلك الا- بعد انقضاء ۲۸ ساعة لكى تتيح للعصابة اليهودية فرصة تستطيع خلالها إخفاء معالم الجريمة. و هكذا ألقى نحو من مئتى جثة من جثث القتلى فى بئر

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۴۲

عتيقة، و غطيت بالقذر و الأوساخ. و لكن الرائحة النتنة فضحتهم، و تمكن المندوب البلجيكى من ان يحصى الجثث بعد اخراجها من البئر، بيد أن كثيرا من الأجساد لم تكن كاملة. و تحدث دو رينيه فى شىء من الاشمئزاز عن الأشياء التى شاهدها و روى كيف أنه وجد فتاة عربية فى السادس من عمرها ما تزال حية تحت ركام من الجثث، و كيف أنه حملها إلى المستشفى، و علق على هذا بقوله «كان ذلك بكل بساطة شيئا فظيعا».

ثم يضيف غريز و ولد الى ذلك قوله (الص ۴۸): «و لم تكن دير ياسين غير بداءة و استهلال. ففى اليوم الرابع عشر من نيسان تكرر المشهد فى قرية ناصر الدين (القريبة من طبرية). و فى الخامس من مايس هاجم أفراد الهاغانا (جيش اسرائيل الرسمى) عددا من القرى القائمة على ضفاف الأردن قرب القرية المعروفة ببيت الخورى. و فى هذا الهجوم قتل مئات من العرب و جرح ما يزيد على ألف و مائتين. و مثّل بالضحايا، رجالا- و نساء و أطفالا- قبل الموت و بعده. و قطعت رؤوس عدد من الرجال لأنهم أبدوا بعض المقاومة. و فى ۶ و ۷ و ۱۳ مايس شن اليهود هجمات جديدة على قرى عربية أخرى. ففى الزيتون جمع أهل القرية كلهم فى المسجد، ثم نسف المسجد بالديناميت على رؤوس من فيه. و فى بيت دراس طبّق اليهود الخطة التى طبقوها فى دير ياسين نفسها»

و يختم المستر غريز و ولد قصته المؤلمة بقوله: «إن لائحة الفظائع اليهودية المماثلة طويلة جدا، لكنها كلها تنهج نفس النهج. و هى تفسر لنا كيف استطاعت قوى من الارهابيين و الهاغانا صغيرة نسبيا أن تخرج نحوا من ۷۰۰، ۹۰۰ عربى من الأرض التى حرثوها و عمروها لأنفسهم منذ الاف السنين.

لقد نجحت «عملية الذعر» نجاحا عظيما جدا من وجهة النظر الصهيونية، و لعل واضعها كان فخورا بها!! و لكن المهم حقا هو أن اسرائيل أصبحت دولة مستقلة فى ۱۵ مايس، و ان الرئيس ترومان كسب السباق الى الاعتراف بها، و كسبه بمراحل واسعة».

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۴۳

مولد الدولة الاسرائيلية

يقول ألفريد ليلنتال فى (ثمن اسرائيل الص ۹۲): و فيما كان موعد انتهاء الانتداب البريطانى على فلسطين يوشك ان يحل، كانت المعارك الدامية فى الأرض المقدسة تزداد عنفا و شدة، و كان الرأى العام فى إمريكا، حتى الجمعية العمومية نفسها، يزداد هياجا و اندفاعا فى تأييد الصهيونية ... و لعل أبلغ دليل على تحيز الجمعية العمومية هو رفضها السماح للدكتور ماغنس بالمثول امام الأعضاء ليدلى بوجهة نظر اليهود غير الصهيونيين فى القضية، و سماحها فقط للوكالة اليهودية بالتحدث باسم «الشعب اليهودى».

و بعد ذلك يتطرق المستر ليلنتال الى كيفية اعتراف الولايات المتحدة باسرائيل حتى قبل مولدها، فيقول: فقد أعلن وايزمن قبل أيام معدودة من البريطانيون يفتشون العرب فى باب العمود من القدس

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۴۴

جلاء قوات الانتداب البريطانية ما نصه: «لقد تمكنت من توطيد علاقاتنا بأصدقائنا فى واشنطن و تأكدت انه سيتم الاعتراف بالدولة اليهودية فى اللحظة التى يعلن فيها عن انشائها ..» و فى ۱۳ أيار ۱۹۴۸ كتب رسالة خاصة الى ترومان يطلب فيها ان تعترف الولايات المتحدة حالا بالحكومة الموقتة للدولة اليهودية الجديدة. و فى هذه الأثناء كانت الجيوش العربية تستعد للزحف على الأرض المقدسة ..

و لكن فى صباح ۱۴ أيار ۱۹۴۸ تمكن كلارد كليفورد مستشار الرئيس الأمريكى الخاص- الذى كان على اتصال مستمر بزعماء الحزب الدمقراطى و قادة الصهيونية- من إقناع رئيسه ترومان بوجوب القيام بعمل فورى لانقاذ الحزب الدمقراطى من هزيمة محققة فى الانتخابات المقبلة .. و هكذا اختلى ترومان طيلة يوم ۱۴ أيار بمستشاريه المقربين، كما اجتمع الى فرانك غولدمان رئيس مؤسسة «بناى بريث» الصهيونية التى ينتمى اليها صديق ترومان الحميم و شريكه اليهودى القديم أدى جاكسون، كما أبرق سول بلوم عضو الكونغرس (اليهودى) الى ترومان يقول: ان على الولايات المتحدة ان تعترف بالدولة اليهودية الجديدة، و بذلك تساعد على منع نفوذ السوفيات من التغلغل الى فلسطين و الشرق الأوسط ..

و فى حوالى الساعة الحادية عشرة و النصف من قبل ظهر ذلك اليوم استدعى البيت الأبيض الياهو أبشتاين (و كان فى ذلك الوقت يمثل الوكالة اليهودية فى واشنطن) و أبلغه ان حكومة الولايات المتحدة قررت ان تعترف اعترافا واقعيا بدولة اسرائيل فور إعلانها، بشرط ان نوجه الدولة الجديدة كتابا تطلب الاعتراف بها. فأجاب ابشتاين ان الدولة الجديدة لا يسعها ارسال مثل هذا الكتاب قبل مولدها و وعد بان يتصل بتل أبيب و يبلغها رغبة الرئيس ترومان ..

و يتابع ليلنتال سرد القصة فيقول: «جرت كل هذه التطورات الخطيرة فى جو بالغ من الكتمان، بل ان البيت الأبيض قرر إبقاء قرار الاعتراف فى طى الكتمان و خاصة عن ناظر الخارجية مارشال أو أى شخص آخر من

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۴۵

موظفى الخارجية، لتحاشى أى معارضة قد يثيرها مارشال، و لأن نايلز و كليفورد كانا يخشيان ان يعمد ترومان الى تأجيل الاعتراف».

و فى الساعة السادسة تماما حسب توقيت واشنطن (الساعة ۱۲ حسب توقيت القاهرة) أعلن نبأ نهاية الانتداب على فلسطين .. و فى السادسة و الدقيقة الواحدة أعلن قيام دولة اسرائيل الجديدة. و فى السادسة و إحدى عشرة دقيقة تم اعتراف الولايات المتحدة بالدولة الجديدة .. و لكن الذى حدث انه بعد ۲۴ ساعة من عزم الرئيس على اتخاذ مثل هذا القرار تلقت نظارة الخارجية الأمريكية برقية من الحكومة الموقتة لدولة اسرائيل تطلب الاعتراف بها. و هكذا ارتفع فى سماء فلسطين عند الساعة الثانية عشرة و الدقيقة الواحدة أول علم لدولة اسرائيل، كما ارتفع فى نفس الوقت نفس العلم فى واشنطن على بناية الوكالة اليهودية سابقا.

جنديان بريطانيان تخلفا عن الرحيل و بقيا فى فلسطين فالتحقا بالجهاد ضد الصهاينة و اسم الجالس جون، و اسم الواقف ميك.

ثم يعلق ليلنتال على هذا كله بقوله:

و عند إعلان مولد اسرائيل رقص الشعب فى شوارع تل أبيب و واشنطن و نيويورك و غيرها من المدن .. و مع ذلك فان الفرح و الاستبشار لم يعما جميع الأنحاء .. فقد كتبت صحيفة «غازيت، بوست» تتهكم على قرارات ليك سكسيس قائلة: لقد كان الوفد الأمريكى موضع سخرية باقى الوفود فى هيئة الأمم، و ان قرار الرئيس ترومان الفورى بالاعتراف باسرائيل قد ترك حلفاءنا فى دوامة من الظلام و الحيرة ..

كما وضع نظارة الخارجية فى فوضى ظاهرة .. اما صحيفة «رتشموند تايمس»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۴۶

فقد أشارت الى الأصوات اليهودية التى يرجو كسبها الحزب الدمقراطى الحاكم فى الانتخابات القادمة من جراء ذلك .. بينما هاجمت صحيفة «بوست ديسپاتش» فى مدينة سان لويس السياسة التى اتبعها البيت الأبيض و العوامل التى حدت به لسلوك هذا المسلك ضاربا عرض الحائط بالمصالح الدولية فى سبيل كسب أصوات اليهود.

تدخل الجيوش العربية

كانت المقاومة العنيفة التى أظهرها العرب فى فلسطين بعد قرار التقسيم قد أدت بمجلس الأمن الى ان يصدر قرارا بدعوة العرب و اليهود الى التهادن و تعيين لجنة مشرفة على تنفيذه قوامها قناصل امريكا، و بلجيكا، و فرنسة، فى القدس. لكن الطريقة التى أخلى بها الانكليز البلاد، لتمكين اليهود فيها، و الارهاب الذى صارت تستخدمه العصابات اليهودية لتخويف العرب و تشريدهم، قد حدت بالشعب العربى فى كل مكان بان يطالب حكوماته بوجوب التدخل فى الأمر و الحيلولة دون مبادرة اليهود الى الاستيلاء على فلسطين كلها من دون التقيد بحدود التقسيم.

و قد اجتمعت الدول العربية فى جامعة الدول العربية فقررت ذلك. و حينما غادر المندوب السامى البريطانى ميناء حيفا، فى منتصف ليلة ۱۵ مايس ۱۹۴۸، معلنا نهاية الانتداب شرعت الجيوش العربية فى الزحف على فلسطين من الشمال و الشرق و الجنوب. فسيطر الجيش المصرى، و فى معيته بعض سرايا من السعوديين، مع متطوعين من السودان و ليبية و مصر، على القسم الجنوبى من فلسطين بكامله عدا بعض المستعمرات اليهودية التى عزلت. و سار الجيش العراقى بعد ان احتل مستعمرة الجسر و استولى على مشروع كهرباء روتنبورغ فى خطّين، يتجه أحدهما الى نابلس فقلقيلية فناثانية على البحر، و يتجه الثانى فى اتجاه مرج ابن عامر، فالعفولة، فجنين. و كانت أفواج من الفلسطينيين فى القاطع الشمالى و القاطع الغربى تؤلف ستارا أمام الكتائب العراقية الأمامية.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۴۷

اما الجيش السورى فقد احتل سمخ و سيطر على عبر اليرموك من جسر بنات يعقوب باتجاه طبرية، ثم احتلت مشمار هايردن. و احتلت القوات اللبنانية الناقورة و بعض المواقع العسكرية على الحدود حتى أخذت تسيطر على الجليل الغربى. و احتلت القوات الأردنية أريحا ثم استولت بعد قتال عنيف على القدس القديمة و طهّرت الحى اليهودى فيها فجعلته ركاما. كما طهّرت أيضا المنطقة الممتدة بين رام اللّه و جسر اللنبى. و حينما احتلت القوات الأردنية القدس القديمة أصبحت القدس الجديدة تحت سيطرة مدافعها. و بالتعاون مع المناضلين الفلسطينيين قاتلت فى باب الواد و اللطرون فسيطرت على طريق القدس الرملة. ثم رابطت حول اللد و الرملة.

و لم يكد يمضى اسبوعان حتى كانت الجيوش العربية تسيطر على المناطق المخصصة للعرب فى قرار التقسيم باستثناء يافا و قسم من الجليل الغربى، و توشك ان تحدق بتل أبيب.

معركة القدس

اشارة

يفرد الكاتب اليهودى الصهيونى جون كيمشى فصلا خاصا لحرب فلسطين (الفصل ۱۸)، يتبسط فيه فى وصف معركة القدس نفسها. و هو و ان كان محشوا بالمغالطات و التحيز فاننا لم نجد بأسا من ايراد شىء منه هنا توخيا للاطلاع على وجهات النظر المختلفة.

فهو يقول: و بينما كان الجيش الأردنى فى كيشر على وشك أن يبدأ سباقه الى حيفا، كان الملك عبد اللّه يتسلم من قائد جيوشه الانكليزى (كذا) فى القدس نداءات الملك عبد اللّه بن الحسين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۴۸

مستعجلة تطلب امدادات عاجلة. و يقول كيمشى ان الملك عبد اللّه كان يهمه القدس أكثر مما يهمه الاستيلاء على ميناء حيفا. بينما كان الانكليز يرون ان استيلاءه على حيفا شيئا عمليا أكثر، لكن جاذبية القدس فى العالم العربى تفوق أية جاذبية أخرى و لذلك لم يتردد عبد اللّه. فسيق الجيش الذى كان من المقرر ان يزحف على حيفا نحو القدس .. و أصبح من الواضح ان اتجاها جديدا فى الحرب أخذ يتبلور. فقد أخذ عبد اللّه و اليهود معا يبذلون جهدهم كله فى الاستيلاء على القدس. و كان العرب مستولين على معظم المدينة القديمة فى داخل الأسوار، بينما كان اليهود متمسكين بمعظم المدينة فى خارجها. و كان فى أيدى العرب كذلك التلال المحيطة بالمدينة و الضواحى من جهات ثلاث، و قد نجحوا فى قطع الطريق الوحيد الذى يربط القدس باليهودية و دولة اسرائيل باستيلائهم على منطقة اللطرون. و على هذا فقد اضطر اليهود الى ان يخوضوا قتال شوارع فى داخل المدينة، و ان يقاتلوا فى الوقت نفسه فى اللطرون لفتح الطريق من أجل أن يجيئوا بالرجال و الامدادات الى المدافعين المحصورين بضيق.

و قد كان الجيش الأردنى قبل ۱۵ أيار قد نجح فى اعادة الاستيلاء على منطقة الشيخ جراح من المدينة الجديدة، و بذلك عزل جبل الزيتون عن بقية المدينة اليهودية. و كانت محلة اليهود فى المدينة القديمة فى أشد حالات الحصار، و على و شك أن تستسلم. و كان غلوب پاشا فى تلك الأثناء هو الذى يفرض ستراتيجية الحرب الفلسطينية، فثبت الجيش العربى فى اللطرون و اصبح على استعداد للقتال. لكن بن غوريون عزم على الاستماتة فى فتح الطريق. فتحشد لواء جديد هو (السابع المدرع) بسرعة فى نعان .. و بعد تأخيرات و معوقات كثيرة شن هجومه المنتظر فى الثانية بعد منتصف الليل ففشل فيه، و تراجع الكثير من جنوده فلم يستول على اللطرون.

و هنا يأخذ كيمشى بالدفاع عن هذا الفشل و يفسره بتفسيرات سخيفة من جملته ان الجيش العربى الأردنى وصلته امدادات كثيرة، و ان مدير العمليات العسكرية الكولونيل الشاب أيكال اللون لم يكن متفائلا منذ البداية لأن اللواء قد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۴۹

سيق على عجل تنفيذا لأوامر بن غوريون المستعجلة، لأنه أراد الطريق الى القدس ان يفتح قبل ان يحدث ما يجمد الحدود على حالتها بقرار من هيئة الأمم.

لكن الاستغاثات من يهود القدس أخذت تتوالى، لأن يهود المدينة القديمة قد نفدت أقواتهم و معداتهم. و كان الشبان عازمين على الدفاع حتى النهاية، لكن الكبار لم يعد بوسعهم ان يفعلوا ذلك فأرادوا الاستسلام. و كان الهجوم على اللطرون آخر أمل فى معالجة الموقف، و حينما فشل الهجوم انقطع الأمل فى إغاثة المدينة القديمة. فاستسلم اليهود فيها، و كان عددهم حوالى اربعمائة يهودى أغلبهم من الشيبة و أزواجهم و أطفالهم فأخذوا الى الأسر. لكنهم عوملوا أحسن معاملة من قبل آسريهم رجال الجيش العربى.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۵۰

و كان استسلام المدينة القديمة و الاستغاثات الواردة من قائد المدينة الحديثة قد حفّز بن غوريون و مشاوريه السياسيين على العمل. فطلب الى لواء اللطرون ان يحاول محاولة أخرى. و تقرر ان يعطى المدفعين اللذين كانا يعملان ضد السوريين، و ان تضاف لهما ثلاثة مدافع من قياس ست بوصات مع أقل من عشرين قذيفة. لكن القائد الاسرائيلى كان بحاجة الى جنود جدد- فان كتيبة واحدة من البالماخ عدتها (۶۰۰) مدرّب كان يمكنها ان تعالج الموقف ...

و حينما أدرك بن غوريون ان الاستيلاء على اللطرون لم يكن من العمليات السهلة كما كان يعتقد البعض من مشاوريه أمرت جماعة من شباب البالماخ بالزحف على القدس عبر الجبال الوعرة لاسعاف الحامية المحصورة. و كانت المعدات فى القدس على وشك ان تنفد.

لكن المدافعين اليهود صمدوا فى المدينة القديمة، مع انه لم يعد عندهم الا مقدار يسير من الماء و شيء قليل من الطعام. و قد تعرض السكان المدنيون الى قصف متواصل من المدفعية. و تبادل الطرفان المتقاتلان الاستيلاء ست مرات على مستعمرة رامات راشيل فى الطرف الجنوبى من القدس. و كانت البنوك و الأديرة و الكنائس قد أصبحت نقاطا مهمة للدفاع. لكن العائق الحقيقى الذى وقف أمام هجمات الجيش الأردنى هو قوة المدافعين الشبان التى ظلت تحارب من دون استجمام، ليس منذ الخامس عشر من مايس فقط بل منذ سبعة أشهر صعبة أيضا- أى منذ كانون الأول ۱۹۴۷- و لم يثبت هؤلاء فى مكانهم فقط و لكنهم أيضا استولوا على مناطق ستراتيجية مثل القطمون و البقاع و ثكنات اللنبى التى كانت فى أيدى القوات العربية. على ان التحمل الانسانى أخذ يخضع للضغط المتواصل. و قد علم بن غوريون بذلك، و مع هذا فقد أمر بالضغط على اللطرون.

غير أن الجيش الأردنى فى اللطرون ظل متمسكا فى مكانه بقوة و عناد.

و مع هذا فقد ساعد هجوم الاسرائيليين على اللطرون فى انقاذ القدس، لأن مدفعية الجيش الأردنى مع رجاله و سياراته المصفحة نقلت من ميدان المعركة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۵۱

فى القدس نفسها الى اللطرون. و على هذا الوضع تجمدت الحدود بالتدريج عندما دنت ساعات الهدنة الأولى. و كان مقاتلو الطرفين قد أخذت الحرب منهم مأخذها.

و يذكر كيمشى بعد ذلك ان العرب فى العواصم العربية استشاطوا غضبا لاعلان الهدنة الأولى لأنهم كانوا مخدوعين بالانتصارات الوهمية التى كانت تعلن عليهم يومذاك. و بعد ان يذكر (الص ۲۶۰- ۲۶۵) ما جرى فى مجلس الأمن و أوساط الأمم المتحدة من مناورات، و تمديد أمد الهدنة التى استفادت منها اسرائيل فائدة جلى بشراء السلاح من الجيش البريطانى المنسحب و جيكوسلوفاكية، و تهريب الطيارات و الطيارين من الولايات المتحدة و انكلترة، و تجنيد المأجورين المرتزقة و المتطوعين من العالمين الغربى و الشرقى معا، يقول:

ان اتفاقا غير رسمى قد حصل بين البريطانيين و الأمريكان من أجل خطة منقحة للسير بموجبها، و هى ان تقبل بريطانية بقيام الدولة الاسرائيلية (كذا) و وجودها، على ان تقبل الولايات المتحدة لقاء ذلك بان تخصص النقب للعرب.

و هنا يذكر كيمشى ان ما كنيل وزير الدولة البريطانى قال له ان القتال فى فلسطين يعتبر شيئا ضروريا، لأن سفك الدماء لا بد من ان يقع بين الطرفين حتى يقتنع العرب بأن الدولة الاسرائيلية قد أصبحت شيئا موجودا بالضرورة، و حتى يقتنع اليهود بأنهم لا يستطيعون الا بالكاد الدفاع عن الحدود المخصصة لهم. و هكذا بدأت الجولة الثانية.

و كان اليهود يأملون فى الجولة الثانية ان يستخلصوا الأراضى الفلسطينية فى الشمال و يفتحوا الطريق الى القدس فى الوسط و بذلك يجبرون الجيش الأردنى على الانسحاب من شمالى القدس و غربيها .. و قد حدث فى هذه الأثناء ان أمر غلوب پاشا بسحب الجيش من اللد و الرملة اللتين كانتا تحتويان على ستين ألف نسمة فى ضمنهم عدد كبير من اللاجئين العرب. فاغتنم اليهود هذه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۵۲

الفرصة و استولوا عليهما بثلاثة ألوية (۶۰۰۰ مقاتل) .

ثم يقول كيمشى: و حينما أخذت الجيوش الاسرائيلية بالكشف عن خططها، و عندما أخذت المواقع العربية تنهار، اصبحت القيادة الاسرائيلية شديدة الثقة بانها ستفتح الطريق فى هذه المرة الى القدس و تخلص الجليل الشمالى من العرب. لكن هذا لم يحصل أيضا

لأن الهدنة الثانية قد وقعت. و هنا يذكر كيمشى ان مفتى القدس أخذ يناوىء الملك عبد اللّه و يقود معارضة أخذت الشكل الارهابى المألوف. و لذلك أبقى قسم من الجيش الأردنى فى البلاد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۵۳

الأردنية، و لم يبق لدى غلوب باشا سوى (۳۰۰۰) مقاتل يدير بهم جبهته الممتدة الى ثلاثين ميلا بين القدس و اللطرون، و يحمى القدس القديمة ضد أى هجوم قد يحدث. و يعود كيمشى للتعرض بالملك عبد اللّه من جديد فيقول انه كان على علم بأن اعتباره بين الدول العربية كان منوطا بجيشه، و لذلك كان هذا الجيش أعز على نفسه من أية قطعة أخرى من فلسطين. و كان يفضل ان يسحبه بهدوء و سكينة على ان يتركه معرضا للاندحار او التقلص بسبب الحرب.

غير ان كيمشى يصرح ان انسحاب الجيش الأردنى لم يساعد اليهود على الاستفادة من قواتهم فى جهات أخرى، بل ساعد العرب على الحيلولة دون نفوذ الجيش الاسرائيلى الى طريق القدس، و لكن بالكاد. فحينما أعلنت الهدنة الثانية- بعد تسعة أيام فقط- كانت القوات الاسرائيلية على بعد (۴۰۰) ياردة فقط عن الطريق.

ثم يقول كيمشى فى ختام الفصل: لكن الصورة العامة فى فلسطين كانت تدل على مقدار غير يسير من انتكاس العرب فيها. فقد استطاع الجيش الاسرائيلى خلال الأيام التسعة ان يحتل ألف كيلومتر مربع من الأراضى التى كانت فى أيدى العرب، فجعلت اسرائيل مسيطرة على (۱۳۰۰) كيلومتر مربع من الأراضى المخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم، و تركت فى أيدى العرب (۳۳۰) كيلومترا مربعا من الأراضى المخصصة لليهود. و قد احتلت اسرائيل خلال أيام القتال كلها- البالغة ۳۸ يوما- أربع عشرة بلدة عربية و (۲۰۱) قرية من مجموع (۲۱۹) قرية عربية. يضاف الى ذلك ان (۱۱۲) قرية أخرى من القرى الواقعة فى القسم العربى قد تم احتلالها أيضا. و كان العرب قد احتلوا أربعة عشر موقعا يهوديا، من ضمنها محلة اليهود فى القدس القديمة (انتهى).

لكن الكولونيل عبد اللّه التل قائد معركة القدس يذكر عن هذه المعركة

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۵۴

فى مذاكراته . فيقول تحت عنوان (سوء الحالة و خطورتها فى القدس بعد ۱۴- ۵- ۴۸): استطاعت لجنة الهدنة القنصلية التى عينها مجلس الأمن لتعمل على ايجاد هدنة فى القدس، أن تحصل على موافقة العرب و اليهود على تمديد تلك الهدنة التى رتبها المندوب السامى، و لا سيما بعد ان فشلت مساعى وفد الصليب الأحمر الدولى لاعتبار القدس مدينة مفتوحة. و اتفق الطرفان مع لجنة الهدنة على ان يحتل اليهود ما كان يعرف بمنطقة السلام (C) حول العمارة الروسية (المسكوبية) على ان يحتل العرب منطقتى السلام (A) و (B) اى منطقة الكولونية الألمانية و ما حولها و منطقة جمعية الشبان المسيحيين.

غير ان الهدنة الجديدة لم تكد تعقد و يغادر الجنود البريطانيون القدس فى ۱۴- ۵- ۴۸ حتى شرع اليهود- خرقا للهدنة- فى احتلال ما بأيدى العرب و ما خصص لهم من مناطق. و كان الدفاع عن القدس العربية موكولا لجيش الانقاذ و للجهاد المقدس، و لم يكن الفريقان على استعداد عسكرى كاف، و لم يكن الناس يعرفون انه لم تكن من خطة الجيش العربى الاردنى او القيادة العربية العامة تجنب احتلال القدس. و هكذا احتل اليهود تحت ستار الهدنة و خرقا لها أهم المناطق الستراتيجية خارج السور و هى: معسكر اللنبى، معسكر العلمين، دير ابوطور، النبى داود، المسكوبية، المستشفى الايطالى، نوتردام، المصرارة، باب العمود، سعد و سعيد، الشيخ جراح. و لم يبق للعرب خارج السور الا- باب الساهرة و وادى الجوز. و كان العرب كلما احتجوا للجنة الهدنة و للصليب الأحمر على خرق اليهود للهدنة أجاب اليهود بان الجماعات اليهودية المنشقة هى المسؤولة عن ذلك، و لا حول لهم فى منعها!

و تحت عنوان (اليهود يحاولون اقتحام القدس القديمة) يقول الكولونيل التل: و قد تم كل ما سبق ذكره خلال ثلاثة أيام فقط هى يوم ۱۵ و ۱۶ و ۱۷ أيار ۱۹۴۸، ففيها ساءت الحالة لدرجة أصبح معها جميع سكان القدس

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۵۵

العربية مهددين بالفناء لأن اليهود لم يكتفوا بما احتلوه من مواقع ستراتيجية بل أخذوا يهاجمون الأبواب الرئيسية للقدس القديمة و هي: باب العمود، و باب الخليل، و الباب الجديد و باب النبي داود، محاولين اقتحام المدينة القديمة التي احتشد فيها أكثر من ستين ألف عربي نزح أكثرهم من الأحياء العربية في القدس الجديدة. و في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث كان العرب في القدس يتوقعون دخول اليهود من أحد الأبواب للفتك بهم و تدمير المقدسات العالمية.

و لكن بطولة جنود الانقاذ و الجهاد المقدس و شرطة القدس استطاعت بقيادة المجاهد الكبير أحمد حلمي باشا، و القائد خالد الحسيني، و الرئيس فاضل عبد اللّه صدّ اليهود عن الأسوار في تلك الفترة الحرجة بالرغم من نقص الذخيرة و الفوضى التي دبت في صفوف العرب نتيجة هجمات اليهود المتواصلة و تأخر الجيش الأردني عن الوصول الى القدس.

و لذلك لم يكن أمام الهيئات العربية في القدس غير التوجه الى عمان للاستنجاد بالملك عبد اللّه. فذهبت الوفود في كل يوم من الأيام الثلاثة المذكورة الى عمان و شرحت لجلالته خطورة الحالة، و ذكرته بقبر والده و بالصخرة و الحرم الشريف و كنيسة القيامة، و في كل مرة كان جلالته يظهر اهتمامه و اضطرابه و يعد بارسال النجدات. و لا شك في ان السبب الذي أخّر جلالته عن ارسال النجدة كان الفريق غلوب الذي أسقط القدس من حسابه، و وضع خطة توزيع الجيش العربي بفلسطين على أساس ان القدس ستصبح يهودية، و تعليماته الى الكتيبة السادسة أكبر دليل على ذلك.

و تحت عنوان (الزحف على القدس و انقاذها ۱۷- ۵- ۴۸) يقول: و لكن اللّه سبحانه و تعالى أراد حماية القدس القديمة فألهم جلالة الملك جرأة خارقة فخالف أمر غلوب، و أصدر موافقته الهاتفية لي ظهر يوم الاثنين ۱۷- ۵- ۴۸ بارسال سرية واحدة الى القدس. فأرسلتها فورا، ثم وافق جلالته على حركتي مع بقية سرايا الكتيبة الى القدس، و خاصة بعد ان أقنعته بأن سرية واحدة لا تكفي لحماية أحد الأبواب .. و لم تمض ليلة ۱۷- ۱۸- ۵- ۴۸ حتى كانت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۵۶

الكتيبة السادسة قد أخلت مراكزها في الخان الأحمر، و جسر اللنبي، و أريحا و انتقلت الى القدس.

و يذكر الكولونيل عبد اللّه بعد ذلك ان غلوب باشا لم يوافق على حركة الجيش الأردني الى القدس، ثم يشرح توزيعه لقواته على مختلف أجزاء المدينة، و محاصرة الحي اليهودي و صد هجمات اليهود عن الأبواب، و يأتي بعد ذلك الى ذكر انذار اليهود بالتسليم، و قصف الحي اليهودي في القدس القديمة، و تعاون القوات العربية الأخرى معه. كما يشرح كيفية انقاذ حي الأرمن، و معركة باب النبي داود يوم ۲۴- ۵- ۴۸ التي صدّ فيها اليهود و خسروا ستين قتيلا، و يأتي بعد ذلك الى ذكر قتال الشوارع و عمليات التدمير التي قام بها العرب في الحي اليهودي من القدس القديمة. و يذكر في هذه الأثناء شيئا عن الحي اليهودي هذا فيقول:

تبلغ مساحة الحي اليهودي حوالي ربع مساحة القدس القديمة. و هو عبارة عن منازل قديمة بنيت قبل أكثر من ألف سنة الا القليل منها، و ان أغلب منازل الحي وقف اسلامي يعود الى أسر مسلمة. و كان يقطن الحي اليهودي حوالي (۱۸۰۰) يهودي، بينهم كثير من المحاربين و أغلبهم من الهاغانا و بعضهم من عصابتي الأرغون و شتيرن، اما المدنيون فأغلبهم من اليهود الشرقيين المتدينين. و قبل انتهاء الانتداب كان الجيش البريطاني يحاصر الحي من جميع الجهات ليقف حائلا بين العرب و اليهود. و كان الانكليز يمونون اليهود المحاصرين طوال الأشهر الثلاثة التي سبقت جلاء الانكليز .. و لذا فقد كان اليهود يدخلون الذخائر و الأسلحة مع قوافل المؤن التي كانت تصل الى القدس القديمة تحت حراسة الانكليز دون ان يسمح للعرب بتفتيشها.

ثم يذكر السيد التل ان الزعيم لاش قائد الفرقة الانكليزي في الجيش الأردني كان يرفض وضع خطة موحدة لتعاون قوات الجيش في القدس، و ان ضباط المدفعية الانكليز كانوا يتجنبون قصف الأهداف المطلوبة، و انه تمكن من إدخال المدرعات الى شوارع القدس القديمة، و ان مندوب الصليب

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۵۷

الأحمر كروفوازيية الفرنسى كان يساعد اليهود، و ان اليهود قد اعتصموا فى كنائسهم و حصنوها.

و يكتب السيد التل عن اعتصام اليهود المحاربين فى الكنيس اليهودى الكبير أو «قدس الأقداس» Horuva فيقول ان يوم الجمعة ۲۷- ۵- ۴۸ كان يوما أسود على يهود القدس القديمة، ففيه ضيقنا الخناق عليهم فانكمشت خطوطهم الدفاعية حتى وصلت الى الكنيس الكبير و هو أكبر و أقدم كنيس يهودى فى فلسطين، و قد بنى قبل أكثر من مائتى عام، و حينما أنبأنى الرئيس موسى قائد القوات التى تحاصر الحى اليهودى و تهاجمه بان التدمير و الزحف قد وصل الى الكنيس الكبير الذى امتلأ بالمحاربين اليهود أخبرت الرئيس ان ينتظر و لا يسمح بالتعرض للمقدسات ريثما أتمكن من تبليغ انذارى لليهود ..

فاضطررت لاصدار الأمر الى القوة باتخاذ الاجراءات التى تجدها ضرورية لتطهير المنطقة بما فيها اليهود المستحكمين بالكنيس. و لما لم يجد قائد القوة بدا من نسفه فقد أوعز لفرقة التدمير بذلك و تمت العملية و قضى على المحاربين المتعصبين من اليهود تحت الأنقاض.

و بعد ان يصف الكولونيل التل كيفية استسلام اليهود فى القدس القديمة و أسرهم، يدون ملاحظات عامة عن هذه المعركة الخطيرة نورد فيما يأتى اهمها:

۱- كانت تلك المعركة أهم معركة خاضتها الجيوش العربية فى حرب فلسطين لانها أتت بنصر تاريخى لا تنمحى آثاره، فقد كانت السبب فى بقاء القدس القديمة و ما جاورها من الأحياء فى أيدى العرب حتى يومنا هذا (أى الى ان استولى اليهود على الضفة الغربية كلها من الأردن فى نكبة ۵ حزيران ۱۹۶۷).

۲- قتل فى تلك المعركة ما يزيد على (۳۰۰) يهودى من المحاربين

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۵۸

المتعصبين، بينهم (۱۳۶) من عصابة الأرغوت، و جرح (۸۰) وجدناهم فى المستشفى و كانت جراح نصفهم خطيرة.

۳- أخذنا من اليهود (۳۴۰) أسيرا و هو العدد المماثل تقريبا لما أخذناه من مستعمرة كفار عصيون، و بذا يكون هذا جميع الأسرى اليهود لدى الجيش العربى و هم المجموعة الوحيدة لدى الجيوش العربية.

۴- دمر الحى اليهودى و لم يبق فيه مكان الا أصيب بأضرار فادحة مما يجعل عودة اليهود اليه أمرا مستحيلا.

۵- طهّرت القدس المقدسة من اليهود و لم يبق بها يهودى واحد و ذلك لاول مرة منذ الف عام.

۶- ظهر ان اليهود المتعصبين يقاومون كثيرا و يحسنون الدفاع. و انى أشهد بان يهود القدس القديمة قد صبروا و احتملوا مرارة الحرب الى آخر حد.

۷- كان لهذه المعركة نتائج خطيرة بعيدة المدى، فقد حفظت القدس المقدسة عربية و جعلت منها من الوجهة الحربية دعامة للجناحين: الجناح الأيمن نابلس و الجناح الأيسر منطقة الخليل. و لو لا معركة القدس القديمة لما بقيت الضفة الغربية بأيدى العرب، إذ لو أن القلب و هو القدس سقط- لا سمح اللّه- فان اليهود كانوا ينزلون الى أريحا فى وادى الأردن و يقطعون اتصال الأردن بالضفة الغربية فتنهار الجبهة كلها. (و هذا ما حصل مع الأسف فى ۵ حزيران ۹۶۷).

مقتل الوسيط الدولى الكونت برنادوت

كانت الهيئة العامة للأمم المتحدة قد قررت قبيل انتهاء الانتداب البريطانى على فلسطين فى ۱۵ مايس ۱۹۴۸ تعيين وسيط مفوض من هيئة الأمم يختاره ممثلو الدول الكبرى. و لم يتم الاتفاق على شخص هذا الوسيط الا بعد ان زحفت جيوش الدول العربية الى فلسطين بخمسة أيام، حيث تم الاتفاق على

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۵۹

تعيين الكونت برنادوت السويدى. و يقول جون كيمشى (الص ۲۵۸) ان الانكليز هم الذين تولوا ترشيحه و دعمه، ليبرهن على انه كان مسيرا من قبلهم. و يـذكر ان الكونت كتب فى مـذكراته ان أول من زاره عنـد وصوله الى پاريس مقر اجتماع الأمم المتحدة فى تلك السنة فى يوم ۲۵ مايس كان المستر أشـلى كلارك القائم بالأعمال البريطانى فى پاريس. و قد أخبره «بان الحكومة البريطانية لم تكن مسـتعدة فى ذلك الوقت لتتخذ أية خطوات معادية للعرب». ثم يقول كيمشـى: و قد قيل له فى الحقيقة ان الحكومة البريطانية كانت لا تزال تقدم الأسلحة للعرب، و ان الضباط البريطانيين الذين كانوا قد عيّنوا مدربين يقومون بدور فعال فى الحرب كذلك. حتى و لو لم تكن الـدوائر البريطانيـة ميّالـة الى قبول الاقتراح الأـمريكى باعتبار ما قامت به انـدول العربيـة خرقا لوثيقـة الأمم المتحـدة و قرارها فى التقسيم.

الكونت برنادوت الوسيط الدولى الذى قتله الصهيونيون فى القدس بتاريخ ۱۷/ ۹/ ۹۴۸

و لم يكن ممثلو الحكومة البريطانية بطيئين فى الوقت نفسه فى أن يبينوا للكونت بحذر الخطوط التى يمكن ان يسير عليها فى وساطته حتى تكون مثمرة و حتى يسـتطيع التمتع بالتأييـد البريطانى فى العواصم العربيـة على الأقل. فان الحكومـة البريطانيـة كانت تريـد إجراء تعـديل فى خطـة التقسـيم التى قررتهـا الأـمم المتحـدة بان يعطى القسم الجنوبى من النقب الى عبـد اللّه و ليس الى اليهود، و ان يأخذ اليهود الجليل الغربى عوضا عن ذلك. و ان يأخذ عبد اللّه مدينة القدس بأكملها أيضا.

و قد وصل الكونت برنادوت قبيل هدنة الحادى عشر من حزيران

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۶۰

الى مقره فى رودس، فكان مساعده الدكتور پنتش قد أحضر له قرار التقسيم.

و حينما زار فلسـطين و البلاد العربية هو و مرافقوه قوبلوا بالشك و الازدراء من العرب و الاسرائيليين معا، فقد كان العرب لا يثقون بأى شىء يصـدر من الأـمم المتحـدة التى يرون أنهـا هى السـبب فى جميع مـا وقع فى فلسـطين من بلايـا و اضـطرابات. لكن هـذا لم يمنع الرؤساء العرب من معاملة بعثة برنادوت بأكثر ما يكون من الود و الضيافة التقليدية المعروفة عنهم، اما اليهود فى تل أبيب و سائر أنحاء اسـرائيل فقـد اسـتثارهم وجود برنادوت و المراقبين الـذين جاءوا فى معيته .. و ظلوا خلال الأيام التى أخـذت تنتهى فيها هدنة الأسابيع الأربعـة ينتظرون بقلق مقترحات الكونت الجديـدة. و قـد عرفت هـذه فى نهايـة الأسـبوع الثالث من أسابيع الهدنـة، أى فى بدايـة تموز ۱۹۴۸.

و اذا كان الاسـرائيليون يشـكون فى تعاطف الكونت مع العرب فقـد أزالت هـذه الشـكوك المقترحات الجديدة التى لم تكن تختلف عما اقترحه عليه البريطانيون بصورة غير رسـمية. فقـد اقترح ان توضع القدس كلها- القسم العربى و اليهودى- تحت حكم الملك عبد اللّه. على ان تحتفظ اسرائيل فى مقابل ذلك بالجليل الغربى. و لم يكن قد اقترح ذلك أحد من قبل. فقد كانت هناك مقترحات حول تـدويل المدينـة المقدسـة، و لكن الآن اى بعـد سـبعة و عشـرين يوما من الهجمات غير المجدية على المدينة اليهودية، و بعد جميع ما عاناه يهود القـدس من حصار يأتى الكونت بكل برود فيقترح ان يقدم لعبد اللّه ما فشل فى الحصول عليه فى قوة السـلاح (كذا). و لم يكن ذلك غلطة خطيرة أثرت على وضع الكونت فى اسرائيل فقط، و انما كان ايضا خطأ سياسيا بالنسبة لعلاقاته بالعرب. فقد أثار بهذا شهيـة الملك عبد اللّه، الذى اعتبر الاقتراح تأييدا من هيئة الأمم المتحدة لادعائه (بملوكية) القدس جميعها. فأزعج ذلك المصـريين و السوريين الذين لم يكونوا يريدون ان يستحوذ عبد اللّه على القدس. و الحقيقة ان هذا المقترح الاستثنائى قد جعل استئناف القتال شيئا مؤكدا فى نهاية الهدنة لأن القدس قد تبدل وضعها خلال مدة «وقف اطلاق النار» من كونها جبهه

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۶۱

منسية الى اعتبارها أهم جبهة فى فلسطين.

هذا و يلاحظ ان جون كيمشـى الصـهيونى لم يذكر فى كتابته هذه شيئا عن مقتل الكونت برنادوت الا باشارة عابرة، لان العمل الشنيع

هذا يعتبر و صمة عار على كل دولة تقع فيها هذه الجريمة النكراء المدبرة، و استهتارا بجميع القيم الانسانية و الأعراف الديبلوماسية، لا سيما و ان القتيل لم يكن يناوىء اسرائيل فى الحقيقة كما يفهم من مغالطات كيمشى، و انما كانت أول فقرة من مقترحاته تدعو العرب الى الاعتراف بأن اسرائيل اصبحت حقيقة واقعة.

على أننا لاحظنا فى كتاب (جندى بين العرب) لمؤلفه غلوب پاشا فى فلسطين، انه يصف هذا الحادث الأليم بشىء غير يسير من الدقة. فهو يقول (الص ۱۸۱): «كان برنادوت قد طار فى صباح الجمعة الموافق ۱۷ أيلول ۱۹۴۸ من مطار دمشق و نزل فى قلنديه، شمالى القدس. و استقل سيارته الى الرملة للمداولة مع لاش (قائد فرقة الجيش الاردنى). و فى خلال الحديث أشير الى حصول ازدياد فى نشاط القنّاصة فى القدس. و قد طلب اليه لاش بان يقبل باستصحاب سيارة مصفحة من سيارات الجيش العربى الاردنى لحمايته.

كما اقترح عليه أحد مراقبى الأمم المتحدة بأن يؤجل زيارته الى القدس فى ذلك اليوم. فرفض ذلك و هو يقول «لا يمكن ان نسمح لأنفسنا بان يعيقها الخوف عن عملها». فصحبت الكونت سيارة مصفحة من الرملة الى القدس، حيث عبر الى المنطقة اليهودية .. و تغدّى فى دار «الواى أيم سى أى» فى القدس مع جماعته و عدد من مراقبى هيئة الأمم المتحدة. و بعد الغداء استقل السيارة فسارت به مع سيارتين أخريين الى دار الحكومة، أى المسكن السابق للمندوب السامى البريطانى. و بعد تفقد الدار و الحديقة المحيطة بها، و مشاهدة المدينة من أعلاها، عادت الجماعة الى القدس. و بينما كانت السيارات تسير موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۶۲

فى محلة القطمون اعترضت طريقها فجأة سيارة جيب كانت تقف فى منتصف الطريق. و حينما وصلت اليها سيارات الكونت و جماعته تظاهر سائق الجيب بمعالجة جهاز التبديل فيها، و صار يسوق سيارته الى الخلف و الأمام، حتى وقف أخيرا فى منتصف الطريق أيضا. و كان فى سيارة الجيب أربعة رجال يرتدون ألبسة الجيش الاسرائيلى المعروفة. كما كانت قافلة الكونت تتألف من ثلاث سيارات تقل موظفين فى الأمم المتحدة و ضابط ارتباط إسرائيلى.

و لم تكن ترافق هذه السيارات أية حماية اسرائيلية، كما لم يكن أحد من جماعة الكونت يحمل السلاح.

و قد قفز ثلاثة من ركاب سيارة الجيب اليهودية الى الخارج و ساروا نحو قافلة هيئة الأمم المتحدة التى وجدت نفسها مجبرة على التوقف لأن السيارة اليهودية سدت الطريق فى وجهها. و كان الكونت برنادوت فى السيارة الثالثة أو الأخيرة، فمشى اليه أحد الاسرائيليين من جهة بينما سار الاثنان الآخران من الجهة الأخرى و ذهبوا الى السيارة الثالثة رأسا، بينما بقى السائق فى سيارة الجيب نفسها. و قصد الاسرائيلى المنفرد شباك السيارة القريب من الكونت، فظن ركابها انه جندى يهودى جاء يسأل عن الرخص التى تسمح لهم بالمرور و أخذوا يخرجونها من جيوبهم. و فجأة أدخل الجندى الاسرائيلى فوهة مسدس أوتوماتيكى من الشباك فأطلق صلية منه على الكونت و أخرى على الكولونيل سيرو الفرنسى، الذى كان يجلس فى جانب الكونت. و سحب الاسرائيليان الآخران مسدسيهما الأوتوماتيكيين فأطلقا منهما النار على عجلات السيارات و أجهزة التبريد (الراديا تور)، ليمنعاها عن التعقيب على ما يظهر. و بعد ذلك قفز الثلاثة الى سيارتهم الجيب التى اختفت عن الأنظار بكل سرعتها.

و قد شوهدت سيارة نقل ملأى بالجند الاسرائيلى، واقفة على بعد أربعين ياردة من مكان الحادث. و عرف فيما بعد ان القتلة كانوا ينتظرون فى سيارتهم قبل وصول برنادوت بساعة على الأقل. و قد أصيب الكونت بست طلقات مرت إحداها فى القلب فقضت على حياته فى الحال. أما الكولونيل سيرو فقد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۶۳

أصيب بسبع عشرة إطلاقة. و أرسل القتلة الذين كانوا ينتمون الى عصابة شتيرن اليهودية الارهابية الكتاب التالى الى الصحف:

«بالرغم من أن جميع مراقبى هيئة الأمم المتحدة هم فى نظرنا أفراد قوات احتلال أجنبية، لا يحق لها ان تكون موجودة فى بلادنا، فان مقتل الكولونيل سيرو الفرنسى كان سببه غلطة مميتة: فقد ظن رجالنا ان الضابط الذى كان يجلس الى جنب الكونت برنادوت كان الجاسوس البريطانى المعادى للسامية الجنرال لوندستروم». و كان الجنرال لوندستروم من ضباط الجيش السويدى و رئيسا لمرافقى

الكونت برنادوت نفسه.

و يقول كلوب و قد نقل جثمان الكونت الى حيفا فى يوم ۱۸ أيلول، فمر موكبه بمواقعنا باللطرون فحياه حرس شرف من الجيش العربى الأردنى لآخر مرة .. و قد انتظرنا بقلق بالغ ما يمكن ان يحصل بعد هذا الحادث الأليم. فقد كان الكونت ممثلا لهيئة الأمم المتحدة، و قريبا من أقارب ملك السويد، و رجلا كرّس حياته للأعمال الخيرية و الانسانية. و كنا نعتقد جازمين بأن هيئة الأمم سوف تنزل عقوبة قاسية بالذين قتلوا ممثلها مثل هذه القتلة الشنيعة. و حينما مرت الأيام و لم يحصل شىء، بدأنا ندرك ببطء مقدار العجز الذى تتصف به هيئة الأمم المتحدة. و لم تفرض أية عقوبة على ما نعلم، و الحقيقة أنه نادرا ما صدر اى انتقاد من الجهات التى يعنيها الأمر».

اما الكولونيل عبد اللّه التل، قائد معركة القدس، فيقول (الص ۳۴۸):

و فيما يتعلق بالكونت برنادوت أخذ اليهود يهاجمونه علنا و يتهمونه بالوقوف فى طريق تكوين اسرائيل، و ذلك قبل تنفيذ أمر اغتياله ببضعة اسابيع. و كانت التهم التى توجه له عجيبة متناقضة، لانه كان- و اليهود يعرفون- من أكثر العاملين على خلق دولة اسرائيل و حمايتها .. و لما كانت العصابات اليهودية جزءا لا يتجزأ من كيان اليهود لأنها أسهمت الى حد كبير فى بناء ذلك الكيان فقد تغاضت السلطات اليهودية عن أعمال العصابات الاجرامية و لا تزال تشرف اشرافا كليا على أعمال الاجرام السياسى. و قد نجحت فى ذلك لأن هذا الاجرام

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۶۴

خدم أغراضها و أخاف أمريكا و بريطانية و معظم الدول الغربية ..

و كان برنادوت يقوم باحدى جولاته العادية، و حينما وصل الى القدس بعد ظهر الجمعة ۱۷- ۹- ۴۸ قدم الجيش الأردنى الحراسة اللازمة له ابتداء من مطار قلندية حتى الحدود العربية الاسرائيلية (ماندلبوم). و من الحدود اليهودية سار برنادوت و أركان حربه الى دار الحكومة، و بعد أن أنهى بعض الأعمال هناك عاد الى الأحياء اليهودية فى الرابعة و النصف بعد الظهر. و فى أحد شوارع اليهود اعترض طريق سيارته بعض المسلحين من اليهود. فأوقفت سيارة برنادوت و تقدم اليها اليهود. و بكل سهولة و طمأنينة أطلقوا النار على صدر الكونت، و على رأس سيرو الذى كان راكبا بجانب الكونت فى المقعد الخلفى، و لم يعتدوا على رئيس المراقبين الأمريكى الكولونيل بيچلى الذى كان بجانب السائق .. و قد أسف العرب لمقتله لأنهم عرفوا فيه طيبة القلب، و سمو الأخلاق، بالرغم من مشاريعه لحل قضية فلسطين، تلك المشاريع التى لم يخل واحد منها من ايجاد الدولة اليهودية. اما الكولونيل الفرنسى سيرو فقد أحزن موته جميع سكان القدس العرب لأنهم عرفوه فى الهدنتين الأولى و الثانية، يوم كان يتجول على المراكز الأمامية البعيدة مخاطرا بنفسه فى سبيل القيام بواجبه على أحسن وجه. و قد اغتاله اليهود لأنهم اعتقدوا أنه كان صديقا للعرب.

اما السلطات اليهودية فقد تظاهرت بالأسف العميق و أو عزت للصحف بأن تدعى الحزن و تستنكر الجريمة البشعة، و وعدت بالقاء القبض على الجناة.

و من أجل تضليل الرأى العام العالمى. جمعت السلطات اليهودية أكثر من مائة شخص و حققت معهم صوريّا ثم تركتهم بعد ان لم تجد ما يدينهم كما هو المعتاد. مع ان الجناة معروفون لليهود و للعرب على السواء، و هم أفراد عصابة شتيرن و لم تحاسبهم الحكومة لأنها كانت الموعزة بتنفيذ ما وقع.

و يؤيد ما جاء فى أقوال الكولونيل عبد اللّه التل، عن برنادوت و سعيه فى

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۶۵

كل مشاريعه لايجاد الدولة اليهودية فى فلسطين، قول الكاتب الامريكى الصهيونى جوزيف دونر فى كتابه (جمهورية اسرائيل). فهو يقول عن تقريره و مقتله (الص ۱۰۸) و قد أصبح هذا التقرير شهادته التى أدين بها، لأن إرهابى «جبهة أرض الآباء» التابعة لعصابة

شتيرن على ما يتضح قد قتلوه فى ١٧ أيلول. و قد أحزنت وفاته العالم كله، و شجبت العمل الحكومة الاسرائيلية (كذا) فاعتبرته جريمة نكراء و عملا من أعمال الخيانة للجيش الاسرائيلى، و تحديا لسلطة الأمم المتحدة. (و هذه مغالطة من المؤلف لا يؤيدها الواقع الذى وصفه المستر غلوب فى الفقرات التى اقتبسناها من كتابه).

فان أبرز ما يميز تقرير برنادوت عن توصياته السابقة اعترافه الذى لا يقبل التأويل بالدولة اليهودية. و يدل على ان كاتبه قد تأثر تأثرا عميقا بالمجهود الحربى الذى بذله اليهود. و لم يكن هناك ما يدل على ان العرب سيعترفون بالدولة الاسرائيلية، لكن تفاؤل برنادوت كان مبنيا كما يتضح على قناعته بان العناصر المتعلقة فى العالم العربى كانت قد بدأت تدرك بأن اسرائيل قد وجدت لتبقى.

و كان برنادوت نفسه رجلا واقعيا. فحينما أصبح يلمس بان الواقع قد تبدل، لم يتردد فى تغيير رأيه هو نفسه. و منذ ان كسب اليهود الحرب كان هو قد بدّل الموقف الذى كان قد اتخذه فى مقترحات ٢٧ حزيران و كدّس مؤازرته من دون تحفظ للدولة الاسرائيلية. على ان معالجة الأمر بهذا الأسلوب تنطوى على نقاط ضعف فيها. فهى تقلل من تأثير النظرة الأخلاقية و من أهمية الأحكام الدولية غير المتحيزة. حيث انها تعود بالبشرية الى القاعدة القديمة المخطرة التى تقول: الحق للقوة. لكن الخطأ لا ينطوى كله فى برنادوت نفسه، لأن سياسته كانت تنعكس فيها الأحوال العالمية الجارية يومذاك، موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۶۶

و العجز الأساسى الذى كانت تتصف به هيئة الأمم المتحدة فى فرض أحكامها.

فما قاله برنادوت فى تقريره الى عالمنا هذا كان يفهم منه «ان واقع الحال هو ان الاستيلاء و الاندحار فى الحرب لا يزالان هما القوى المكونة للواقع السياسى و كل شىء آخر ما هو الاستار من الدخان».

مقتل الملك عبد اللّه فى المسجد الأقصى

لقد أدت الحوادث الأليمة التى وقعت فى فلسطين على أثر قرار هيئة الأمم المتحدة القاضى بتقسيم فلسطين الى حصول هزات و تطورات كثيرة فى العالم العربى، الذى يبدو انه استفاق على واقعه المؤلم وضعفه البارز تجاه الأطماع الأمبريالية و المناورات الدولية العنيفة فوجد نفسه متخلفا عن الركب الحضارى، و أموره مسلمة فى أيدى اناس تتلاعب بهم المصالح الاستعمارية، و تسيّرهم الأطماع الشخصية لدرجة غير يسيرة. و من أهم هذه التطورات و أبرزها ما أدى الى اغتيال الكثير من الشخصيات العربية البارزة، و حصول انقلابات و تبدلات حكومية كثيرة. و لقد سجل المستر غلوب فى كتابه (جندى بين العرب)، فى معرض ما كتبه عن اغتيال الملك عبد اللّه، عددا من هذه الحوادث. فهو يقول: و بعد مقتل الملك نشرت إحدى الجرائد القاهرية قائمة بالشخصيات العربية التى لقيت مصرعها خلال السنوات الخمس المنحصرة بين سنتى ١٩۴۶ و ١٩۵١. و هى تحتوى على ملكين: هما عبد اللّه ملك الأردن و الامام يحيى ملك اليمن، و على رئيس جمهورية واحد هو حسنى الزعيم رئيس الجمهورية السورية، و أربع رؤساء وزارة هم: أحمد ماهر پاشا، و النقراشى پاشا، من رؤساء الوزارة فى مصر و محسن البرازى السورى، و رياض الصلح اللبنانى، و على قائد عام عسكرى واحد هو سامى الحناوى السورى، مع رئيس الأخوان المسلمين فى مصر الشيخ حسن البنّا، و وزير واحد هو أمين عثمان المصرى، و عدد من مديرى الشرطة و القضاة. و حصلت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۶۷

محاولات غير ناجحة أخرى للقتل استهدفت عددا آخر من رؤساء الوزارة، و الوزراء و غيرهم من الشخصيات المرموقة.

و لا شك ان اغتيال الملك عبد اللّه فى القدس كان أبرز هذه الحوادث و أهمها. و يصف المستر غلوب فى كتابه جندى بين العرب الحادث فيقول:

«.. و كان من المقرر فى يوم الخميس ١٩ تموز ١٩۵١ ان يحضر الملك استعراضا للقوة الجوية الأردنية، فقد كان تواقا جدا الى خلق قوة جوية للأردن. إذ كان من المعتقد أن اسرائيل كانت تملك مائتى طيارة .. و فى ذلك الصباح تسلم الملك كتابا غفلا من التوقيع

جاء فيه انه سيقتل هو و أنا- أى غلوب- و كنت قد أعلمت بان أذهب الى القصر و اصطحب الملك الى المطار، و حينما وصلت الى هناك سلمنى ذلك الكتاب .. و مع ان الاستعراض كان بمقياس صغير جدا، فانه كان على أحسن ما يكون، و كان الملك بادى الانشراح. و قد تغدينا فى المطار، ثم طرنا الى القدس حيث كان يريد ان يبيت فيها. و كان جلالته شغوفا بالقدس و يرغب على الدوام فى ان يصلى فى الشيخ شحادة حسن فائق الانصارى شيخ الحرم القدسى مسجدها أيام الجمع. و فى صباح الجمعة استقل السيارة الى نابلس ليقضى الوقت فيها حتى يحين موعد الصلاة فى المسجد الأقصى عند الظهر. و هناك شرب القهوة مع سليمان بك طوقان رئيس البلدية و جلس يتحدث لمدة ساعة.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۶۸

و عند ذاك نظر سليمان بك الى الساعة و خاطب الملك يقول ان الوقت لا يتسع لعودة جلالته الى القدس و الصلاة فيها، ثم اقترح عليه ان يؤدى صلاة الجمعة هذه المرة فى جامع نابلس. لكن الملك لم يوافق، و أجاب يقول: ان العرب تقول ان المكتوب على الجبين لا بد من ان تراه العين.

و قد كنت منذ ان اغتيل رياض الصلح قبل ثلاثة أيام أشعر بتوتر و قلق.

فكلفت الكولونيل حابس المجالى بمرافقة الملك، و أخبرته بان يكون حذرا و لا سيما عند الصلاة فى الجامع الأقصى. و خطر فى بالى بأن أخابر مدير شرطة القدس فأحثه أيضا، على ان يكون حذرا بصورة خاصة فى أثناء الصلاة فى المسجد، لكننى عدلت عن ذلك و قلت لنفسى إنهم كلهم يعرفون واجبهم».

و يتابع المستر غلوب سرد القصة فيقول: «و قد دخل الملك الى الساحة الكبرى التابعة للمسجد الأقصى فى القدس قبيل الثانية عشرة بقليل، فكانت محتشدة بآلاف لا تعد و لا تحصى من الناس كما هو المعتاد فى صلاة الجمعة.

ففتح الناس مسيرا ضيقا سار فيه الملك، و الجمع المكتظ يضايقه من كل جانب.

و كان هو يهوى التحدث مع رعاياه، فوقف عدة مرات ليكلم الذين عرفهم من الناس، و لذلك أحاط به الكولونيل حابس و جماعة من المرافقين ليحاولوا صدّ الناس عنه، لكن الملك التفت اليه بتأثر و خاطبه بقوله: لا تحبسنى يا حابس.

و حينما اقترب الملك من باب المسجد الأقصى حاول حابس و جماعته ان يحيطوا بالملك من جديد، فكرر قوله له: لا تحبسنى يا حابس. و تجاوز الملك العتبة بعد ذلك و من خلفه الحاشية بأجمعها، فدنا منه شيخ المسجد الوقور بلحيته البيضاء الطويلة و حاول تقبيل يده. و فى تلك اللحظة بالذات خرج رجل من وراء الباب الكبرى فوجد نفسه قريبا من الملك، و على بعد ياردة واحدة منه. فأخرج مسدسه و أطلق منه إطلاقة صوبها نحو رأسه. فدخلت من خلف أذنه ثم خرجت من عينه. و عند ذاك سقط ميتا الى الأمام على ساحة المسجد، و راحت عمامته البيضاء تتدحرج فوق الأرض المبلطة بالرخام.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۶۹

و قد أخذ القاتل يطلق النار من مسدسه يمنة و يسرة من دون هدى، حتى خف اليه رجال الحاشية فقتلوه بدوره».

و بعد ان يصف غلوب كيفية سماعه للخبر و دعوته الى مكتب رئيس الوزراء، سمير الرفاعى، حيث وجده مع الوزراء يبكون بدموع غزيرة، و بعد ان يذكر استدعاء الجيش لمحافظة عمان و القدس التى نهبت فيها بعض المخازن قبل حضور الجيش، يقول انه علم فيما بعد ان رئيس الوزراء كان قد نبّه الملك قبل يوم اغتياله و رجا منه ان يكون حذرا فاجابه الملك عبد اللّه بقوله: «انى اؤمن باللّه فبيده حياتى».

و يعلق المستر غلوب على الحادث بقوله «لقد ثبت ان اغتيال الملك قد وقع بتحريض من أقارب مفتى القدس السابق الحاج أمين الحسينى. و قد حوكم المتهمون فى محكمة خاصة فحكم على أربعة منهم بالاعدام، و كان القاتل الفعلى قد قتله مرافقوا الملك عند وقوع الحادث. و اتهم المدعى العام كذلك عبد اللّه التل بكونه كان من المحرضين الثانويين على الاغتيال، و لا يخفى انه كان يعمل

مع المفتى فى مصر. و قد دعيت لأدلى بشهادتى عن عبد اللّه التل و خدماته فحكم عليه بالاعدام غيابيا. و حينما نشر خبر هذا الحكم عقد عبد اللّه التل مؤتمرا صحفيا فى القاهرة اتهمنى فيه بأنى قد لفقت التهمة ضده. حيث قال «لو كان القتيل غلوب باشا لكنت أنا قاتله، اما الملك عبد اللّه فلا».

و من الكتاب الغربيين الذين يشيرون الى مقتل الملك عبد اللّه فى القدس كذلك الكاتب الايطالى فرانسيسكو غابرييلى، استاذ العربية فى جامعة روما و الخبير فى الشؤون العربية و الاسلامية، فى كتابه (البعث العربى)، الذى ترجمه الى الانكليزية المستر لوفيت أدوردز. فهو يقول (الص ۱۲۹): موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۷۰

«.. ان سياسة الدولة الهاشمية الأخرى، المملكة الأردنية، كان يسيطر عليها الى حين موته المفجع فى القدس الملك عبد اللّه، آخر من بقى فى الميدان من أيام ثورة الحسين و لورانس العربية. و كان العربى الوحيد الذى حصل على شىء ما من الحرب مع اسرائيل المولودة حديثا و ليس من الكثير ان نحسب ان النزاع العربى- الاسرائيلى لو كان منحصرا بالأردن لكان وجد وسيلة للتوافق بين الطرفين بمرور الزمن .. و قد استمر عبد اللّه، فى المملكة الأردنية المتوسعة، يعلق آماله على وحدة الهلال الخصيب الذى خرج أبوه من موطنه فى البادية من أجله. و هذا ما يمس الاقليمية السورية و اللبنانية بعض المساس و يمسّ المتطرفين المناوئين لليهود بامكان اتفاق مع اسرائيل. فانتهى أمر ذلك الملك عبد اللّه يغادر المسجد الاقصى بعد صلاة الجمعة، و قد اخذت هذه الصورة قبيل اغتياله فى مناسبة مماثلة بتاريخ ۲۰/ ۷/ ۱۹۵۱

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۷۱

كله باغتياله فى القدس يوم ۲۰ حزيران ۱۹۵۱، الذى تم على يد رجل من أتباع مفتى القدس أمين الحسينى ..»

تدويل القدس

كان آخر عمل قام به الوسيط الدولى الكونت برنادوت قبل ان يغتاله اليهود هو أنه أعد تقريرا وضع فيه مقترحات جديدة، و رفعه الى سكرتير هيئة الأمم لمتحدة التى كانت منعقدة فى باريس يومذاك. و بعد ذلك بست ساعات وقع حادث الاغتيال فى القدس، و الظاهر ان العصابات اليهودية كانت قد اطلعت على ما جاء فى المقترحات الجديدة فلم يرقها ما جاء فيها، و لا سيما ما يختص منها باخراج النفب من أيديهم و بتدويل منطقة القدس. و كانت جميع قرارات هيئة الأمم المتحدة حول فلسطين تقضى بتدويل القدس، لكن الفكرة من أساسها لم تنفذ لان اليهود لم يقبلوا بها من جهة، و لأن المملكة الأردنية لم تتنازل عن حقها فى المدينة المقدسة و ما حولها من جهة أخرى. و على هذا الأساس بقيت القدس الى يوم النكسة العربية المريعة (۵ حزيران ۱۹۶۷) مقسمة الى قسمين: القدس الجديدة و يحتلها اليهود فيعتبرونها عاصمتهم، مع ان معظم أحيائها قبل الكارثة كانت عربية و معظم القرى حولها و الملحقة بها عربية، و ۹۸٪ من أملاكها و أراضيها تعود للعرب، و القدس القديمة التى صارت جزءا من المملكة الأردنية الهاشمية، و هى على صغر مساحتها و ضآلة أملاكها تمتاز بوجود المقدسات الاسلامية و المسيحية فيها، و لا سيما المسجد الأقصى و كنيسة القيامة .

و الظاهر ان الأسباب التى دعت المملكة الأردنية الى التمسك بالقدس تختص بسلامة المملكة نفسها، و أهمية الأماكن المقدسة فى نظرها. و تورد فيما يأتى ما كتبه المستر غلوب فى الموضوع، و هو يبين وجهة النظر الأردنية

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۷۲

يومذاك بطبيعة الحال. فقد كتب يقول فى كتابه (جندى مع العرب) الص (۲۹۱):

«.. كانت من المشاكل الحساسة خلال السنين الممتدة من ۱۹۴۸ الى ۱۹۵۱ مشكلة تدويل القدس. فقد صرفت لجنة الوصاية العائدة لهيئة الأمم المتحدة أشهرا طويلة فى وضع دستور دقيق للمدينة المدولة. لكن المشروع، مثل غيره من مشاريع هيئة الأمم المتحدة، ولد ميتا بسبب عدم وجود قوات دولية تعمل على تنفيذه بالقوة. و قد وافقت اسرائيل على تدويل الأماكن المقدسة فقط، لأنها كانت فى

أيدى المملكة الأردنية بطبيعة الحال. اما من الناحية العملية فان المدينة القديمة المسورة كانت هى الحصن المنيع الذى ساعد العرب على التمسك بالقدس. و لذلك فان تجريد هذا القسم من السلاح، دون القسم اليهودى، سيكون بطبيعة الحال فى صالح اسرائيل لدرجة كبيرة، من الناحية العسكرية.

لقد كانت القدس مدولة حقا فى مشروع التقسيم الذى وضعته هيئة الأمم المتحدة عام ۱۹۴۷، لكنها كانت يومذاك جزيرة فى وسط منطقة عربية من كل جانب من غير ان يكون لها اتصال طبيعى باسرائيل. فبشكلها ذاك كانت الأردن ترحب بتدويلها أيضا. لكن اسرائيل منذ ذلك الوقت قد ربطت القدس بالسهل الساحلى عن طريق ممر واسع عملت على فتحه. و لذلك أصبحت اية خطة توضع لتدويل القدس بحالتها التى توصلها الى اسرائيل شيئا مخطرا يهدد سلامة الأردن.

فلو نظرنا الى القدس من ناحية مقطعها العرضى، نجد انها تقع فى قمة الهضبة التى تكونها الجبال الفلسطينية. اذ تنخفض البلاد المحيطة بها من الشرق انخفاضا يبلغ (۴۰۰۰) قدم الى قعر وادى الأردن. على أنها من الجهة الغربية ليست كذلك. و هناك جبال أخرى تبلغ فى علوها علو القدس نفسها فى حدودها الغربية. و لذلك فاذا ما سحبت كل من الأردن و اسرائيل جيوشها من المدينة نفسها تصبح اسرائيل فى غرب المدينة و فى نفس مستواها المرتفع،

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۷۳

فتستطيع و الحالة هذا ان تنقضّ عليها فى أى يوم كان خلال دقائق معدودة فتحتلها. بينما تكون الأردن من ناحية أخرى بعيدة عنها و فى مستوى ينخفض عن مستواها بمقدار ألفى قدم فى انحدار شديد الهبوط فى الوقت نفسه. اما بالنسبة لمشروع ۱۹۴۷ فيكون الجيش الاسرائيلى بعيدا عنها جد البعد فى السهل الساحلى.

غير ان هذه الاعتبارات العسكرية البحتة لم تكن كل شىء فى الموضوع.

فقد أريد للقدس بموجب الدستور الذى وضعته هيئة الأمم المتحدة بان يحكمها مجلس منتخب يعين من فوقه حاكم يتبع لهيئة الأمم المتحدة. و قد سبق لليهود ان تكونت لهم فى المنطقة أكثرية عددية من السكان، و بهذا تستطيع السيطرة على شؤون المدينة ثم يقول غلوب: و بالنظر للعداء المستحكم بين العنصرين يكون من السهل علينا ان ندرك بان الأقلية العربية لا بد من ان تصبح فى وضع صعب بالنسبة لمجلس المدينة. فالى جانب طغيان الأكثرية اليهودية على العرب تستطيع من نواح أخرى ان تضغط عليهم بأساليب و طرق تضطرهم الى بيع ما يملكون و الرحيل الى خارج المنطقة، حيث يستطيعون السكن بحرية فى عمان أو غيرهما.

و هكذا يبدو لنا ان القدس سرعان ما تكون تحت رحمة اليهود الكلية بالتدريج. اما من الناحية العسكرية فان مثل هذا الوضع كان سيؤدى الى الكارثة. فاذا ما استطاع الجيش الاسرائيلى من تثبيت أقدامه فى القدس يمكنه عندئذ بسهولة ان يزحف الى أريحا و الأردن فيمنع المناطق العربية فى الضفة الغربية عن الاتصال بالبلاد الكائنة عبر الأردن. و ليس هذا فقط و انما ينقطع اتصال منطقة الخليل أيضا بمنطقة نابلس.

و كثيرا ما كان يبدو رفض اسرائيل لخطة التدويل شيئا غريبا فى نظرنا على هذا الأساس. لكن هذا الرفض لا بد من ان يكون قد حدث آنيا و أملته

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۷۴

الاعتبارات العاطفية. فقد تكونت اسرائيل و جعلت عاصمتها «مدينة داود».

لكن اليهود لو كانوا يريدون ان ينقلوا عاصمتهم موقتا الى تل أبيب، و يتنازلوا عن القدس الى هيئة الأمم، لكان بوسعهم أن يجبروا الجيش العربى الأردنى على التخلى عن المدينة المقدسة. و عندما يتم ذلك كان بوسع الاسرائيليين ان يعودوا بكل سهولة الى حيث يريدون. و من حسن الحظ انهم لم يفعلوا ذلك.

(و مع هذا فقد تحقق لهم ما يريدون بكل أسف فى نكسة حزيران ۱۹۶۷).

ثم يتابع غلوب فيقول: و كان من المؤلم فى هذه المشكلة ان جميع البلاد العربية الأخرى كانت تطالب بالتأميم، على خطأ أو صواب. و قد وقفت الأردن فى هذه القضية مع اسرائيل فى رفض التدويل ضد سائر أجزاء العالم العربى. و كان من الصعب فى الأمر ان يتناسى المرء ان البلاد العربية الأخرى كانت تّواقة الى قبول أى حل كان لمشكلة القدس لتحول دون استيلاء الملك عبد اللّه عليها ..»

و تعليقا على ما يذكره المستر غلوب عن موقف الدول العربية تجاه التدويل و مطالبتهم به ضد الملك عبد اللّه، نقول ان الاستاذ اكرم زعيتر فى (القضية الفلسطينية الص ۲۶۸) يتطرق الى رأى الدول العربية فى هذا الشأن و يقول انها ترى انه ما دام معظم مدينة القدس لم يكن بيد العرب، بل هو محتل من قبل اليهود، فان التدويل يمنع اليهود من اتخاذها عاصمة لهم، و يمكّن عشرات الألوف من العرب الذين اضطروا الى النزوح عنها و عن القرى العربية المحتلة من العودة اليها، و يمكنهم من استرداد أملاكهم و بيوتهم، و هى معظم مدينة القدس و قراها.

القدس فى ۱۹۶۰

اشارة

و آخر ما عثرنا عليه من المراجع الغربية التى يأتى فيها ذكر القدس و ما فيها هو كتاب بعنوان (الأردن الحديثة) لكاتبه القاضى الانكليزى المستر جيرالد

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۷۵

سپارو . فقد زار هذا المؤلف، الذى كتب عدة كتب أخرى، المملكة الأردنية عدة مرات فكتب عنها كتابا تطغى فيه اللهجة السياحية. و هو يدون فى الكتاب اشياء و معلومات كثيرة عن هذه المملكة الفتية، و من جملتها ما يختص بالأماكن الدينية و الأثرية التى يمكن ان يزورها السائح فى يومنا هذا.

و قد كتب عن القدس يقول: لقد لفت نظرى من جديد خلال زيارتى الأخيرة للأردن أهمية الأماكن التى يمكن ان تزار فى أنحاء الأردن جميعها ..

فليس هناك بلاد أخرى فى العالم يمكنها ان تقدم للزائر مثل هذه المناظر و الأماكن المبهجة الخلابة. ففى القدس وحدها يستطيع المرء أن يرى لأول مرة الهيكل، و الساحة التى طرد منها المسيح المرابين من اليهود، و الدرجات التى نزل منها هؤلاء هاربين الى الشارع فى أسفلها، و الشارع نفسه، و هو إذ يرى هذه يكون قد رأى التاريخ بعينه ينشر أمامه من جديد، و يدرك صدق ما جاء فى العهد الجديد بطريقة حديثة بالمرة، و مقنعة خلابة.

و لا شك ان القدس و ما يجاورها تكوّن المركز الرئيسى للسياحة فى الأردن.

و قد تأسست على ما نعلم منذ أزمنة ما قبل التاريخ، و هى تذكر فى الانجيل لاول مرة باسم «سالم». و قد استولى عليها النبى داود، فى سنة ۱۰۰۰ ق. م، فاتخذها عاصمة له، ثم جاء سليمان من بعده فشيد الهيكل فوق جبل مارا (الصحيح موريا). و كان ابراهيم قد أعد نفسه فوق هذا الجبل ليضحى بابنه اسحق قربانا للرب، و هنا بالذات شاد داود المذبح، الذى شيد سليمان الهيكل فى مكانه بعد ذلك. و لم يكن هذا هو الهيكل الذى عرفه السيد المسيح، و انما عرف الهيكل الذى بناه هيرود، و قد تنبأ بخرابه فتحققت النبوءة على أيدى الرومان فى سنة ۷۰ م. و عمد الامبراطور هدريان الذى أعاد بناء القدس كمدينة و ثنية فى سنة ۱۳۵ م الى تشييد معبد جديد كرّسه لكبير آلهة الرومان جوبيتر، فى موقع هيكل سليمان نفسه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۷۶

و حينما جاءت الى القدس الملكة هلينا والدة قسطنطين أول امبراطور مسيحى فى روما فى أوائل القرن الرابع، هدمت جميع أماكن

العبادة الوثنية بما فيها معبد هدريان الكائن فوق جبل مارا. و قد تركت خرائب مارا بعدئذ فأصبحت فى النهاية مزبلة للمدينة المقدسة. و بقيت على حالها تلك حتى قدم العرب الى القدس فى أوائل القرن السابع، و تعتبر الصخرة الموجودة فى قمة مارا مقدسة عند المسلمين لسببين: اولهما انها كانت الموقع الذى ضحى فيه ابراهيم الذى يقدسه المسلمون و يعتبرونه خليل اللّه و أول مسلم على وجه الأرض و ثانيهما انها ذكرت فى القرآن بكونها ذات صلة باسراء النبى محمد الى القدس و معراجه منها الى السماء، و يمكن زيارة قبة الصخرة يوميا من الساعة ۸ الى الساعة ۱۱ صباحا، و من الساعة ۱ الى الساعة ۳۰- ۲ بعد الظهر بشرط الحصول على رخصة خاصة يسهل استحصالها. ثم يقول المستر سپارو: و فى نفس الوقت الذى يزور فيه الزائر قبة الصخرة يتحتم عليه ان يسير على طول «طريق الأحزان» ، و هو الطريق الذى سلكه السيد المسيح و هو يحمل الصليب الذى صلب عليه (صليب الصلبوت). و قد قسم هذا الطريق الى أربع عشرة محطة يمثل الزائر فى كل منها دورا من الأدوار. ففى الساعة الثالثة من كل يوم جمعة بعد الظهر يخرج موكب فرانسيسكانى، يحتوى على الحجاج و السواح، فيقتفى خطوات السيد المسيح و يقف للصلاة فى كل واحدة من هذه المحطات. و يعتبر طريق الآلام أكثر من مذكّر للمشاعر من ساعات المسيح الأخيرة، لأنه يمثل المسيحية و هى حية متجسدة امام الناظر الذى تبدو له الأحجار نفسها و كأنها تتكلم فتقص عليه تاريخها الحافل بالذكريات.

و المكان الآخر الذى يمكن ان يزوره الزائر فى القدس هو كنيسة الضريح المقدس، أو كنيسة القيامة. و كان موقع هذه الكنيسة يقع فى خارج أسوار المدينة على عهد السيد المسيح، و يضم المكان الذى صلب فيه و حديقة يوسف

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۷۷

أريماثيا التى قبر فيها. و كان المسيحيون الأولون يتعبدون سرا فى هذه الأماكن و يحيط بالضريح المقدس، كما يحيط بسائر الأماكن المقدسة فى القدس، جو مؤثر يستحيل و صفه بالكلمات.

شىء عن قبة الصخرة

و يخصص المستر سپارو فى كتابه صفحات عدة لا يراد موجز مفيد عن قبة الصخرة و الأدوار التى مرت بها. و فى هذا الموجز اشياء لم يرد ذكرها فيما اقتبسناه قبل هذا. فهو يقول:

لقبة الصخرة فى القدس أهمية فائقة عند المسلمين و النصارى على سواء.

فهى مهمة عند النصارى لأن الصليبيين جعلوا من مبناها كنيسة مسيحية بديعة سموها «المعبد الربانى »، و تزداد أهميتها عند المسلمين حتى أكثر من هذا لأن تاريخ القبة نفسها هو فى قسم كبير منه تاريخ نشوء الاسلام و انتشاره عبر العصور.

و تعد قبة الصخرة، التى تأتى فى الدرجة الأولى من الأهمية، أقدم مثل يوجد اليوم لفن العمارة العربية. و هى تقع على نشوء من الأرض يبلغ ارتفاعه اثنى عشر قدما، فى بقعة واسعة من منطقة الحرم. و يعلو هذا الارتفاع فوق أسس صخرية لا بد من ان تكون قد بنيت عبر القرون الطويلة من تاريخها.

و يصل اليها الزائر من كل جهة عن طريق مراق عريضة و درجات تعلوها عقود رشيقة يسميها الناس «الموازين».

ثم يأخذ المستر سپارو بوصف مبنى القبة كلها من حيث العمارة و الزينة و التصميم و ما أشبه، مما يكاد يشبه ما مر اقتباسه قبل هذا من الوصف. و مما

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۷۸

يذكره فى هذه المناسبة ان أولياچلبى الرحالة التركى الذى زار القدس سنة ۱۶۷۱ يقول ان سقف المبنى لجميل كان من صنع الصناع الهنود، و يدون اسماء خمسة منهم: بهزاد من كلكتا، و مانى، و شاه قولى، و ولى خان، و أغارضا .. و يذكر سپارو بعد ذلك ان أحد المؤرخين القدماء من العرب ذكر ان العمل فى بناء القبة عهد الى اثنين من الموظفين موثوق بهما، و هما: رجاء ابن حياة بن جود

الكندى من علماء بيسان الكبار، و يزيد بن سلام المقدسى.

كما ذكر ان القبة حينما ثم بناؤها بقى من المبلغ المخصص لها مقدار مائة ألف دينار فقدمه عبد الملك هدية الى الشخصين المكلفين بالاشراف على البناء، لكنهما رفضا قبوله و هما يقولان: اننا نفضل ان نقدم مالنا و حلى أزواجنا بدل أن نأخذ هذا المبلغ. و من الأحسن صرف المبلغ على تحسين زينته و الابداع فيها. و عند ذاك صدر الأمر باذابة الذهب و إكساء القبة به. و كذلك أمر الخليفة بتغطيتها أيضا بطبقة من الشعر، و الصوف، و الجلد، لحماية ذهب القبة من جور الأحوال الجوية.

و يستشهد أيضا بأقوال بعض مؤلفى الغرب عن جمال القبة و مبناها، و منهم البروفسور هايتر لويس الذى يقول فى كتابه (أماكن القدس المقدسة):

و لا شك ان هذا المسجد من أجمل المبانى فى العالم، و يمكن ان يقال اضافة الى ذلك أنه من أجمل الأبنية التى عرفت فى التاريخ.

و يذكر جيمس فيرغوسن أيضا فى كتابه (رسالة عن طوبوغرافية القدس القديمة): ان مسجد قبة الصخرة جميل فوق العادة فقد زرت كثيرا من القصور و الأبنية الجميلة فى الهند و أوربة و سائر بلاد العالم فلم أجد بناء فيها يضارع قبة الصخرة فى روعته و سنائه. حيث ان تناسق الألوان فيه و امتزاجها الرائع فى جنباته لم أر مثله قط فى أية بناية أخرى. موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۷۹

و بعد ان يشير سپارو الى كتابة اسم عبد الملك بالخط الكوفى على المبنى يذكر ان البناء حينما تم ابتهج به المسلمون اى ابتهاج، و أخذوا يجلونه للغاية فخصص يوم الاثنين و الخميس من كل اسبوع لتنظيفه و العناية به، و كان يقوم بهذا العمل خدام خاصون كانوا قبل أن يبدأوا بعملهم هذا يستحمون و يلبسون ملابسهم الجميلة. و كانوا يعطرون الماء الذى يستعملونه فى التنظيف بعطر الورد و المستكى و الزعفران. و لم تقل العناية بالقبة عبر القرون .. و يورد سپارو هنا ما يذكره مؤلف آخر، هو هارى أمرسون فوسديك، عن القبة و أهميتها الدينية فى كتابه (حجة الى فلسطين). فهو يقول: و يعتبر هذا المكان أنسب الأمكنة و أليقها للعبادة على الاطلاق على ما يظهر. فهو محتشم و جميل، هذبت من نسبه و أبعاده السنون و الأيام، و أصبح زجاجه الملون على درجة غير يسيرة من الروعة و البهاء، و صار تنسيقه يملأ العين بالرضا و الطمأنينة، و جوّه ملطفا بالسكينة و الوقار، و ذكرياته لا تجارى .. و لذلك فهو مكان طبيعى للعبادة و الصلاة.

و قد كان لمسجد القبة تاريخ متغير عبر القرون. و من حسن الحظ ان كل أسرة حاكمة كان فيها من يهتم و يحافظ عليه. و بعد ان يذكر سپارو التعميرات التى أدخلت فى مختلف العهود، يقول ان جامع قبة الصخرة أصبح كنيسة مسيحية فى أيام الصليبيين (۱۰۹۹- ۱۱۸۷) بعد اجرء بعض التبديلات، و ان المؤرخ العربى الهراوى حينما زار القدس فى ۱۱۷۳ يذكر بالاضافة الى ذلك انه كانت هناك صورة لسليمان بن داود على الجدار المقابل لباب المغارة فيما وراء الصخرة، و كان فى شمال المبنى عدد من الدور خصص للقسان مبنيا على أعمدة جميلة. و فى أيام الصليبيين الأولى فى القدس كانت الصخرة تحظى بالكثير من التقديس و صار من المعتاد عندهم ان يأخذوا كسرا منها الى القسطنطينية و صقلية على سبيل التذكار و التبرك. و كانت هذه القطع تباع هناك موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۸۰

بما يعادلها من الذهب، و بهذا صارت تدر على القسس و المطارنة بالأموال الطائلة، لكن العادة أبطلت خوفا من ان ينتهى أمر الصخرة كلها بهذه العملية.

و لانقاذها من العبث عمد ملوك الصليبيين الى تغطيتها بالرخام و تشييد مشبك جميل من الحديد حولها الذى لا يزال باقيا حتى اليوم.

و بعد ان يتبسط سپارو فى ذكر التعميرات و العناية التى تمت على يد الفاطميين و صلاح الدين و من جاء بعده من الأيوبيين، الذين كانوا كلهم يقومون بتنظيف الجامع و كنسه على سبيل التبرك، يأتى على ذكر ما فعله سلاطين المماليك أيضا. ثم يتطرق إلى أوقاف القبة و اعتمادها عليها، فيقول (الص ۱۳۸) ان أمر المحافظة الدائمة على قبة الصخرة و مبناها قد أثير فى أيام الملك الأشرف برزباى سنة ۱۴۳۲ فعهد الى ممثله فى القدس الأمير أركاس الجلبانى بشراء عدد من القرى و كثير من الأملاك فخصص ريعها لادامة القبة و

صيانتها.

و قد نقش عمله هذا على الجدار الشمالى للمبنى.

ثم يقول ان القدس وقعت فى أيدى الأتراك سنة ۱۵۱۷، و يأخذ بالاشارة الى ما قام به سلاطين بنى عثمان من أعمال الصيانة و التحسين فى مبنى القبة الى حد القرن التاسع عشر الذى شهد، على ما يقول، اهتماما خاصا بالقبة أبداه اربعة من السلاطين: السلطان محمود ۱۸۱۷، و السلطان عبد المجيد ۱۸۵۳، و السلطان عبد العزيز ۱۸۷۴، و السلطان عبد الحميد ۱۸۷۶. و يذكر بعد ذلك قوله: و لا يعرف مقدار الترميم الذى جرى فى أيام عبد الحميد الثانى، لكنه هو الذى جاء بالسجاد الايرانى الفاخر الذى يراه الزائر اليوم فى المسجد، و صرف عليه مبالغ طائلة. و كذلك صرف على الشمعدان الكبير الذى كان معلقا فوق الصخرة، ثم نقل الى المسجد الاقصى فى سنة ۱۹۵۱. ثم انه أمر بنقش سورة ياسين من القرآن الكريم حول القسم الأعلى من الجدار الخارجى سنة ۱۸۷۵ و قد خط الكتابة الخطاط التركى الشهير محمد شفيق، بعد ان تم انتقاؤه للعمل من بين عدد من المتنافسين. اما قطع البلاط القاشانى الذى كتبت

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۸۱

عليه هذه السورة المباركة من القرآن فقد جيء بها من ولاية قاشان فى ايران.

و كان آخر ما تم فى عهد الأتراك الاستعدادات التى أجريت فى سنة ۱۸۹۸ تمهيدا لزيارة الامبراطور الألمانى القيصر و لهلم و زوجته القيصرة أغوستا فيكتورية. فقد أمر السلطان عبد الحميد بفتح فتحة خاصة فى الجدار الموجود بين برج السور و باب يافا فى القدس، و كان البرج المذكور يعرف بقلعة أو برج داود، حتى يمكن للضيفين الملكيين ان يدخلا بمراسيم فخمة الى القدس

و بعد ان يتطرق المستر سپارو الى تاريخ تزيين قبة الصخرة و مبناها بالبلاط القاشانى بالتفصيل، خلال مدة اربعمائة سنة من الحكم العثمانى، يختم مبحثه بما طرأ على قبة الصخرة فى السنوات الأخيرة. فهو يقول ان أحرج الأوقات التى مرت على قبة الصخرة هى الأيام التى أعقبت قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب و اليهود سنة ۱۹۴۸. فقد حصل قتال عنيف فى القدس، وقع خلاله ضرر كبير فى الأبنية، و لم يسلم المسجد المشهور (مسجد القبة) منه. إذ وقعت قنابل اليهود عدة مرات فى منطقة المسجد، كما وقع عدد غير قليل منها على المبنى نفسه فسبب اضرارا غير يسيرة. فأضافت هذه الأضرار شيئا جديدا إلى حالة التضعضع التى كانت قد آلت اليها القبة من قبل، و سببت كثيرا من القلق فى نفوس المعنيين بها. و تشير السجلات الحكومية الى ان القنابل قد أصابت منطقة القبة فى ما لا يقل عن ثلاث عشرة مناسبة، و قد وقع أكبر عدد منها فى يوم ۱۶ تموز و هو اليوم الذى سبق يوم الهدنة الثانية. فقد أصابت المنطقة فى ذلك اليوم ستون قنبلة، و لم تصب المبنى منها الا واحدة فقط. لكنها أحدثت ضررا بليغا فى السقف الخشبى. و حينما قصفت المنطقة قصفا عنيفا فى يوم ۲۳ أيلول ۱۹۴۸ تكسر عدد كبير من زجاج الشبابيك فى الجهة الشمالية الغربية، و حصلت أضرار بالغة فى ثلاثة عشر شباكا، و أضرار طفيفة فى تسعة أخرى، كما قتل رجل واحد كان يصلى فى المسجد. ثم سقط من جديد عدد من القنابل فى يوم ۱۰ تشرين الأول فهدم جزءا من الجدار الشمالى الغربى، و أحدث أضرارا بالسلّم المؤدى الى المرتفع الذى يقوم عليه المسجد نفسه.

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۸۲

القدس فى عام ۱۹۶۹

و كان من النتائج الخطيرة التى أعقبت خلق الدولة الاسرائيلية فى قسم غير يسير من فلسطين العربية، و تمادى الغرب و امريكا على الأخص فى تقويتها و دعمها بدافع من عصبيته الصليبية و مصالحه الاستعمارية، ان اعتدت هذه الدولة على الضفة الغربية من الأردن فى يوم ۵ حزيران ۱۹۶۷ و احتلتها كلها.

و كان من جملة ما احتلته القدس القديمة و ما فيها من الأماكن الاسلامية و المسيحية المقدسة. و بهذا اصبحت فلسطين كلها ترزح

تحت نير من الاحتلال الاسرائيلى، برغم قرارات مجلس الأمن الدولى التى أوجبت على اسرائيل الانسحاب الى ما وراء الحدود القديمة.

و خير ما يدل على الحالة فى القدس الى ما قبل أشهر قليلة فقط التقرير الذى كتبه صحفى أمريكى يدعى توم فيلدينغ عما شاهده بنفسه فى المدينة المقدسة فهو يقول:

«.. انها لحماقة ان تدعى ان العرب فى القطاع الشرقى من مدينة القدس، و فى أى مكان آخر من الضفة الغربية المحتلة، لا يعانون ظروفا صعبة.

و الهدف من تقريرى هذا هو تشخيص طبيعة المأساة، و ما تعنيه بالنسبة للسكان الذين يتأثرون بالتغيرات التى طرأت منذ عام ۱۹۶۷ .. فأنت أينما تذهب تجد ما يدل على الاضطراب و الغليان، و هو يختفى وراء الظواهر التى تشاهدها لأول وهلة. و لا يظهر هذا الغليان الا عندما تقع حادثة مهمة أو يحصل حادث ذو بال.

ثم يقول: و لقد اضطرب العالم الاسلامى بشكل لم يسبق له مثيل من قبل

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۸۳

بعد حادث الحرق للمسجد الأقصى .. و كان هناك المسجد الاسلامى الأعلى فى القدس الذى يشرف على الشؤون الاسلامية فى أيام الانتداب البريطانى.

فألغت اسرائيل هذا المجلس و عوضت عنه بلجنة تضم تسعة أعضاء مخولين بادارة شؤون المسلمين معظمها .. بموجب القانون الذى أصدرته فى ۱۹۶۹ (على ان يكون ثلاثة من أعضاء اللجنة من غير المسلمين) .. و يحق لهذه اللجنة تعيين قضاة للمحاكم الشرعية الاسلامية. و حيث ان الاسلام لا يعترف بتعيينات تصدر عن جهة غير مسلمة فان سلطة القضاة الذين تعينهم اللجنة الاسرائيلية هى موضع شك المحاكم الشرعية. فنتج عن ذلك كثير من الخلط و الارتباك بين أعضاء اللجنة حول الاجراءات و القرارات التى تتخذها.

ثم يقول المستر فيلدنغ ان أعمال تدمير المنازل فى القدس القديمة مستمرة، فهناك على ما يصرح به كوليك محافظ المدينة اليهودى مشاريع لبناء وحدات سكنية لايواء ألف مستوطن يهودى داخل المدينة المسورة .. و يوجد كذلك فى المدينة القديمة (باص) مصمم بصورة خاصة على شكل بيضوى لتسهيل مروره فى الشوارع الضيقة و تحت المبانى التى تعلو طريق السيارات الممتد بين بوابة يافا و حائط المبكى، و يمر الباص كل عشرين دقيقة من بطريركية الأرمن، لكن هذه الخدمة قابلها العرب باشمئزاز و لم يؤيدوها، و لذلك فان الباصات فى أغلب الأحيان ينقصها العدد الكافى من الركاب .. و هذه بلا شك ظاهرة تجلب انتباه السياح اليها بقدر ما يجلبه الندب و البكاء عند حائط المبكى نفسه. و مع هذا فان تسيير خط الباص يعتبر خطوة غير مباشرة لتقوية قبضة الاسرائيليين على القدس بقسميها القديم و الحديث.

و قد تمكن الاضراب العربى الذى أعلن فى ۱۵ مايس ۱۹۶۹، فى القسم الشرقى من القدس، من اغلاق المحلات التجارية كافة ابتداء من الساعة الثامنة و النصف صباحا .. الا أن العربات الملأى بالشرطة أرغمت أصحاب المحلات التى تقع فى خارج السور على فتح محلاتهم، و سجلت أسماء المتباطئين منهم .. لكن الذين كانت تقع محلاتهم فى داخل المدينة القديمة أغلق ۹۵٪

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۸۴

منهم محلاتهم طوال اليوم. و كان الذى حدا بالذين عادوا الى فتح محلاتهم هو أنهم تذكروا إضرابا سابقا فقد خلاله خمسة عشر محلا تجاريا جميع ما كان فيها على سبيل العقوبة .. و لهذا يبدو ان قمع الاضرابات على هذه الشاكلة أصبح ظاهرة اعتيادية متكررة فى عهد الاحتلال الاسرائيلى .. و قد استمر تطبيق قانون ضريبة الدخل، و الضرائب المفروضة على الأعمال، على كل شخص يسكن فى القدس الشرقية، كما تعرض ثلاثة فنادق هى: فندق سنت جورج، و فندق القصر الوطنى، و فندق الحجاج، الى اجراءات صارمة فى ۱۵ نيسان ۱۹۶۹. و قيل ان وكالات السياحة فى القدس الشرقية قد توقفت عن العمل و أعطى لها بدلا عن ذلك عنوان يقع فى القدس

الغربية، و عن طريق هذا العنوان فقط يتم تنظيم الرحلات السياحية و ترتيبات السكن.

و يقول عن السيارات: ان أصحاب السيارات، عدا الذين يسكنون منهم فى القدس الشرقية، يرغمون على تعليق لوحة تسجيل إضافية فى سيارتهم تحمل حرفا عبريا يدل على المدينة المسجلين و المقيمين فيها. و يعد هذا جزءا من تدابير الأمن المتخذة للسيطرة على شؤون السفر و التنقل بين مختلف المناطق العسكرية. و فى حالة زيارة العرب لأقاربهم أو ذهابهم لتولى بعض الأعمال الاعتيادية، فان ذلك يتطلب الحصول على تصريحات خاصة. و يشمئز العرب من هذه الحالة باعتبارها تشريعا ممقوتا يشابه القانون النازى الألمانى الذى كان يفرض على اليهود ان يحملوا نجمة صفراء اللون خاصة بهم.

و بعد ان يورد توم فيلدينغ أرقاما و إحصاءات عن المنازل و القرى العربية المهدمة، و لا سيما حول القدس، يتطرق الى ذكر المحاكم الشرعية فى القدس فيقول: و تضغط الحكومة الاسرائيلية على محكمة القدس الشرعية و الأوقاف و على القاضى نفسه لابقائهم خاضعين لسيطرة وزارة الشؤون الدينية .. و قد وسّعت الحكومة صلاحية قاضى يافا بحيث شملت القدس لأن هذا الأخير يميل الى الاعتراف بالسيطرة الاسرائيلية، و ان اسرائيل ترفض قبول الأحكام الصادرة عن قاضى القدس نفسه و كذلك فان محكمة الروم الأورثودكس لا

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۸۵

يعترف بها، فتفضل أحكام المحكمة العليا الاسرائيلية عليها.

و قد صرح لى اناس كثيرون عن اعتقادهم بوجود خطة إسرائيلية متقنة للقضاء على وجوه المجتمع العربى و زعمائه فى القدس و غيرها بالتدريج. و قد طبقت هذه الخطة على المثقفين و الطلبة و الأساتذة و الأطباء و الممرضات و الأعيان المحليين، و جميع من له خبرة فى الادارة و الخدمة المدنية الخ ...

و آخر ما يورده فيلدينغ عن ما يعانيه سكان القدس من مضايقات قصة شخص يدعى نعيم عشّاب، ألقى القبض عليه أول مرة فى ۷ كانون الثانى ۱۹۶۸ فى أحد شوارع القدس فضرب و أهين علنا من قبل رجال الأمن الاسرائيليين ... و نزف الدم منه بنتيجة ذلك .. ثم وضع فى زنزانة صغيرة مظلمة فى سجن دامون. و لم توجه له أية تهمة، كما لم يسبق له ان اتهم بشىء ثم أفرج عنه فى أيار ۱۹۶۸ و وضع تحت الاقامة الجبرية فى بيته، بشرط ان يثبت وجوده فيه مرتين فى اليوم الواحد، و ان لا يترك الدار من غروب الشمس الى شروقها، و لا يغادر القدس مطلقا. و استمر على هذه الحالة ستة أشهر كان خلالها هو و زوجته يتعرضان الى تعديات كثيرة ثم منع من زيارة اخته و زوجته لمدة سنة، كما منع من زيارة والد زوجته المسن المريض الساكن فى الضفة الشرقية. و ألقى القبض على السيد عشاب للمرة الثانية فى ۳۰ تشرين الأول ۱۹۶۸ و هو ما زال فى التوقيف حتى كتابة هذه السطور ..»

موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۸۶

فهرست الموضوعات

الموضوع الصفحة

القدس فى المراجع الغربية ۷

اسم القدس و موقعها ۸

القدس فى دائرة المعارف الاسلامية ۱۴

القدس فى دائرة المعارف البريطانية ۲۱

الاناء الذهب ۳۳

من التاريخ القديم ۴۲

هجرة ابراهيم (ع) الى فلسطين ۴۴
خروج اليهود من مصر الى فلسطين ۴۷
كيف استولى داود على القدس ۴۸
سليمان الحكيم ۵۱
ملكة سبأ فى القدس ۵۶
حياة السبى ۶۷
العودة الى اورشليم ۶۹
القدس فى حكم اليونانيين ۷۱
المكابيون و ظهور السيد المسيح ۷۴
صلب السيد المسيح ۷۷
موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۸۷
تدمير القدس على ايدى الرومان ۸۳
بعد تدمير القدس ۹۰
استنتاجات اساسية ۹۱
استيلاء العرب على بيت المقدس ۹۸
المسجد الاقصى ۱۰۲
شكل مسجد الظاهر ۱۰۹
تكوين جامع المهدى ۱۱۰
المسجد الاقصى الاموى ۱۱۲
قبة الصخرة ۱۱۳
وصف كريسويل لقبة الصخرة ۱۲۳
القدس و الحروب الصليبية ۱۳۰
مملكة القدس الصليبية ۱۳۵
كيف استرد صلاح الدين القدس ۱۳۶
الحروب الصليبية فى مراجع اخرى ۱۴۰
رحلة بنيامين ۱۴۷
رحلة الى القدس ۱۵۲
الاماكن المسيحية المقدسة ۱۵۵
زيارة اماكن اخرى ۱۶۰
القدس فى العهد العثمانى ۱۶۲
القدس فى الحرب العالمية الاول ۱۷۰
الجنرال اللنبى ۱۷۷
موسوعة العتبات المقدسة، ج۵، ص: ۲۸۸

مشكلات ادارية و غير ادارية ۱۷۹
وعد بلفور ۱۸۵
صك الانتداب ۱۹۰
تنفيذ الانتداب ۱۹۴
رئاسة البلدية ۱۹۸
حائط المبكى ۲۰۱
بلفور فى القدس ۲۰۸
الكفاح العربى ۲۱۱
مفتى القدس ۲۲۱
القدس فى الحرب العالمية الثانية ۲۲۶
تخلى بريطانيا عن فلسطين ۲۳۰
تقسيم فلسطين ۲۳۳
مناورات صهيونية لاقرار التقسيم ۲۳۶
دير ياسين و اخواتها ۲۳۹
مولد اسرائيل ۲۴۳
تدخل الجيوش العربية ۲۴۶
معركة القدس ۲۴۷
مقتل الكونت برنادوت ۲۵۸
مقتل الملك عبد اللّه ۲۶۶
تدويل القدس ۲۷۱
القدس فى سنة ۱۹۶۰ ۲۷۴
شىء عن قبة الصخرة ۲۷۷
القدس فى عام ۱۹۶۹ ۲۸۲

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).
قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).
مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائمیّة "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ– فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/ "بنایة "القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹